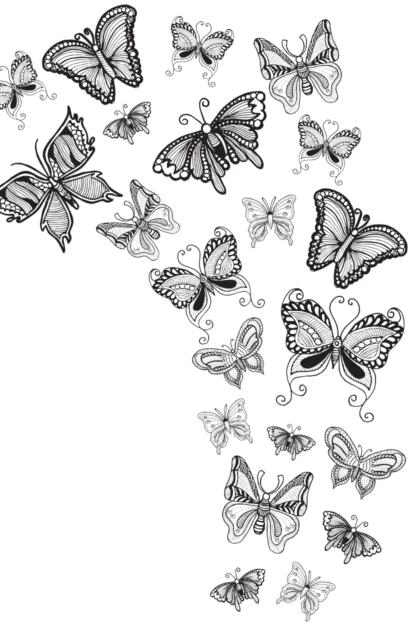

تأملات رسامة

بسم الله الرحمن الرحيم

تأملات رسامة

نعمت مهدي البياتي

جميع الحقوق محفوظة

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر

All right reserved, no part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system of transmittedinanyformorbyanymeanswithout prior permission in writing of the publisher

العراق: دارالكتب. موزعون ناشرون رقم الإداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ??? لسنة 2019

الطبعة الأولى

2019 م / 1440 هـ

All right reserved

دار الكتب
Book House

+964 781 111 0341
+964 771 444 2954
العـراق - كــربلاء - حــي النقيب
www.bookhouse.store
info@bookhouse.store
Book House book.house

الإهداء

الى معلمي الأول

الى معلمتي الأولى

الى أبي وأمي

يامن علمتماني وألهمتماني

أهديكما بنات أفكاري لترضيا عني

Ne’amat Mahdi Selbi

فارسة الفضاء

(الجزء الأول)

كانت جالسة تتأمل في ذعر ما حلَ بكل المسافرين على متن تلكَ المركبة الفضائيةِ المغادرةِ من الأرض الى كوكب المريخ، عندما أستعرضَ الحاسوب الأم مركز القيادة، حيث دلفت بناءاً على طلب منها... أن يعرض ماصورتهُ كاميرات المراقبة في ردهات وغرف السفينة في آخر ساعات كونية قبل أن تستيقظ من سباتها،حيث كانت نائمة في كبسولة مخصصة لنوم المسافرين الذين لايريدون قضاء مدة السفر الطويلة وهم في يقظة، حيث طورت في الألفية الرابعة طرائق تمكن الأنسان من الدخول في سبات طويل من النوم دون أن يعيق ذلك وظائفه الحيوية أو يعرقل عمل وظائفه الجسدية ولأن سفرتها الفضائية تلك تستمر لسنوات طويلة (حيث أن العلم لم يكتشف في الأرض طريقة السفر بالسرعة الضوئية حسب النظرية الأينشتانية التي تقتضي بتلاشي الكتلة مع سرعة الضوء) فقد أختارت تذكرة السفر الذهبية التي تمكن المسافر من النوم لمدة طويلة تستمر لأشهر ثم يستيقظ لفترة بسيطة ويعطى كبسولات فموية تعده لسبات آخر وهكذا حتى نهاية السفر فهي لم تكن راغبة بالأختلاط بمسافرين آخرين خصوصاً وأنها قد علمت تماماً كما يعلم الجميع أن لا أحد يسافر الى المريخ إلا من يبحث عن عمل ممن لم تتوفر له فرصة العمل على كوكب الأرض فيضطر للعمل بأجور منخفضة على سطح المريخ، أو أولئك الذين أشتاقوا الرؤية أقربائهم ممن حكم عليهم بالنفي الى المريخ دونما عودة...

أما هي فلماذا تغادر الأرض؟؟

كانت فكرة والدتها التي لما طرحتها على زميلاتها في العمل أيدوها بشكل تام وظلت هي في حيرة من أمرها حتى أقتنعت أن سفرها هو الحل الوحيد كي تتخلص من كلام الناس ولوم

والدتها لها على الدوام ورغبتها المستمرة في أن تحظى بحفيد منها لأنها أبنتها الوحيدة...

أنها عالمة في مركز دراسات وأبحاث علوم الكواكب ومختصة في علم تشريح الكائنات الفضائية حبها لدراستها وتعمقها في أبحاثها جعلها لاتفكر إلا بالعلم والأمور الكونية، لكن ألحاح والدتها اليومي الذي أصبح كتحية الصباح والمساء شيئاً مكرراً جداً وأمسى أمراً مزعجاً للغاية جعلها تقرر السفر عدة سنوات لتتخلص من الكلام والألحاح المستمرين حتى لو قضت عدة سنوات من حياتها في مركبة مجهولة في وسط الكون!! أخذت الدموع تنهمر من عينيها تباعاً وهي تنظر صور تلك الوجوه المرعوبة برؤية ذلك الكائن العجيب الذي يرتدي قناعاً يمنع من رؤية وجهه ذلك الكائن الذي ما أن يراه إنسان أرضي حتى يحوله رماداً بمسدسه الأشعاعي صورت المركبة بكاميراتها وتقنيتها المتطورة صوراً مقربة له، فما أن إنتهى ذلك الفضائي من تحويل جميع الأرضيين الى رماد حتى خلع خوذته وقناعه المصنوعين من مادة كونية لم تكتشف في الأرض قط ظهرت ملامح وجهه فطلبت من الحاسوب أن يقرب الصورة كي ترى من هو ذلك القاتل الدنئ ولشدة دهشتها كانت عيناهُ حمراوين وشعره أزرق اللون أما ذراعاه الطويلان وقامته الفارعة في الطول بمقدار رجل أرضي ونصف فقد كانت تحيطهم جميعاً بزة فضائية عجيبة ذات لون أسود يميل الى الزرقة...

وكانت في تلك البزة زخارف غريبة ذات رموز لعلها شفرات خاصة تلتمع وتنطفئ تلقائياً، وكشر الفضائي عن أسنانه كانت أشبه بأنياب منها لأسنان بشرية فشعرت الفتاة برعشة خوف تسري في كل عروقها...

وأمرت بسرعة بصوتها حاسوب القيادة أن يوقف تلك الصور فعادت الى عزلتها وأصبحت وحيدة في وسط مركبة فضائية كبيرة في بقعة مجهولة من الكون، دفعت بكتفيها الى الوراء وغاصت في المقعد الذي جلست فوقه وهي تنظر الى الشاشة الكبيرة أمامها مستعرضة تلك النجوم البعيدة والقريبة، وفجأة خطر ببالها أن تسأل عن مكانها وموقعها وكيفية قيادة المركبة وهل لها أن تعود الى موطنها من جديد...

كانت أجابات الحاسوب الأم في المركبة محبطة لها الى حد كبير لقد سرق الفضائي كل الوقود

الذري الأحتياطي في المركبة ولذلك لايمكن للمركبة أن تتحرك في الفضاء خطوة أخرى موقع المركبة قريب بمقدار سنة حتى الوصول الى كوكب المريخ المنشود وجهتنا الأصلية، لكن لايمكننا الوصول إليه الآن وستظل المركبة عالقة في وسط المجهول وتساءلت الفتاة بذعر أو لا يمكن أن نرسل أشارات أستغاثة، أرجوكَ أيها الحاسوب أجنبي يجب أن تكون هناكَ طريقة ما من غير المعقول أن أظل هنا الى الأبد سأجن حتماً فأجاب الحاسوب بسرعة:

كلا كان من الممكن إرسال أشارات أستغاثة لو كنا قريبين الى الأرض لكننا أبتعدنا كثيراً بسنوات أرضية فأحتمالية وصول الأشارة ضعيفة جداً إن لم تستغرق سنوات حتى الوصول الى كوكبنا الأم...

ظلت الفتاة غارقة في اليأس ولم يبق في اليد حيلة إلا أن تتأقلم مع جو المركبة وتعيش فيها وكأنها موطنها، كان الطعام كثيراً وكل وسائل الراحة معدة في المركبة لأجل المسافرين، فأخذت الفتاة تقضي وقتها بالتنقل بين ردهات المركبة وأصبحت تحفظ أرقام شفرات الغرف السرية فيها، ولأنها لم يكن لديها شيء تفعله فقد أصبح حفظ تركيب المركبة وطريقة قيادتها يومياً من الحاسوب الأم أمراً تحبه و روتيناً مفروضاً عليها من قبل نفسها لأنها كانت تشعر بأهانة ذاتها إن مر يومها الذي تحسبه عبر الحاسوب إذ لا ليل ولا نهار هناك حيث توجد بدون أن تتعلم شيئاً أو أن تقرأ...

لم تكن هنالك كتب بل معلومات هائلة مخزنة في الحاسوب، أصبحت مادة دسمة تتعلمها كفروض يومية كي تقضي ساعات وحدتها الرهيبة مع مرور الأيام بدأت تتخيل وجود أصوات تناديها تركض نحو الصوت فلا تجد سوى الأثاث والجمادات لا وجود لحياة حولها، لا أحد يتحدث معها سوى حاسوب مبرمج ليتحدث كالبشر ويجيب مثلهم ولعلها كانت تشكر الله في سرها لوجود ذلك الحاسوب لأنها بدونه كانت لتجن فعلاً...

مرت أشهر أرضية وهي على ذلك الحال كان من المفروض أن تقضيها بسبات جديد لو لا ماحصل لطاقم السفينة ورجال الأرض العاملين ومسافري المركبة الفضائية بدأت تتكلم مع نفسها كثيراً...

حسناً، اليوم سأقوم بفعل هذا وهذا حسناً، ماذا سآكل؟؟

حسناً، سأذهب الى تلك الغرفة سأنزل بذلك المصعد غرفة المؤونات في المستودع أسفل السفينة لعل من الحكمة أن أذهب بنفسي للتقصي عن كمية الطعام والشراب مادمت سأحيا هنا للأبد...

وتوقفت عن الكلام لبرهة وقد أصيبت بذعر شديد، رحماكَ يارب هل سأعيش هنا الى الأبد؟؟هل ذلك ماأرادته أمي لي؟؟

كانت تخشى أن أقضي أيام شبابي الباقية بمفردي والآن صار لزاماً علي أن أعيش في عزلة تامة في وسط الكون؟؟

رباه، أي عذاب هذا، لم، لم يقتلني ذلك الفضائي أو لأنني كنتُ، كنتُ في سبات لكن لم أكن بمفردي في كبسولات النوم المنفردة كان هناك المئات، لم أنا بالذات بقيت على قيد الحياة؟

وتناثرت الدموع من مقلتي الفتاة، لم تعد تسيطر على أنفعالاتها فأنفرطت في نشيج طويل، بكت فيه نفسها وسنوات شبابها وبكت فيه والدتها ووالدها اللذين لن تراهما وصديقاتها وعملها الذين تركتهم على الأرض، وبينما كانت مسترسلة في ذلك البكاء الطويل إذ بها تشعر بحياة خلفها، نعم من المستحيل أن تخطأ بذلك، أنها حياة ماخلفها مباشرة شعرت بها بكل كيانها وحدسها الأنثوي ألتفتت بسرعة لتطلق صرخة رعب رهيبة، كانت تلك الحياة عبارة عن ذلك المسخ الفضائي الذي أباد كل شخص فوق سفينتها، كان واقفاً بلا حراك أمام بوابة غرفة القيادة حيث جلست هي أمام شاشة الحاسوب الأم رفع القناع عن وجهه ووضعه بين يده اليسرى وجسده التمعت عيناه الحمراوين بينما ماتت الكلمات على شفتي الفتاة وأيقنت أنه قد جاء لقتلها رغم أنها كانت ترتجف خوفاً الإ أن شعوراً في داخلها أنبأها أن لاتخاف كثيراً، فالموت عندها أهون من الحياة بذلك الشكل الى الأبد ولعل الفضائي جاء ليضع حداً لمعاناتها فصاحت به دونما خوف...

أقتلني الآن أنا على أتم الأستعداد أيها المسخ، قالت ذلك وأغمضت عينيها وأستعدت

لتلقي الأشعاع من مسدسه الفضائي، لكن مضت دقائق لم يحصل فيها شيء فتحت عينيها لترى المخلوق جاثياً قرب كرسيها وهو ينظر اليها بشكل غريب، أيتها المخلوقة الأرضية أنني أعرفكِ منذ زمن بعيد كلمها دون أن يفتح فمه فصعقت لذلك، كان يتخاطر مع عقلها...

أنا من كوكب بعيد متطور جداً ونحن لانتقل مثلكم فأنتم بدائيون، وماشاهدته في شاشة الحاسوب كان واقعاً، إلا أن علومك المتدنية الأرضية لم تنبئكِ أن مسدسي الأشعاعي هذا كان وسيلة نقل الى أبعاد فضائية أخرى لأني كنتُ أنقل رجالكم الأرضيين للعمل في كواكب تابعة لكوكبي الأم لذلك أيتها المخلوقة الأرضية الحمقاء، دعيني أقول لكِ أنا لستُ قاتلاً ولا داعي لتخافي مني...

أمسك بذراعها وشدها نحوه ثم إبتسم كانت إبتسامته تلك كفيلة بأرعابها لأن فمه الكبير قد أمتد من أذنه الى الأذن الأخرى، فعلمت علماً يقيناً أن ذلك هو أحد أسباب عدم تحدثهم إلا عن طريق التخاطر وخفق قلبها بذعر...

ماذا تريد مني؟؟

صرخت بصوت عال، عاد المخلوق للتخاطر معها وهو يرمقها بنظرة تَعال: لاداعي للصراخ فأنا أقرأ أفكاركِ أصلاً لقد عدتُ لأجلكِ أيتها المخلوقة الأرضية كي لاتظلي بمفردكِ هنا أنا أعتذر عن تأخري فالأبعاد الزمنية خطيرة وبوابات المكان التي أنتقل خلالها تحتاج طاقة نووية إستعرتُ بعضاً منها من سفينتكم...

ومن أعطاكَ الحق في نقل سكان كوكبي كعمال عند مستوطناكم وسرقة وقود مركبتنا...

قالت الفتاة دون أن تنطق وشعرت بالغرابة بعض الشيء لتلك الطريقة الجديدة في الكلام، نظر المخلوق الفضائي إليها بدهشة وألتمعت عيناه بوهج أحمر...

أنتِ لاتعلمين شيئاً عني، ولن أخبركِ شيئاً لحد الآن كل ما أطلبهُ منكِ أن تأتي معي الى كوكبي هل توافقين؟؟

لم علي أن آتي معكَ وبصفة ماذا؟؟

رفع الفضائي عينيه تجاهها وقرب وجهه نحوها وشد ذراعيها بأتجاهه بقوة...

أنا أعرفكِ منذ أن كنتِ في الأرض أيتها العالمة في تشريح الكائنات الفضائية أنا ذلك المخلوق الذي عفوتِ عنه وساعدتِ على هربهِ من آيادي الجهلاء من شعبكِ لأنني لم أكن ميتاً وأرادوا أن يشرحوني لعلكِ لاتذكرين هذا إلا أنني لن أنسى معروفكِ وأنقاذكِ حياتي فقد وقعت في أسر أحد أعداء كوكبنا فقاموا ببيعي الى تجار العبيد على الكواكب وأنتقلوا بي من مكان الى آخر حتى وصلوا بي الى كوكبكم المتدني معرفياً والخصب بكل موارد الحياة كي يربحوا أكثر، حاولت الهروب وحصل شجار أردى بي جريحاً ونقلوني الى مركز الدراسات حيث تعملين، كنتِ الوحيدة التي أدركت أني لا أزال حياً وأهتممتِ بإخراجي هل تذكرتِ الأن...

رباه، لقد تذكرتُ، نعم كانَ زملائي على دراية أيضاً بحياتكَ إلا أنهم شعروا بالفضول العلمي لمعرفة تشريح جنسكم المجهول بالنسبة لنا فلم نر قبلاً مخلوقاً مثلكَ يا ألهي هل هو أنتَ؟؟

ونظرت الفتاة بحنو نحو الفضائي أذاً فمعروفها ذاكَ اليوم قد أثمر بعد سنوات وها هي في وسط المجهول جالسة أمام نفس الفضائي الذي أنقذت حياتهُ يوماً والذي كادت بسببهِ أن تخسر وظيفتها أدرك الفضائي بقراءته لأفكارها مالم تتكلم به فعلم أنها كادت تخسر وظيفتها بسببهِ وألتمعت عيناه عرفاناً وشكر، أو تعلمين منذُ ذلك اليوم وأنا أراقبكِ أيتها الأرضية الطيبة...

خاطرها بعد أن أطرق قليلاً وكان لايزال يمسك ذراعيها بيديه ومخالبه الزرقاء تكاد تمزق قماش ساعديها...

أنا الآن أطلب منكِ مرافقتي الى كوكبي هل تأتين؟؟

بصفة ماذا ولماذا؟؟

توهجت عيناه الحمراوان والتمعت خصلات شعره الزرقاء بوهج أزرق، شعرت الفتاة أنها أمام عفريت من الجان، كما كان يقص الأجداد قصصاً عنهم سرت قشعريرة رعب في جسدها وأرتعدت أوصالها بينما خاطرها الفضائي بعد حين، أريدكِ أن تأتي معي بصفة زوجة لي لأنني أخترتكِ من بين كل الكواكب وكل فتيات الكون كي تكوني لي زوجةً فهل تقبلين؟؟

فارسة الفضاء

(الجزء الثاني)

نظرت الى الكائن الفضائي وهو ينظر إليها بعينيه الحمراوين كأنه يسبغ أغوار روحها كيف لي أن أقبل عرضاً كهذا وأنت تعرف عني أكثر مما أعرف عنكَ أعتقد أن من غير العدالة أن تعرض عرضكَ هذا علي دون أن أعرف من تكون أنتَ والى أي مكان سأذهب أو ليس من المنطق أن أعرفكَ ولو قليلاً!!

قالت الفتاة له بأفكارها دون أن تتكلم، عيناها السوداوان ووجهها الأبيض وملامحها الدقيقة من فم صغير وأنف مستدق كانت عناصر جمال بالنسبة لسكان الأرض، أما بالنسبة لذلك المخلوق الفضائي فلعلها كانت تبدو لهُ مسخاً مثلما بدا لها، كانت تفكر في ذلك للحظات عندما إبتسم الفضائي ونسيت أنه يقرأ الأفكار، نظر إليها وهو يخاطرها...

حسناً، من حقكِ أن تعرفي...

دعيني أريكِ كوكبي، حركَ يدهُ بأتجاه باب غرفة القيادة حيث كانا كليهما فظهرت سحابة ضوئية أرتسمت فيها صورة لكواكب عدة في نظام شمسي لا يشبه نظام مجرة درب التبانة في شيء وكانت الشمس زرقاء في وسط تلك المجموعة الشمسية لا حمراء ولا صفراء وعدد الكواكب يتعدى العشرين كوكباً تدور حول شمسها بشكل مداري بيضوي قال لها تخاطرياً...

– هنا كوكبي نحن ننتقل بسرعة الضوء أعترضت عليه بسرعة بأفكارها، لكن نظرية أينشتاين في القرن العشرين هه!!

أنتم الأرضيون ونظرياتكم المتخلفة لم تكتشفوا ولن تكتشفوا القرن قادم ما إكتشفناه نحن، لكن سكان كوكبي تعرضوا للأبادة والأستبعاد قروناً طويلة بسبب علومهم وتطورهم

وتقنيتهم، عندما تأتين الى كوكبي...

سأعلمكِ كل شيء عنهُ ماذا تقولين الأن ألتفت إليها وقد سد قبضة يدهِ اليسرى فتلاشت تلك السحابة الكونية نظرت إليه بتردد...

لاأعلم سآتي معكَ ولكن ليس كزوجة لكَ علي أن أعرفكَ أكثر أيها الفضائي قالت ذلك بأفكارها وهي تنظر إليه بريبة أبتسم الفضائي وأمسك بكم قميصها ورفعها الى أعلى فوقفت بسرعة وكأن قوة ما أنهضتها لا يدهُ فقط...

حسناً، لنقل أنكِ خطيبتي هل تقبلين بهذا؟؟

لم لاتعيدني الى كوكبي وتأتي لزيارتي كي أتعرف اليكَ، قالت ذلك بتشكك فظهرت علامات الغضب في عينيه ونظرها شزراً...

أنتِ لاتعلمين مهامي الكبيرة في كوكبي أنا قائد الجيش ضد أعداء الكوكب وعلي أن أكون دوماً متأهباً لصد أي هجمات على كوكبي، لايمكنني المجيء الى كوكبكم المتخلف رغم أني خاطرت عدة مرات وجئت إليه كي أدافع عنه من هجمات فضائين لاتعلمين من هم أصلاً وليس لشعبكِ الأرضي أي فكرة عنهم...

- أنتَ تدافع عن كوكبي لماذا؟؟

- دعِ عنكِ كل الأفكار الأن، حبيبتي لقد عرضت عليكِ الزواج فهل ترفضينني أم ماذا؟؟

- أعدني الى كوكبي أرجوك أن كنتَ تحبني فعلاً؟؟

قالت ذلكَ وهي تنظر الى عينيه مباشرة بتحدٍ، لانت نظراتهُ بعدَ أن كانت تشتعل غضباً، أرخى قبضتهُ على ذراعها وقال بأفكاره مستسلماً...

ليكن لكِ ما أردتِ لكن لتعلمي أنني لن أستطيع القدوم الى أرضكِ إلا كل سنة مرة واحدة هل تفهمين ذلكَ وسوف لن تريني حتى العام القادم هل تريدين ذلك الآن؟؟

ظهرت فجأة بوابة ضوئية مستديرة أشار الفضائي بيده للفتاة أن تدخلها نظرت إليه بتردد

كان ينظر إليها بحزن خفي قرأته في نظراته...

وداعاً ياأرضية سأراكِ بعد عام هكذا!! كيف سأتعرف اليكِ؟؟ وماذا لو تعرفتِ الى شخص على الأرض وتزوجتِ أو تتخلي بسهولة عني هكذا؟؟

لقد أستحلفتيني بحبي لكِ أن أعيدكِ الى أهلكِ، وأنا أحبكِ فعلاً حتى وأن كنتِ لاتعرفينني ولقد راقبتكِ زمناً وحرضت والدتكِ على دفعكِ للسفر هنا كي ألتقي بكِ فلدي طرقي الخاصة التي لاتعرفينها أنا أستطيع تغيير شكلي مثلاً الى صديقتكِ المقربة التي سألتها عن سفرتكِ هذه فنصحتكِ بالذهاب وفجأة تغير شكل الفضائي الى فتاة في منتصف العشرين من عمرها كانت صديقتها تشبهها للغاية فأطلقت الفتاة صرخة رعب...

رحماكَ يارب!!

حسناً، أذاً هل تريدين مني أن أكون كما ألتقيت بكِ على الأرض (أرضكِ) وحدثتكِ طويلاً وتعارفنا من قبل...

قال ذلك وأشتعلت فجأة تلك الرموز الزرقاء في بزته السوداء المائلة الى الزرقة بلون أزرق فيروزي ولشدة دهشتها تغير لون شعره الى الأشقر وعينيه الى الأزرق صرخت بدهشة...

ياألهي...

إنكَ ذلكَ الشخص الذي ألتقيتُ به في المطعم وجلسنا على الجسر وتحدثنا طويلاً ثم إختفيتَ فجأة كنتُ قد أوقعتُ محفظة نقودي ودلفت مطعماً لأتناول الغداء أذ كنت متعبة ولم أقوى على العودة الى المنزل قبل أن أتناول طعاماً ولما أردت الدفع لم أجد محفظتي، ولشدة دهشتي تلعثمت.. أراد النادل أن يطلب صاحب المطعم والشرطة فشعرت بإحراج شديد حينما ظهر ذلك الشاب الذي هو أنتَ!!

دفعَ الحساب مبتسماً وبشكل دبلوماسي لم يشعرني معهُ بأي إحراج ولم يطلب سوى أن أجلس معهُ قليلاً، ولشدة أمتناني لهُ جلست معهُ وتحدثنا..كانَ شاباً رائعاً تمنيت أن ألتقي به مجدداً حدثني عن أمور كثيرة وثم تمشينا فوق النهر على الجسر القريب من المطعم، لا أدري كيف

مرَ الوقت معهُ سريعاً ولما ألتفت أخيراً لم أجدهُ...

تاهت أفكار الفتاة وهي تستذكر كل ذلك فسقطت على المقعد بإعياء خاطرها الفضائي بخوف...

هل أنتِ بخير ياأرضيتي ؟؟

نظرت الى عينيه الوجلتين كان خائفاً لأجلها وعليها.. رفعت رأسها من بين يديها، كانت البوابة الضوئية قد أختفت.. تساءلت وهي تنظر إليه...

أو حقاً كنتَ أنتَ ذلك الشخص الذي بقيت أتمنى أن ألتقي به يوماً بل، بل كنتُ أراهُ في حلمي في وسط الليالي المظلمة فأستيقظ فزعة حائرة...

- إنهُ أنا نعم.. غيرتُ فقط لون شعري وعيني لأكون مثلكم فأنتم تخافون الأختلاف أيها الأرضيون، لكن ماأعرفهُ عنكِ أنكِ تحبين الأطلاع والمعرفة وتشريح الفضائين.

-ذلكَ إختصاصي!

قال بلا مبالاة...

إذاً أعتبريني درساً من دروسكِ.. أدرسي تكويني أنا أتنفس الميثان ودمي أزرق هل أقطع لكِ جزءاً من جلدي لتري دمي...

كلا أرجوكَ لا، قالت الفتاة وأغمضت عينيها خوفاً...

- هل تخافين علي؟؟

- إنكَ مخادع...

قالت بأفكارها أعتراضاً...

جثا الفضائي قرب قدميها حيث كانت جالسة فبدأ أصغر حجماً أذ كان طولهُ الفارع مصدر أزعاج نسبي بالنسبة للفتاة...

هل توافقين الآن على القدوم معي، هل تثقين بي ياأرضية؟؟

كانت عينيه مسمرتين على نظراتها الساحرة الصغيرة...

نسيت أن أخبركِ أمراً جواباً على تساؤلاتكِ...

- نعم أنتِ جميلة حتى بالنسبة لفضائي مثلي...

أطرقت الفتاة خجلاً...

إذاً هل تقبلين الأن؟؟

رفعت رأسها ونظرت بثبات نحو عينيه...

- نعم أيها الفضائي أقبل بكَ زوجاً لي، ولكن عدني أمراً أن تعيدني الى أهلي متى شئت رؤيتهم...

- ولسوف أعلمكِ علوم كوكبي وستكونين أميرتي الغالية حبيبتي الأرضية.. طلباتكِ أوامر عندي...

قال ذلك وهو يخرج خاتماً أزرق من العدم من بين أصابعه ومخالبهِ الرهيبةِ ويضعه فوق بنصرها ليقوم الخاتم بإحاطة أصبعها حسب حجمه وكأن لديه عقلاً خاصاً يفهم القياسات والأحجام...

فارسة الفضاء

(الجزء الثالث)

حسناً حبيبتي...

ها أنتِ معي وقد أصبحنا زوجين حسب نظام كوكبنا وقوانينه وأنظمته وعاهدتكِ على حبي وكوني زوجاً لكِ في السراءِ والضراءِ كما عاهدتيني أنتِ حسب شرائع وأنظمة كوكبكِ فلم الحزن إذاً؟؟

قال الفضائي للفتاة الأرضية وهو يجلس الى جوارها فوق سرير لازوردي ليس له حواف ولا فراش فوقهُ بل كان مصنوعاً من مادة عجيبة لاتعرف الفتاة الأرضية عنها شيئاً تمنح الجسد أرتياحاً لانظير لهُ ما إن يستلقي فوقه وكان السرير محاطاً من جهة الرأس بدرجين صغيرين، حيث وضع الفضائي طعامها على شكل كبسولات وشرابها في آنية شفافة هي أقرب الى مادة الزجاج الأرضية...

نظرت الفتاة الأرضية الى عيني الفضائي الحمراوين متسائلة في نفسها كيف أنها أحبتهُ بتلك السرعة وكيف أن نظراته الحانية رغم غرابة لون عينيه بالنسبة لها، جعلتها أسيرة شباكهِ.. تخاطرت معهُ بحزن عميق ظهر فجأة في عينيها...

أنني مشتاقة لوالديّ وكنتُ أتمنى لو أنهما يعلمان بزواجي وسفري.. أنا أخشى أن يظنا أنني قد متُ مع بقية المسافرين الذين ظننت أنا عن نفسي أنهم ماتوا، لكن...

تململتْ بشكل فجأئي وآنتفضتْ بينما كان الفضائي يحاول أن يفسر لها كيف سيعد لها الأحتياطات اللازمة لرؤية أسرتها الأرضية عندما أطلقت ذلك السؤال الرهيب...

– لكن قل لي بحق كل مقدس على كوكبكَ لماذا فعلتَ بسكان سفينتي مافعلتَ وكيف زعمتَ أنكَ دافعتَ عن كوكبي من هجوم فضائيين وفي نفس الوقت نفيتَ العمال على متن السفينة...

الى أبعاد فضائية مجهولة؟؟

نظرَ الفضائي بذهول إليها وأبتسم بفتور...

– حسناً، أذاً الجواب على سؤالكِ الأول هو أن هولاء الأرضيين قد نفيتهم كي أجنب الأرض من هجوم محتمل فأنا أعلم نوايا حكام ذلك الكوكب الذين يطمعون بغزو الأرض منذ وقت طويل ورؤيتهم لرجال من الأرض يعملون عندهم كان بمثابة تصبيرة جوع كي لايصيب كوكبكِ مكروه ما، سليني أنا عنهم فأن لي معهم خبرةً طويلة قبل أن نتمكن من تحرير أنفسنا وتحقيق كيان كوكبنا الحبيب فهل عرفتِ الآن لم فعلت فعلتي تلك!!

نظرت الفتاة الأرضية الى عيني الفضائي الحمراوين بأمتنان وعرفان وأبتسمت بسعادة وهي تقرأ في عينية الصدق والحب، لها وضعت رأسها بين جنحيه غنجاً ودلالً وخاطرته بفكرها وهي تضع رأسها فوق صدرِهِ:

– ماذا عن أهلي أو لن يعلموا بحالي!!

– لاتخافي...

رد عليها الفضائي وهو ينظرها بحنو لامثيل لهُ وكأنها طفلتهُ المدللة خاطرها بسرعة مطمئناً...

– ماذا تعني بذلكَ...

قالت بفكرها بذهول، أوضحَ لها...

– حسناً، هناك بوابات وممرات زمنية عندما يحين الوقت سترجعين الى وقت تكون فيه أحدى سفن الأرض قد رست للتو من سفرة بعيدة الى المريخ وستقولين لوالديكِ أنكِ قد

نجوتِ بأعجوبة مني وأنكِ صعدتِ على متن هذه المركبة، هناك تفاصيل كثيرة لن أذكرها الآن، دعيها في حينه، لكن الآن عليكِ أن تتعلمي وتدرسي كل علوم كوكبي بينما أذهب لقتال أعداءنا مع بقية الفرسان يجب أن تحفظي كل شيء.. عليكِ أن تكوني على دراية بلغة كوكبي وكل علومهِ، ذاك أني لن أستطيع أخراجكِ من هذه الحجرة حتى تكوني مؤهلة لذلك هل تفهمين ذلك جيداً...

نظرت الفتاة الأرضية الى عيني الفضائي بثبات وقالت لهُ بثقة كبيرة...

سأكون مصدر فخر لكَ لاتقلق...

شكراً لكِ...

قالها بسعادة وأمتنان وأضاف وهو يتثاءب بينما خيطا التنفس يتدليان من أنفهِ كونهُ قد ملأ الغرفة بغاز الأوكسجين لأجل الأرضية وترك لنفسهُ تلكما الأنبوبين على شكل خيطين ليتنفس الميثان، شعرت الأرضية بالأمتنان لهُ وأحست بحبهُ لها بفعلتهُ تلك كونهُ فضلها على نفسه، أخذت تعبث بخصلات شعرهُ وتهدؤه كي ينام بينما أبتسمت أرتسمت رضا على شفتيه...

- حسناً...

شكراً لكِ أيضا حبيبتي...

قال لها ذلك وهو يقرأ أفكارها الواضحة حيث أنها لم تتعلم كيف تواري أفكارها عن الشخص المقابل عندما تريد التحدث تخاطرياً ولم تكن تعرف شيئاً عن تلك الطاقة الغريبة...

فتح أحدى عينيه وهو يغمزها بالأخرى فأبتسمت الأرضية حياءاً عندما غط في نوم عميق.. نهضت الأرضية نحو بزته السوداء أمسكتها متأملة من أي مادة صنعت كانت ذات قوام أشبه بالمطاط وشعرت بوخزة في كفها فجأة فتأوهت متألمة وهنا وثب الفضائي ثائراً وكشر عن أنيابه بغضب فأرتعدت فرائصُ الأرضية...

- ماذا هناك!! كانَ عليكِ ألا تعبثي ببزتي أبداً أنتِ لاتفهمين شيئاً عن علومنا...

جلست الفتاة على السرير بحزن بينما أرتدى الفضائي بزته وألتفت إليها واّبتسم...

لا بأس لنأمل خيراً وأنها لم تنتبه سأذهب الآن...

قال ذلك وفتح بوابة ضوئية بيده وأختفى خلفها وبعد ثوان قليلة ظهرت بوابة أخرى ذهلت الفتاة وتحيرت لماذا عاد مسرعاً ولكنها وجدت أمامها بدلاً منه أمراة طويلة جداً تشبه زوجها الى حد كبير وترتدي وشاحاً أسود طويلاً...

من أنتِ كي يتزوج ولدي منك؟؟ أيتها البدائية المتخلفة لقد أخبرتني خلايا الأستشعار في بزة ولدي بوجود كائن غريب وعرفت سبب أختفائه عني هذه الأيام، أيتها المحتالة الصغيرة عليكِ أن تغادري هذا القصر وهذا الكوكب الى الأبد أتفهمين...

قالت ذلك تخاطرياً ومدت ذراعها الطويلة أكثر من المعتاد بالنسبة للفتاة الأرضية لتمسك بمخالبها ذقن زوجة أبنها وتفرست فيه ملياً قبل أن تقرب وجهها منها...

- أتعلمين كم من حبيبةٍ تنتظر ولدي وكم فتاةً خطبتُ لهُ؟؟

أنني في حيرة من أمري لمَ أختارَ فتاةً متخلفة من كوكب ناءٍ لاشأن لنا به يجب أن تهربي وسأساعدكِ، عليكِ ذلك وإلا، كيف لي أن أقدم هكذا فتاة متخلفة لشعبي؟؟ ماذا أقول لهم وأنا أمبراطورة هذا الكوكب العظيم ذو الأمجاد الساحقة في قهر الأعداء الذين أستعمرونا قروناً ماذا سأقول لهم، أنَّ قائد هذا الكوكب ومليكه العظيم قد أرتضى لنفسه فتاة متخلفة من بين كل كواكب هذا الكون!!

ياللسخرية لا.. لا.. لن أقدمكِ أبداً يجب أن تختفي أنتِ نزوة في حياة ولدي ويجب عليكِ أن ترحلي سوف ينساكِ...

كلا أنا زوجته وقد أختارني ولن أهرب...

قالت منتفضة وهي ترمي بكف الأمبراطورة بعيداً عن وجهها رغم أن مخالبها الزرقاء قد جرحت أصابعها وسالتْ بعض قطرات الدم من بين أناملها إلا أن الأرضية لم تبالِ بذلك

ووقفت بتحدٍّ مقابلة تلك الأمبراطورة ونظرت مباشرة في عينيها...

- حسناً جداً لقد أختارني رغماً عن كل ماقلته أو تقوليه ولسوف أثبتُ لكِ أني أهلٌ أن أكون زوجاً لهُ وأن أحكم كوكبكِ أيضاً ولاتنسي الآن أنكِ تكلمين زوجة أبنكِ، أمبراطورة الكوكب العظيم الذي تحدثت عنه...

لن تكوني ولاتجرؤين أن تكوني مالذي تعرفينه عن كوكبنا كي تحكميه أيتها الجاهلة، يمكنني بأشارة من مخلبي هذا أنْ أنفيكِ الى أبعد كوكب لاتعلمين مكانهُ ولن يعرف أحد به حتى ولدي، لكنّ مايدفعني للرأفة بكِ الآن أني لا أرغب بفطر قلب ولدي الأوحد، سأدعهُ يلهو معكِ زمناً ثم أنفيكِ الى حيث يليق بحثالة مثلكِ تتجرأ على الحديث معي بهذه الوقاحة...

وبينما كانت تتحدث مع الفتاة الأرضية وعيناها تتوهجان حمرة لامعة يخفق قلب أكثر شجعان الأرض رعباً لها، إذا ببوابةٍ ضوئية تفتح على حين غفلة ويظهر الفضائي خلفها...

أماه أستحلفكِ بحبكِ لأبي...

جثى الفضائي عند قدمي والدتهُ وحال بينها وبين زوجته الأرضية، رفع رأسهُ نحوها فأذا بنظراتها الغاضبة تلين وتتحول الى نظرات حنان لامثيل لهُ...

- ولدي الحبيب مالذي جاءَ بكَ من مهامكَ الصعبة؟؟

أماه أنني أحبها أرجوكِ دعيني أثبت لكِ أنها أهلٌ لذلك، أرجوكِ أقبِّلُ قدميكِ ياوالدتي الغالية أعلم أنكِ تفكرين في مصلحتي لكنني لم أعد صغيراً...

رفعت رأسهُ بكفها وقربت شفتيها لتقبل جبينه...

-حبيب قلب والدتكَ أنا لن أتجرأ على أيذائكَ وسأدعكَ تلهو معها ماشئت وسنرى هل تكون فعلاً ذات نفع يوماً ما فأنتَ وأنا لن نخسر شيئاً مجرد لعبة غبية أيامها معدودة وستتخلص منها عندما تملها...

- أماه عديني أنكِ لن تخبري أحداً الآن بأمرها، لأنهم سيقتلونها إن علموا بوجودها هنا...

- كلا، ياحبيبي بالطبع لن أفعل...

ورفعت رأسها تنظر الفتاة الأرضية أزدراءاً بينما كانت الأخيرة ترتعد غضباً ورعباً من مصيرها المجهول وهي تستمع لحديثهما التخاطري...

سأذهب الآن ياحبيبي لن أزعج خلوتكَ بعد هذا أبداً حتى أعلم أنكَ تخلصت منها...

قالت ذلكَ وآختفت بسرعة، بينما رفع الفضائي رأسه ملتفتاً الى زوجته كانت نظراتهُ عتاباً لها بينما كانت تنظر إليه رعباً وتوجساً...

ماذا بكِ؟؟

هل أخافتكِ أمي؟؟

- إنها، إنها بلا مشاعر... إنها

- صه، لا أرضىَ لكِ التكلم عن أمي هكذا أنها كل ما لي في الوجود وهي التي ربتني بعد وفاة أبي أمبراطور الكون أحذري عند ذكر أسمها...

لكنكَ رأيت ماحصل معي وتهديداتها بنفيي وقتلي!!

- لاتبالي بذلك فأنها قد عبرت بذلك عن نفسها، ذاك لأني لم أخبرها عنكِ

- دعني أعود لكوكبي إذ أن كنتُ مصدر عارٌ لكَ أو خجل، لماذا؟؟ جلبتني كزوجة لكَ أصلاً ولم تختر واحدة من أولئك اللاتي خطبتهن الأمبراطورة لأجلكَ، هه خبرني أنا لا أريد البقاء هنا...

قالت الأرضية وهي تنظر الى عيني الفضائي مباشرة بكل ألم نهض الفضائي حيث كان جاثياً عند قدمي والدته ورفع رأس زوجته بقبضة يده اليمنى ونظر إليها بعينين تتوهجان حباً...

أيتها الحمقاء أنا أحبكِ لن أتركَكِ أبداً هل يطاوعكِ قلبكِ على تركي؟؟

- ولماذا لم تخبرني بحقيقتكَ؟؟

قالت بعتاب وهي تنظر إليه كان طولهُ فارعاً بالنسبة لها وقد شعرت بألم في رقبتها وهي تحاول تتبع نظراته فثنى الفضائي ظهره وقرب وجههُ منها...

- حسناً، كان ذلك أحد أهم أسباب حبي لكِ أيتها الأرضية فأنتِ ساعدتني وأحببتني ولم تعرفي شيئاً عني بلا مصلحة ولا طمع بي...

هل تظنين أنني سأجدُ في الكون كلهُ فتاة لها قلب كقلبكِ؟؟

أنا أحبكِ ياغاليتي...

خفقَ قلب الفتاة بسعادة وهي تستمع لتلكَ الكلمات العاطفية وقالت لهُ بعقلها بسرعة...

- وأنا أيضاً لأجلكَ سأدرس كل علومكم وسأثبتُ لو الدتكَ أني قدر المسؤولية وأهل لها...

نظرَ الفضائي بسعادة غامرة الى زوجتهِ الأرضية وضمها الى صدرِهِ بقوة وقالَ لها تخاطرياً...

-فليحفظكِ لي رب الكون ياغالية، أنا متأكد أنكِ ستستوعبين كل مايعلمكِ إياهُ هذا الحاسوب في مدة غيابي هذه ولسوف تتعلمين في فترة زمنية قصيرة مايدرسه فضائي في كوكبي عمراً كاملاً، أنتِ ذكية وقادرة على ذلك أنني على يقين ولسوف تتعلمين لغة كوكبي وعلومهُ الواسعة وتصبحين ذات خبرة بالأبعاد الزمنية وكل تقنياتنا المتطورة...

- نعم ياحبيبي، أنا سأفعل كل شيء لأُرضيكَ...

قالت ذلكَ وقلبها الصغير يخفق سعادة كونها قد أختيرت زوجة من قبل قائد وملك ذلك الكوكب ولم تكن تعلم من قبل هذا

فارسة الفضاء

(الجزء الرابع والأخير)

عندما تركها الفضائي بمفردها مع ذلك الحاسوب العبقري ذي الذكاء الخارق والذي تستوعب خلاياه الألكترونية علوم الكوكب وكل أسراره شعرت الفتاة بغربة شديدة وكأنها تركت الأرض للمرة الأولى فعندما تجلس مع ذلك الفضائي تشعر بهيمنته حتى على أفكارها بحيث لايترك لها مجالاً للشعور بالعزلة أو الوحدة، لكن ما إن يذهب بعيداً في مهامِّهِ القتالية حتى تشعر أنها في واد سحيق وأنها تختنق بمفردها.. أرتمت فوق السرير بإعياء كانت تشعر بخمول شديد.. تاهت أفكارها وأرتحلت الى منزل والديها الى مكان عملها وزميلاتها، الى تلك اللحظات الجميلة التي كانت تشارك صديقاتها فيها الأسرار والهمسات والضحك...

- أين سأجدُ كل ذلكَ الآن؟؟

هتفت في سرها بألم...

- هل كنتُ حمقاء لما وافقتُ وتخليت عن كل ما أعتدتُ عليه وألفتهُ هناك لأجل فضائي أحبني وفضلني على فتيات أخريات؟؟

- وماذا يعني هذا ياألهي إنني أتعذب... مشتاقةٌ الى أهلي، الى كوكبي، الى السماء الزرقاء، والعشب الأخضر.. منظر الشجر الخلاب والورد في الشوارع وعلى جدران المنازل.. لماذا تركتُ كل ذلك لأقبع في غرفة بيضوية ليس فيها أي أثاث سوى هذا السرير الأحمق وحاسوب لا أعرف مكانهُ يظهر متى ما أردت أنا ذلك ليستعرض كل شيء أمامي وكأنهُ حي في مساحة الغرفة كلها؟؟

رفعتْ رأسها لما ذكرت الحاسوب وقررت أن تبدأ دروسها التعليمية معهُ كي تكون وفية

لعهدها الذي قطعتهُ لنفسها أمام الفضائي.. ظهر الحاسوب أمامها على شكل فضائي أزرق الشعر أخضر العينين يرتدي بزة زرقاء مطعمة برموز سوداء.. قالت تخاطرياً...

– لم رموز بزتك عكس ألوان بزة زوجي ولماذا عيناك خضراوان، وكيف عرفت أني أريدكَ أن تعلمني الآن أيها الحاسوب؟؟

إبْتسمَ الفضائي الحاسوبي وبدأ التخاطر مع الأرضية وهو ينظر الى عينيها مباشرة...

–سيدتي الأمبراطورة...

أولاً يجب أن تفهمي أنّ التخاطر طاقة عقلية لم يعرفها سكان هذا الكوكب منذ قرون حتى أصبح الكلام بالشفاه ضرباً من الأساطير والقصص الشعبية عندما تفكرين بفكرة ما فأنتِ تطلقين طاقة معينة ومستشعراتي الحسية كحاسوب متطور تمكنني من التقاط تلك الطاقة وتحويلها الى كلمات مفهومة، أنّ التخاطر لهُ أساليب وطرق خاصة سأعلمكِ إياها كي تكوني قادرة على مواجهة أفكاركِ وعدم طرحها جميعاً أمام المقابل كأنكِ شخص يتحدث بكل شيء ويكشف نفسهُ دون سيطرة، أما بالنسبةِ لبزّتي، فهي الزي الرسمي لسكان كوكبنا وهي تختلف في الألوان والرسم الذي في نقوشها لأنكِ وسيدي الأمبراطور قائدا هذا الكوكب فثوبكِ الذي ترتدينه الآن ذو لون أسود ونقوشهُ زرقاء ومتحسسات مجساته قد طابقت نفسها مع خلايا جسدكِ يعني أنها من المستحيل أن تكون ثوباً لسواكِ، لقد صُمّمتْ خصيصاً لأجلكِ مولاتي.. سوف يكون تدريسي لكِ مبسطاً حالياً كي تستوعبين الأمور بشكل سلس ثم تتحول الى مستوى أعلى من التعليم وبطرق أكثر صعوبة وماسألتِ عنه عن أن عينيّ خضراوان، فلكِ أن ترَيْ تشريح أجساد سكان كوكبنا.. وآرتسمت أمامها أجساد فضائية لنساء ورجال واطفال...

أكملَ الحاسوب المتشكل على هيئة فضائي كلامهُ التخاطري قائلاً:

نحن شعب قوي البنية ضعيف النسل، ذلكَ بسبب مئات السنين من الأستعباد والعمل في المستعمرات الكونية والتعرض للإشعاعات الفضائية حتى أن سكان كوكبنا قد هددوا بالأنقراض ولم يعد الفضائي من سكان كوكبنا، قادراً على أنجاب طفل طيلة عمرهُ البايولوجي،

لذا لجأ الجميع الى التلقيح الأصطناعي عن طريق المختبرات الطبية فلقد ضعفت قدرة الأنجاب عند النساء والرجال على السواء هذا علاوة عن حالات العزوف عن الزواج بشكل كبير جداً لعدم الرغبة فيه مطلقاً.. أعترضت الأرضية بدهشة...

يعني أنه لا يوجد زواج هنا الى الأبد...

– كلا بل يوجد إلا أن الرغبة في التكاثر معدومة، أو شبه معدومة لم تعد هنالك مشاعر بين سكان كوكبنا.. كل مايريدونه هو الأستيلاء على الكواكب التي أستعمرتنا قروناً عديدة والحصول على الثروات من الكواكب والعبيد الذين لم يعد كائن فضائي من سكان كوكبنا إلا ولديه على الأقل خادمان من أسراء الكواكب العدوة لنا...

شهقت الأرضية بدهشة وفكرت متسائلة...

لكن كيف يتزوج سكان كوكبكم أن أنعدمت أو على وشك أن تنعدم العواطف بين الجنسين؟؟

زيجات مدبرة لأجل حفظ النسل لا غير...

– حسناً إذاً ماذا عن أمبراطوركَ؟؟

هل كان زواجهُ مني مدبراً أيضاً؟؟

نظرَ الفضائي الحاسوبي الى الفتاة الأرضية بدهشة وقالَ بعد تردد...

أعتذرُ مولاتي لقد حُذِفَتْ كل المعلومات المتعلقة بكِ أو بسيدي الأمبراطور بالنسبة لزيجتكما لا أستطيع أن أفيدكِ بشيء هناك ملف سري في أعماق عقلي وقد شفر من قبل الأمبراطورِ نفسهِ ولا يحق لي وُلُوجُهُ... يمكنكِ توجيه السؤال الى الأمبراطور نفسهِ...

ذُهلت الفتاة الأرضية وشعرت بدوار عجيب وجلست فوق السرير محركة يدها وهي تأمر الحاسوب أن ينصرف... إختفى بسرعة من أمامها ولم تعلم أين أختفى؟؟ وفي أي جزء من جدران تلك الغرفة البيضوية الملساء ذات اللون الفيروزي قد أستتر وهو يراقب حركاتها بشكل

مؤكد كما أستنتجت لأن وجوده قبل قليل على شكل كائن حي جعلها تفكر الف مرة قبل أن تتصرف بحريتها وكأنها بمفردها في الغرفة!! ولكن دواراً ألم برأسها جعلها لاتستطيع النهوض واضطّرها الى رمي رأسها فوق السرير لتنام بدون سابق إنذار حينما أستيقظت فزعة وهي تشعر بشيء يركلها في معدتها من الداخل.. رفعت رأسها الثقيل جداً وهي تتوعك شعرت بعطش شديدوغثيان...

ماذا جرى لي؟؟

هتفت.. نادت الحاسوب بصوت مسموع هذه المرة...

أرجوكَ ساعدني أنا أشعر بغثيان شديد، مالذي يحصل لي هل مرضتُ بسبب مجيئي الى هذا الكوكب؟؟

- مولاتي حسبما يظهر لي مسح الطاقات المنبعثة منكِ فأنا متأكد بنسبة ليس فيها شك أن هناك حياة جديدة تتكون في داخلكِ وتبعث طاقات قوية جداً...

- ماذا تعني؟؟

صرخت الأرضية بذعر...

هل أنا حامل بطفل الأمبراطور؟؟

- مولاتي أنا أقرأ أفكاركِ فلا داعي للصراخ!!

- دعني أتكلم كما أشاء لقد سئمتُ التخاطر هذا، ياألهي كيف لهُ أن يركلني وكأنه موجود في أحشائي منذ أشهر؟؟

مولاتي أنهُ ليسَ أرضياً أنّهُ طفل فضائي يكبرُ بسرعة...

- رحماكَ يارب، أريدكَ أن تطلعني على حالات زواج بين كائنات فضائية ونسبة نجاح إنجابهم لطفل هجين من الكوكبين...

توقف الحاسوب الفضائي عن التخاطر لثانيتين ليعود بفتح عينيه وإخبار الفتاة بما يعرفهُ في ملفاتهِ المخزونة...

حسب معرفتي وما سجلَ في ملفاتي الألكترونية بحكم التجارب العديدة خلال قرون طويلة فنسبة نجاح ولادة طفل فضائي من كوكبين مختلفين بالدم وطريقة التنفس هي ١٠ بالمئة فكل من سجلوا ممن يولدوا قد ماتوا أو أن رئتيهم لاتستطيعان التأقلم فيتعرضون للأختناق مباشرة...

عذراً مولاتي ذلك ماأعرفهُ لا أستطيع أن أنفعكِ أكثر...

إذهب شكراً لك...

قالت ذلك بإشارة من يدها وهي تمسك أسفل بطنها بيدها الأخرى...

يارب ماذا أفعل، كانت تشعر بألم شديد وخوار قواها بشكل كبير تناولت من تلك الكبسولات التي وضعها زوجها الفضائي قرب سريرها وهو يخبرها أن فيها طعماً يشبه ماكانت تأكلُهُ على الأرض... شعرت برغبة شديدة لتناول الماء، فتناولت تلك القارورة الأسطوانية الشكل أسفل سريرها وأخذت تشرب حتى أستنفذت آخر قطرة فيها، كان كل يوم من أيام ذلك الكوكب يمر عليها وكأنه الدهر رغم أنها أخذت تتعلم شيئاً فشيئاً لغات الكواكب وكل مايتعلق بعلوم الكون المتطورة وتقنيات البوابات الضوئية، بينما جنينها يكبر بسرعة فائقة ففي غضون أربعة أشهر فضائية كانت الفتاة الأرضية مكورة على الأرض تصرخ من شدة الألم لأن طفلها قد أعلن موعد مجيئهِ الى الحياة لطالما صلت خلال تلك الأيام ودعت خالقها أن يحفظ لها طفلها الذي أحبتهُ بكل كيانها وكان سلوتها في وحدتها وغربتها المضاعفتين، وبين تلك الصرخات المكتومة وهي تتلوى على الأرض من شدة الألم إذا بها ترى والدة زوجها الفضائي أمامها تنظر بقلق إليها.. خاطرتها بخوف...

تصبري، لن أتركِكِ وحدكِ، لم أكن أعلم أنكِ تحملين حفيدي في أحشائكِ لم يخبرني أحد...

لا أحد يعلم بهذا الأمر مطلقاً فقط هذا الحاسوب...

ردت الفتاة وهي تتألم أمسكت الأم الأمبراطورة بيد الفتاة بينما جاءت مجموعة من النساء بأمر منها يحملنها الى غرفة خاصة لم تستطع الفتاة الأرضية أن تقاوم أكثر ولم تعلم ماجرى لها بعد ذلك لأنها أصيبت بالأغماء من شدة الألم الذي مزق أحشاءها كان طفلاً جميلاً حقاً وضعتهُ والدة زوج الفتاة الأرضية بين ذراعيها وهي تنظر إليه بفخر وسعادة لامثيل لهما نظرت الأم الى زوجة أبنها بتحدٍ وخاطرتها بفخر...

لم أعلم أنكِ ستكونين قوية الى هذا الحد وستتحملين غياب ولدي عنكِ طيلة هذه الفترة وأنتِ تتعلمين علومنا ولغات الكواكب علاوةً على ذلكَ كلِّهِ حملتِ في أحشائكِ وريث الأمبراطور دون أن تتكلمي أو أن تخبري أحداً لعلي أيتها الأرضية كنتُ مخطئة في شأنكِ.. أرضعي الصغير الجميل، أرضعيه فهو لن يستقبل لبناً سوى لبنكِ.. نظرتِ الأرضية الى طفلها الصغير وهو يمص ظاهر يده، فضحكتْ بسعادة.. كانت عيناهُ حمراواين وشعرهُ أزرقَ كوالدهُ تماماً لكنهُ لم يضع خيوط تنفس كالتي وضعتها أمامها في تلك اللحظات والدة زوجها مما عنى لها أنه مثلها يتنفس الأوكسجين.. فرحتْ من الأعماق لأن طفلها يشبهها من الداخل، لكن يديه الصغيرتين حملتا مخالب صغيرة خدشتا جلدها قليلاً وهما تتعلقان بها عندما أخذ يرضع منها، فابتسمت الأم الأرضية بسعادة...

يالمسخي الصغير كم أحبكَ!! تعلمت الأرضية أن تخفي أفكارها التي لاتريد للآخرين أن يعلموا بها تخاطرياً، ودرست الكثير بحيث أصبحت ضليعة بعلوم تلك الطاقات الكونية العجيبة.. عندما عاد القائد الفضائي الى غرفته لم يجد زوجته فجن جنونه أستعلم من الحاسوب فأخبره بمكانها.. ظن أن والدتهُ قد آذتها ولما وصل الى تلك الغرفة حيث أخبره الحاسوب الذي لم يترك له متسعاً من الوقت يوضح له فيه ماجرى لزوجته، إذا به يجد والدته جالسة بجوار زوجته التي تحمل بين ذراعيها شيئاً ما أقترب مذعوراً...

ماذا هناك؟؟

خبراني بسرعة كليكما!!

- حمداً لرب الكون على عودتكَ ياولدي الأوحد لم غبتَ طويلاً هذه المرة ياحبيبي الغالي؟؟

هتفت الأمبراطورة الفضائية وهي تنهض لتقبل جبين ولدها الذي حمل يديها وقبلهما أمتناناً...

أماه، لقد كانت هجمة شرسة من قبل مجموعة كبيرة من الأعداء تحالفوا بينهم كي يحتلوا كوكبنا وكان لزاماً علي أن أطيل مكوثي كي أدافع عنكم، ولكن مابها زوجتي الغالية؟؟

كان يحدث والدتهُ وعيناهُ متعلقتان بتلك الأرضية التي كانت تنظر إليه بفخر وسعادة خاطرته بفرح...

هل تعلم من يكون هذا؟؟

أقترب الفضائي من سريرها أطلق صرخة ذعر وكانت تلك هي المرة الأولى التي تسمع فيها صوتهُ ماخلا تنكرهُ عندما كان على الأرض...

يارب الكون أنتِ، أنا، متى.. ماذا، كيف... أخذَ يتلفت بين زوجتهُ ووالدتهُ ودموع الفرح تتقافز من عينيه بينما حمل طفلهُ الصغير بين ذراعيه بسعادة...

أشكركِ ياحبيبتي أنا لاأعرف ماذا أقول لكِ...

نظرت الأرضية بسعادة لزوجها وأمسكت يدهُ بأناملها عندما أعلنت الأم الفضائية عن سعادتها بقولها تخاطرياً...

إذاً فتجربتك قد كتب لها النجاح ياولدي وحقاً أثبت لنا أن المشاعر التي يحملها سكان الأرض هي أجمل شيء في الكون والوجود، وأنها سوف تحل مشكلة عزوف الشباب عن الزواج في كوكبنا لأنها حلت مشكلتكَ أنتَ أنتَ الذي رفضتَ ذلك مراراً وتكراراً لعدم الرغبة فيه مطلقاً حتى صادفت هذه الأرضية العاطفية، إذاً هي العواطف التي يمكنها أن تؤجج السعادة وتجعل شباب كوكبنا وشاباتهُ مؤهلين للزواج كي يقوى نسل كوكبنا الذي حطمتهُ الحروب.. كنتَ شجاعاً وأثبت لي، حسناً إذاً أتركَكَ مع تجربتكَ العلمية التي سجلها حاسوبك

العبقري وسوف تكون درساً لكل شباب الكوكب حُبكَ لهذه المخلوقة وعواطفكَ الجياشة شيءٌ لم أَرهُ ولم أكن لأراهُ لولا هذه المخلوقة الأرضية ولذلك أنا أنحني لها أحتراماً شكراً من الأعماق ياإبنتي...

أنحنت الأمبراطورة وثم أختفت خلفَ بوابة ضوئية تاركة الفتاة الأرضية بمفردها مع زوجها الفضائي نظر إليها بخجل، كانت تذرف الدموع، جثا قرب سريرها وهو لايزال يحمل الطفل بين ذراعيه...

- سامحيني، أرجوكِ لم أخبركِ بالأمر، كي لاتظني أنكِ مجرد تجربة علمية بحته...

- أو لستُ كذلك!! قالت الفتاة بفكرها منتفضة والدموع تنهمر من عينيها.. أمسكَ الفضائي يدها فسحبتها بغضب...

لا مطلقاً لن أصدقكَ بعد هذا أبداً أنا كنتُ حمقاء حقاً أعدني الى والديَّ حالاً...

نظر إليها الفضائي بذعر...

كلا من سيرعى طفلنا هل تتركينا هكذا وبكل بساطة!!

- كنتُ قد تحملتُ وحدتي وغربتي لأجلكَ، لكنْ وما دمتَ مخادعاً ومحتالاً وما دمتُ أنا مجرد تجربة علمية صدف لها النجاح يمكنكَ الأستمتاع بثمرة نجاحكَ العلمي لكنني لن أظل هنا مجرد لعبة بين يديكَ أنتَ ووالدتكَ وشعبكَ...

- كلا، كلا، أنتِ لاتفهمين صحيح أنكِ كنتِ مجرد تجربة في البداية حبيبتي أرجوكِ أنظري إلي وأنا أكلمكِ، كلا أرضيتي أنا أحببتكِ حقاً بعد ذلك أنا لاأكذب...

نظرت إليه بغضب وحنق...

متى أصبحتُ خارج تجربتكَ، متى فعلاً أحببتني؟؟ قبل أن تطلبني للزواج أم بعدهُ، أم عندما جئتَ متنكراً أم بعد ذلك.. إبتعد عني، لا أريد أن أراكَ أرجوكَ ابتعد...

قالت بغضب وفتحت بطاقةِ يدها بوابة ضوئية دفعت زوجها الفضائي خلفها بينما كان

ينظر إليها بدهشة غير مصدق أن زوجته الأرضية أصبحت تعرف كل هذا القدر من العلم...

أصبحت الأرضية بمفردها.. كفكفت دموعها وأخذت تحسب بسرعة بعقلها وهي تسأل الحاسوب الذي جاء إليها مسرعاً بطلب منها كيف لها أن تعود ببعد زمني معين الى والديها بحيث يتوازى مع رسو أول مركبة فضائية الى الأرض بعد ضياع تلك السفينة التي ألتقتْ فيها بزوجها الفضائي في وسط المجهول فتحت بيدها بوابة ضوئية وبدون تردد ورغم ضعف جسدها الهزيل، وقد مرت ساعات قلال على وضعها لطفلها، مدت ساقيها لتنزل من السرير وتدخل البوابة الضوئية التي كانت عبارة عن مسار لولبي في الكون يربط الأبعاد الزمانية المختلفة في بعد زماني واحد بين الكواكب وفعلاً كانت هناك بين أحضان أسرتها ووالديها اللذين أشتاقا لها للغاية وقد غابت سنة أرضية عنهما حسب ماظنا، كانت سعيدة برؤية والديها اللذين أشتاقت أن تكحل عينيها بالنظر إليهما.. كم كانت سعادتها كبيرة لما رأتهما وأرتمت في أحضانهما!!

لكن ما قض مضجعها وأرقها في الليالي، حنينها لرضيعها الذي أحبتهُ بكل كيانها كانت تبكي فوق وسادتها ما أن تضع رأسها فوقها ولا تتوقف عن البكاء حتى تغفو من شدة التعب لتستيقظ باكية هالعة وتصرخ فتأتي والدتها تهدؤها وتتمتم بكلمات دينية لتبعد الشيطان عنها ظنا منها أن أبنتها أصيبت بمس ما بسبب ماحصل لعمال الأرض على متن تلك السفينة وماتناقلتهُ وكالات الأنباء الأرضية عن مصرعهم وخلو السفينة من الحياة البشرية.. عادت الأرضية لعملها وعاد كل شيء كما كان وكأنها لم تلتقِ أحداً ولم تتعرف بذلك الفضائي.. يوماً لكن كيف لصدرها أن يكذب وهو يدر الحليب في الليالي بحثاً عن رضيعها الصغير فتبكي وتنتحبْ... لم تكن قادرة على البوح لأحد.. خاتمها الأزرق كان لايزال محيطاً ببنصرها.. كانت تنظر إليه بشوق وتحنُّ الى تلك اللحظات الجميلة التي كانت يوماً فيها زوجة لفضائي حتى وأن كانت هي مجرد تجربة علمية بحته، إلا أنها لم تنسَ حبها لهُ وأنها قد أحبتهُ بكل صدقٍ بكلِ كيانها ولأجلهِ تركتْ كوكبها وأهلها وصديقاتها وعملها وكل شيء لها ولذلك كانت تبكي نفسها...

وفي أحدى الليالي كانت الريح شديدة الهبوب إذ أنها أحدى ليالي الخريف المبشرة بقدوم فصل الشتاء القارص لم تشغل الأرضية مروحة غرفتها السقفية لأنها أرادت أن تفتح الشباك

ويدخل إليها هواء لطيف مع نسمات الريح.. ظلت تبكي فوق وسادتها وهي تستذكر رضيعها وتحدثه...

ياترى كم كبرتَ وأنا لاأعرف عنكَ شيئاً لعلك الآن في سنتكَ الأولى أو الثانية فأنتَ تكبر بسرعة ياحبيبي، هل تعلم أن لكَ أماً أم أن تلك الأمبراطورة قالت لكَ أن والدتكَ قد توفيت في تجربة علمية أراد والدكَ أن يخوضها ويكون البطل فيها وبكت الأرضية أكثر حتى غلبها النعاس ونامت، نهضت فجأة وهي تشعر بوجود شخص ما إلى جوارها نظرت فإذا بها ترى الفضائي جالساً على حافة سريرها ينظر إليها بعينيه بعتاب شديد...

كيف طاوعكِ قلبكِ أن تتركيني وقد عدتُ من قتال الأعداء مشتاقاً إليكِ بعد طول غياب، كيف أستطعتِ أن تتركيني أنني أموت بدونكِ أرجوكِ عودي إلي أرجوكِ صدقيني لقد أحببتكِ بكل كياني ولم أقصد أيذاءكِ أبداً...

صحيح أنني جئتُ الى كوكبكِ في تجربة علمية بحته، لكن حبكِ غيرني لاتتركيني.. قالَ ذلكَ وأختفى قبل أن تستطيع الأمساك بيدِهِ...

نهضت فزعة من نومها...

هل كانَ حلماً؟؟

هتفت بألم...

كالمعتاد ياأبنتي، أجابت الأم وهي تضع الورد في أصيص الزهور دون أن تلتفت إلى إبنتها...

حبيبتي عليكِ أن تعودي الى ذلك الشخص الذي تنادين بأسمه في حلمكِ كل ليلة، أنا أم ولستُ بحمقاء كنتِ سعيدة في مكان ما من الفضاء وعليكِ أن تعودي ألتفتت الأم إلى إبنتها وابتسمت لها بحزن فصعقت الفتاة الأرضية لأن إبتسامة والدتها كانت تشبه إبتسامة زوجها الفضائي، «هل هو نفسهُ يلعب دور والدتي»؟؟...

لكن كفاني هلاوساً.. رفعت رأسها نحو والدتها لكنها لم تجدها هناك صاحت بصوت

متهدج...

أيها الفضائي يازوجي الحبيب إظهر أينما كنتَ لقد أشتقتُ إليكَ حقاً و أود أن أعود...

كانت سعيدة أنها عادت تتكلم بشفتيها وتعبر عن نفسها بكلمات مسموعة إلتمع فجأة خاتمها الأزرق بلون فيروزي عجيب نهضت لتغير ثوبها وتمشط شعرها فجأة ظهرت صورته في المرآة خلفها مباشرة...

هل ستعودين الى طفلكِ وإلي حقاً ياأرضيتي هل سامحتيني؟؟

زوجي الحبيب!!

هتفت وهي تنظر إليه في المرآة قريباً منها ألتفتتْ بسعادة ولكنها لم تجد أحداً.. سقطتْ الأرضيةُ باكيةً على الأرض وقالتْ وهي تضم وجهها بين يديها...

- أنا أخاف العودة لوحدي لعلي لن أعود الى حيث أريد، لعلي سأخطأ في حساب البوابات الزمنية.. فليسَ لي هنا حاسوب ذكي ولا أستطيع المجازفةِ رحماكَ يارب قالت ذلكَ و دفنت وجهها بين يديها.. فجأةً ظهرت بوابة ضوئية خرجت منها والدة زوجها الفضائي بجلالة قدرها وشأنها السامي نظرت إليها بألم...

أرجوكِ أسرعي أنه يموت وقد طلب رؤيتكِ في ساعاتهِ الأخيرة لولا وجود ولدكِ معنا لما أستطعنا التخاطر معكِ فقد صنعتِ لنفسكِ درعاً دون أن تعلمي يصد عنكِ أي طاقة فكرية منا هلا أتيتِ الآن؟؟

مدت الأمبراطورة يدها بينما ترددت الأرضية لثوان، علي أن أودّع والديَّ

-حسناً هلمي بسرعةٍ وأنا في أنتظاركِ...

أسرعتْ بإحتضانِ والدتها وهمستْ في أذنها أنها عائدة لأسرتها وإلى زوجها وطفلها وأنَّ عليها أن لاتخبر أحداً سوى والدها وأنها سعيدة في حياتها هناك رغم البعد، لكنها لن تتركهما ولسوف تزورهما يوماً ما...

أبتسمت الأم لها بينما راقبتها تودع والدها ظناً منهُ أنها ذاهبة لمقر عملها وأنها ستحصل على علاوة أو ترقية ما فيه، فأبتسمَ لها مشجعاً وهو يرى الدموع تنهمر من عينيها، رحلت مع والدة زوجها الفضائي، وجدتهُ هناك فوق سريرهما مريضاً جداً، كان الى جواره طفل صغير لهُ من الأعوام خمساً.. أغمضَ عينيه وتوارى عنها ما أن ابصرها بينما خفق قلبها له، عرفتهُ بحدسها كان وليدها...

لا أصدق؟؟

هل هذه حبيبتي الأرضية أم أنني أهذي ياأماه؟؟

نظرت الأم الأمبراطورة إليه بحزن وهي تبكي ولدها كيف شحب لونهُ وهزل جسدهُ...

نعم ياحبيبي، كنتُ أنا سبب تعاستكَ سامحيني ياأبنتي، سامحني ياولدي أنا لم أقصد أبداً أن أوذيكما في لحظة سعادتكما بطفلكما...

كانت تلكَ أكبر حماقة أرتكبها.. إلتفتَ الفضائي بصعوبة نحو زوجتهِ، مدَّ مخالبهُ بأتجاهها هل سامحتِ بقلبكِ النقي هذا زوجكِ الذي أحبكِ من كل قلبهُ؟؟

أقتربت الأرضية من سرير زوجها وأمسكت مخالبهُ بأناملها.. خاطرتهُ بحنان نعم سامحتكَ لكن بشرط واحد...

أشرطي ما بدا لكِ...

أن تأتي الى كوكبي فتطلبني للزواج من والدي رسمياً ومعنا ولدنا الحبيب ماذا قلت؟؟

أبتسمَ الفضائي بسعادة وأمتنان ورفع يدها نحو شفتيه يقبلها والدموع تنهمر من عينيه...

نعم سأفعل ذلك بكل سرور، سأفعل ذلك...

قفزَ الطفلُ الصغير فجأة الى أحضان والدتهِ...

أشتقتُ اليكِ ياأماه خاطرها طفلها الصغير...

نظرت إليه بسعادة يشوبها حزن كونها لم ترهُ قبل أن يصبح في الخامسة من عمرهُ بسبب انتقالها عبر بوابات الزمن...

خاطرتها الأمبراطورة الجدة فجأة...

لم أعد قادرة على تحمل هذا العناء أنا لم أعد صغيرة أرجوكِ خذي طفلكِ واعتنِ به، فأرتسمت أبتسامة رضا على شفتي الأرضية وهتفت وهي تشبع طفلها الصغير بالقبلات...

وماأسعدني بتحمل هذه المسؤولية والدتي الفضائية.. أبتسمت الأثنتان لبعضهما أبتسامة هدنة وسلام وهما تنظران بعضهما، بينما كان الطفل الفضائي يعبث بخصلات والدتهِ السوداء ويقبلها بسعادة لا حدود لها...

هكذا أحببتها

(الجزء الأول)

كانَ يريد الخروج من المنزل، عندما لاحت منهُ التفاتةَ نحو المرآة تراجعَ قليلاً وترَك مقبض الباب ووضع أناملهُ بين خصلات شعرهُ ليرتبهُ، كانَ مرتباً لكنهُ أعادَ ترتيبهُ بأناملهِ مرتين وقرب وجههُ نحو المرآة وأخذَ يصفرُ، ثم صاحَ بصوت غير عال: أماه أنا خارج، وصفقَ الباب من بعدهِ ثم اتّجه صوب باب دارهِ ليفتحها، عندما ظهرت أمامهُ مجموعة من الفتيات الصغيرات، اللاتي لا تتعدى أعمارهن الخامسة عشر حسب ماقدر...

ولم تلفتْ نَظَرهُ تلكَ الفتاة الشقراء، السافرة، ولا التي بقربها وهي تنظر إليه بعينيها الزرقاوين، وتحكي لهُ فيهما كم هو وسيم، لم يبالي فقد أعتادَ تلكَ النظرات، لكن نظرات تلكَ البنت الأبعد الى بوابة دارهِ المطلة على الشارع وهي ترفع عينيها خجلاً نحوهُ وتغض بهما بسرعة أذهلتهُ، حيرتهُ أطارت لبهُ.. ظل مصعوقاً لثوان، وتبع الفتيات بنظراتهِ وهن يتفرقن مودعات بعضهن البعض وفوجئ بأنَ تلكَ الفتاة التي ودعنها بقرب دارهِ وتفرّقتِ أثنتان الى زقاق آخر واثنتان ركبتا في سيارة أحد الأباء.. أقول، أنهُ قد ذهلَ لأنَ تلكَ الفتاة التي ودعنها بجوار البيت الذي لايفصلهُ عن بيتهِ سوى حائط كانت هي هي ولم تنظر إليه بل ظلت مطرقة وهي تضغط على جرس الباب بأصابعها الصغيرة، نظرَ إليها حتى وهي تدير ظهرها إليه كانت محجبة ترتدي ربطة بيضاء وصدرية مدرسية وقميصاً ذو أكمام طويلة أحسَ بحرارة في قلبهِ، أحسَ أن قلبهُ يحترق وظل يتابعها بنظراتهِ حتى دلفت خلف الباب لم يكن يعلم أن صديقهُ الغالي وجارهُ العتيد لديه تلكَ الأخت التي أحسَ برؤيتها أنها تمثل كل ماحلم في فتاة أحلامهِ أن تكون.. ما كانت شقراء، وما كانت بيضاء أيضاً لكن ملامحها الحادة وعينيها الواسعتين أرقتا ليلهُ.. ظلَّ يفكر كيف يصل لها، كيف يخبرها، كيف يبوح لها بمشاعرهِ ووجد ساقيةِ تجبرانهِ على الوقوف أمام بوابة منزلهِ في نفس

الوقت الذي تصل فيه الى بيتها (بنت الجيران) حتى لاحظت صديقاتها ذلكَ وأخذتِ الفتاة الشقراء تظنُّ أنهُ ينتظرها هي بنظراتها وضحكاتها المفتعلة ما أن تمر أمامهُ لكنهُ لم ينظر إليها أبداً وما أن تلتقي عيناهُ بعيني تلكَ الشقراء حتى يبعدهما عمداً ويتظاهر بأنهُ يبحث في محفظة نقودهِ أو أنهُ ينفض الغبار عن قميصهُ ولاغبار على قميصهِ على الأطلاق وفتاتهُ الخجولة لاترفع عينيها إليه قط فزاد حبهُ وزادت عذاباتهُ.. كانَ يقرض الشعر الحر ويكتب في أحدى الصحف الوطنية، لكن مهنتهُ كأستاذ رياضيات لهُ صيتهُ لم تؤثر على موهبتهِ وماحبتهُ الطبيعة أياه، فقد كانَ شعرهُ رائعاً رغم عمرهِ الذي لم يناهز الثلاثين أن ذاكَ ومادخلَ العمر بالأبداع فموزارت الذي يعشق موسيقاهُ أبدعَ بسمفونيات خالدة وألف نوتتهُ الموسيقية الأولى وهو طفل لم يناهز الثامنة وعند ذاكَ أعتكف في غرفتهِ وتركَ النوم ليكتب الشعر في محبوبتهِ ثم يمزق الصفحات عندَ الصباح.. كان من حسن حظهُ أن دوام جارتهِ عكس دوامهِ فعندَ الصباح يكون موجوداً لما تخرج من بيتها، ويراها عندما تعود وهو ذاهب الى مدرستهِ والعكس صحيح...

وبدأت هي تلاحظ نظراتِهِ لها لما تلقاهُ عند خروجها من دارها فتجدهُ أمام بوابتِهِ لايبالي بالبرد شتاءاً ولابالحر صيفاً، ومر عامٌ وهو يحترق لوحدهِ دون أن يقدر على البوح.. كانَ يخجل من نفسهُ لما يجالسهُ صديقهُ وجارهُ في منزلهِ أيام العطل، فصديقهُ مهندسٌ لم يجد وظيفة بعد التخرج فعمدَ الى إكمال دراستهِ العليا وأمتهن الأعمال الحرة بينما يكمل دراستهُ العليا...

عندما كانَ صديقهِ يتكلم يظل هو يفكر فيها وفي مدى الشبه بينها وبين صديقهِ الأخ الأكبر لها، ويظل يجاريه في الكلام وهو لايفكر في كلامهِ بل بها، وطارَ فرحاً لما طلب صديقهُ أن يدرّس أختهُ، لم يصدق، كانَ صديقهُ يحاول أن يبرر رسوب أُختهِ في أمتحانات الشهر الأول لمادة الرياضيات الثالث المتوسط، ويحاول أن يعتذر منهُ أن كانَ طلبهُ محرجاً أو مزعجاً لهُ وقالَ لهُ أخيراً صدقني لانعرف أحداً أكفأ منكَ ولا أكثر أماناً كي نجلب أختي عندكَ، أعرف أنكَ لاتملك الوقت للتدريس الخصوصي وأعلم أن طلبي محرج نوعاً ما لكن أبي يقول بمن نثق في هذا الزمان الصعب، ولم نعثر على مدرسة ولانعرف مدرسة رياضيات قديرة وأنتَ أقرب الناس، فأكملَ هو عنهُ...

والأقربون أولى بالمعروف، كلا دعها تأتي سأدرسها فأنتَ أخي طارَ صديقهُ فرحاً وأحتضنهُ وقبلهُ وأخذتْ فتاتهُ الصغيرة تأتي للدرس كل أسبوع مرتين في عطلتي نهاية الأسبوع كل جمعة وسبت ومعها أخوها الأصغر الذي لم يتجاوز الحادية عشر من العمر ليجلس قربها عندما يدرسها الأستاذ..كانت كسولة في مادة الرياضيات لكنهُ لم يبالي وأخذ يعلمها الأساسيات التي تعطى من الصف الأول المتوسط برحابة صدر وهو في قمة السعادة فتحسن مستواها رويداً رويداً وبدأت تدرس وتقرأ وتفهم ماتقرؤه وفوق كل هذا وذاكَ كانت تفهم نظراتَهُ الصامتة وتقرؤها ولذا أخذت تقرأ كي تنجح في أمتحانهِ، وعندما كانَ يدرسها كانَ يسألها أسئلة كثيرة عن نفسها أو عن ماتحبهُ أو تحب أن تقرأهُ، ووعدها أنها أن نجحت فسوف يعطيها كتباً من مكتبتهِ كي تقرأها وزاد أعجابهُ بقلبها النقي وطيبتها وبراءتها حباً لها...

كانت أمهُ قد لاحظت أنتظارهُ موعد قدومها للدرس وهو يجلس قبل الموعد بساعة في غرفة الأستقبال، وهو ينفث سيكارة تلو الأخرى ولم يكن قد ذاقَ طعم سيكارة واحدة من قبل، أخذت أمه تراقب حركاتهُ فأحست بأّبنها وكلمت أباهُ يوماً عنهُ لأنها لم تستطع أن تكلمهُ بالأمر مباشرة، فجلسَ الأب مع أبنهُ مرة في أحدى الأمسيات على الطاولة المستديرة في حديقة دارهم.. لم يملك سوى ذاكَ الأبن وكانَ لدية اّبنتين أكملتا الدراسة الجامعية وتزوجتا حسناً، قالَ الأب ليبدأ كلامهُ مع ولدِهِ...

- أين أنتَ هذه الأيام؟؟

لم تعد تجلس معي هنا ولاتريد تكليمي ولا مع والدتكَ ولولا طلبها منكَ أن تأتي إلي لما أتيت فألتفتَ الأبن قائلاً:

ماذا قلت ياأبي: أنا أسف...

عندها أنتفضَ الأب بغضب وأمسكَ بيد اّبنهِ...

بني ليس عندي أعز منكَ وأنتَ اّبني الأوحد وفلذة كبدي قل لي من هي سأزوجكَ إياها فوراً...

ردَ الأبن الذي كانَ مذهولاً من تصرف أبيه عندما أمسكَ يدهُ بقوة...

أبتاه عن ماذا تحكي أنتَ مخطئ أعتذر يجب أن أذهب...

ترك أباهُ، ذهب الى غرفتهِ ليشعل سيكارة أخرى بعيداً عن عيني أبيه كان يتمنى في قرارة نفسهِ أن يكون الأمر سهلاً كما قالَ أبوهُ لكنهُ علم منها أن أباها لا يرضى بتزويجها من أحد حتى تكمل دراستها ولقد باح لها بحبهِ في أحدى المرات وهو يرسل لها قصصاً وكتباً من مكتبتهِ بعد أن نجحت وأنتقلت الى الدراسة الأعدادية كتب لها: هل تقبلين أن أرسل أهلي لخطبتكِ من أبيكِ، كتبها ليس بخطِّ يدِهِ بل بوضع خط عريض تحت تلك الكلمات فردت اليه الكتاب بيد أخيها الأصغر بعد أن أبقتهُ يومين عندها كانا أصعب يومين مرا عليه...

أبي لا يقبل بوضع خطوط تحت كل كلمة في صفحات متفرقة ولما سألها عن السبب بنفس الطريقة أفهمتهُ بنفسها وهي تجلب الكتاب أذ فوجئ برؤيتها خلف بوابة دارِهِ فقالت لهُ دون أن ترفع رأسها وقد مدت يديها لتعطيه كتابهُ...

أبي يريدني أن أكمل دراستي الجامعية وهرعت نحو بيتها مسرعة فعاشَ عذاباً مضاعفاً ولما كانَ يصلي ويدعو بعد الصلاة رافعاً يديه تنهمر الدموع منهُ دون أرادة...

- رباه أنا أتعذب، أي بلاء هذا...

رحماكَ ربي...

ويخر ساجداً وهو يبكي وقرر مع نفسهِ أن ينتظرها.. كان في السابعة والعشرين أن ذاك بينما أصبحت هي في السابعة عشرة ولقد عاهدتهُ بعينيها على حُبهِ فهو لم يجرؤ ولم يستطع أن يسألها أن كانت ستنتظرهُ أم لا ومن شدة خوفهُ عليها توقف عن أنتظارها عند بوابة منزَلِهِ خوفاً على سمعتها وكي لا تتقول صديقاتها عليها الأقاويل، ولما أصبحت في السادس العلمي عرض خدماتهِ الكاملة على أخيها كي يدرسها لكنها رفضت كانت تريد أن لا يشغلها عن الدرس شيء وطيلة فترة مراجعتها لمواد الأمتحان الوزاري، لم تخرج من بيتها في تلك الفترة كان يحن الى أيام دراستها في الخامس العلمي أذ كان قادراً على النظر إليها عبر نافذة غرفة من غرف الطابق

العلوي وهي عائدة من دوامها المدرسي ولما جاءت نتيجة الوزاري فرح لها أكثر مما فرح بنفسهِ عندما أخذ نتيجة الوزاري...

ودخلت كلية الطب وهو ينتظر رجوعها كل يوم من الجامعة فقد قبلت في العاصمة نفسها، ومرت الأيام والأشهر والسنين وهو ينتظر بفارغ الصبر أن تكمل دراستها لكن أمهُ لم تحتمل أذ غضبت عليه ذات يوم وقالت لهُ أن لم تختر فتاة بنفسكَ فدعني أنا أختار...

لقد كبرتُ وأريد أن أرى أحفادي منكَ حينها قررَ أن يخبرها، حسناً ياأماه أن أخبرتكِ هل تخطبينهالي؟؟

وما أن أخبرها حتى ذهبت الى أبيه وأخبرتهُ وكلمَ والدهُ أباها كانت في المرحلة الثالثة من دراستها الطبية وأمامها ثلاث سنوات للتخرج قبل أن تختص في فرع طبي ما ومع ذلكَ وافقَ الأب على شرط أن يدعها تكمل دراستها.. لم يصدق.. ظنَ أنَ حبهُ محكوم عليه بالموت، وتزوجها وأسرّ لها بحبهِ طيلة تلكَ السنين فأخبرتهُ أنَ حبها لهُ كانَ مضاعفاً لأنها لم تستطع حتى النظر إليه أن كانَ هو يراها عبر النافذة...

كانَ حبهما عظيماً طاهراً وأستجابَ الله دعاءهُ أن تكون لهُ، فشكرَ الله كثيراً ومرت الأيام وهي تكمل دراستها وهو يقوم بمهنتهِ كمدرس، وبدأ يدرس الطلاب تدريساً خصوصياً كي يتمكن من بناء مستقبل لهُ ولها وكي يستطيع سدَّ أحتياجات دراستها.. حسدَها الجميع لحبّهِ المتفاني لها وحسدهُ أقرانهُ لأنه تزوج طبيبة المستقبل، وبعد ثلاث سنوات، ولما أكملت دراستها وأرادت أن تختص.. أنتفضت أمهُ قائلة لها:

-كفى!! سأموت قبل أن أرى أطفالاً لولدي.. أتركي أختصاصكِ وأنجبي لولدي.. عنفها أبوهُ لكنها تركت البيت وذهبت لأبيها تشتكي عمتها ول٣ أشهر طوال لم ترجع وكان مطلبها بيتاً مستقلاً عن عمتها، أوضح لها أنهُ لا يستطيع ترك أمهِ وأبيهِ فرفضت العودة وأخيراً أقتنعت بعد أن شعرت بالأشتياق لبيتها الزوجي، فعادت بشرط أن يعاهدها الا تتدخل أمهُ في حياتها وجرى لها ما أرادت، وأكملت تخصصها، ثم، كانَ عليها أن تفتح عيادةً بعد أن أكملت المدة المقررة في المستشفى، وفتحت

العيادة وهو الذي فتحها لها، لكنهُ لم يستطع أن يجاري عملها..كانَ عليه أن ينتظر قدومها في الليل وضغوط أمهِ وأبيهِ والناس الذين يسألونهُ: ألم ترزق بطفل بعد؟؟

ولما رزق بطفلهِ الذكر البكر كان على أمهِ أن ترعاهُ قالت لهُ دعهُ لمربية أعطيها نقوداً فلم يرضى، أما أمها فقد كانت مريضة وبحاجة لمن يرعاها أخذ هو يرعى طفلهُ أغلب الأوقات ويصبر نفسهُ برؤياها في الليل، وكبر طفلهُ، أصبحَ حَركاً وكانت أمهُ أمراةً كبيرة قد تقدم بها السن وغير قادرة على مجاراتهُ فأخذ يجاريه هو وترك طلابه وأعتزل حلقات تدريسهِ.. ومرة نظر الى نفسهِ قبل أن يخرجَ الى نفس تلك المرآة التي نظر إليها قبل أن يراها ويعشقها بكل جوارحهُ وهذه المرة لم تعبث أصابعهُ بشعرهِ بل بشعرِ صغيرهِ وهو يحملهُ على كتفيه...

ماذا جرى لي؟؟

حدث نفسهُ وفي المساء كلمها وهما فوق سريرهما...

أنا لم أعد أحتمل هذه الحياة.. قال لها ألتفتَ إليها وعيناهُ تلتهبان ناراً...

جعلتكِ تكملين دراستكِ واّختصاصكِ وفتحتُ عيادةً لكِ أنا لستُ بحاجة لنقودكِ فمن راتبي وحلقاتي التدريسية أدعكِ تحيين كملكة!!

صاحت بدهشة ودراستي وتعبي أين أذهب بهما؟؟

أتركيهما لأجلي ألا تحبينني!!

نظرت إليه طويلاً ولم تجب..كانت آخر نظرة منها إليهِ على نفس السرير فقد تركتهُ في اليوم التالي وقررت الأنفصال عنه...

ومرت السنوات وصارت طبيبة لها صيتها كما هو ناجح في عملهِ ومرت من أمامهِ بسيارتها الفاخرة ذات يوم وأبن عمها الطبيب الذي أفتتح عيادتهُ بقربها وثم تزوجها هو من كان يقودها بينما مر هو وزوجتهُ المدرسة وطفلة صغيرة تلوح بيدها لذاك الطفل الذي لوح بيدهِ خلف نافذة السيارة وطبع قبلة في الهواء وأرسلها الى ذلك الرجل الذي طالما حملهُ ولاعبهُ وناغاهُ...

هكذا أحببتها

(الجزء الثاني)

عندما لوحَ ذاكَ الطفل بيديهُ من خلف نافذة زجاج السيارة وطبع قبلة في الهواء ليرسلها لأبيه ألتفتَ الأب إليه ونظرَ نحوهُ بحنو كبير أراد أن يضمهُ في تلكَ اللحظة وأن يقبلهُ لم تعد تلكَ السويعات التي يأتي فيها ليراهُ تكفيه حتى ولو كانت طوال فترة دوام أمهُ وزوجة أبيه.. حتى وأن كان يقضي أوقات درسهِ معهُ وأحياناً لايرجع الى منزل زوج أمهُ لأنهُ ببساطة قد نامَ في حضن والدهِ الذي أتصل بوالدتهِ ليخبرها أن طفلهُ نائم عندهُ، فما الذي أثار ذاكَ الشوق في قلب أبيه فجأة تجاههُ وهو يأتي يومياً إليه حتى وأن لم تجلبهُ والدتهُ.. فقد كان الطفل يُلزِمُ المربية التي وضعتها أمهُ لهُ أن تجلبهُ لأبيه رغماً عنها حتى اعتادت الأم ذلك وأعتادت المربية وإعتادت زوجة والدِهِ، فأصبح أمراً واقعاً رغم عدم رضى الجميع، أقول بعد هذا، ماالذي أثار شوق أبيه؟؟ لعلهُ نظرةٌ منهُ الى والدتهِ وهي تخرج من السيارة حاملة حقيبتها أو لعلهُ منظر زوج أمهُ الذي أسرع نحو والدتهِ ليأخذ بيدها وهما يمضيان نحو بيت جّدهِ، فلو أن ذلك الطفل الصغير أستطاع النظر من بعيد لعيني أبيه، لرأى الجمر يكاد يتطاير توقداً من نظراتهِ، ولم ينم الأب تلك الليلة وأشَعلَ عشرات السكائر بعد أن كان قد قرر التوقف عن التدخين وبدأ يقلل من تعاطيها في سبيل التخلص من عادتهِ السيئة تلك..كل حين كان يمضي نحو شباك غرفتهِ المطل على منزل جارهِ العتيد، وقفزت كل ذكرياتهِ معها الى رأسهِ منذ لقائهِ الأول بها وحتى لحظة صراخهِ الهستيري بها وهما على نفس السرير...

أنا لم أعد أحتمل هذه الحياة...

كان يعلم أن قرارهُ جاء بعد معاناة طويلة، كان يعلم أن قوة احتمالهِ قد أنهارت تحت وطأة

ضغوط الحياة، لكن نارَ قلبهِ.. أضطرمت من جديد فلم يعد يعلم مايريد وكانَ يفكر فيها كل حين وهو يذرع الغرفة جيئة وذهاباً وزوجتهُ نائمة لاتعلم فيم يفكر ولا وماالذي دهاهُ ولم يكن يعلم هو نفسهُ ماذا دهاهُ...

ألم أقرر تركها...

قال لنفسهُ بجنون...

ألم أتحمل العذاب لوحدي وأنا أرعى طفلي بدلاً من أجد من يستقبلني بعد دوامي المضني، أجد طفلاً محتاجاً إلي وأمهُ لاهية بعملها الذي لاينتهي!!

لم يستطع النوم أبداً ظل يفكر فيها حتى الصباح وما أن لاحت تباشيرهُ حتى قرر في نفسهِ أمراً ومضى الصباح وهو يحتسي أكواب الشاي والقهوة في محاولات منهُ للبقاء مستيقظاً ولم يذهب الى الدوام متظاهراً لزوجتهُ بالمرض وأنه يشعر بنبضات قلبهِ تتسارع بما يشبه الخفقان بحيث أشارت عليه بنفسها أن يبقى في السرير حتى يرتاح وأن يذهب بعدها للطبيب إنْ لمْ يتحسن، وبالفعل ذهبَ الى الطبيب حجز موعداً وأنتظر ولما حان دورهُ دخل ولما رأى الطبيب أصابتهُ رهبة كرهبة الموت أو كتلكَ الرهبة التي شعرَّ بها لما وافقت هي منذ زمن بعيد، وأنتفضت واقفةً، فقد كانَ الطبيب هي وهي من كانت الطبيب...

ماالذي تفعلهُ هنا؟؟

صاحت بغضب فردَ بحزن...

أنا مريض، أنا جداً مريض...

فتغيرت ملامحها الغاضبة الى قلق عميق وأقتربت منهُ:

ماالذي تشكوهُ؟؟

قال لها هل يمكن أن أتمدد على سرير المراجعين؟؟

أجابتهُ طبعاً ذهبَ إليه وأستلقى فوقهُ قالت لهُ...

مالذي تشعر به؟؟

نبضات قلبي في تسارع شديد أنا لستُ بخير جلبت جهاز قياس نبضات القلب ووضعت السماعتين فوق أذنيها...

أفتح أزرار قميصكَ العلوي...

قالت بصوت حازم ففتحهُ ووضعت أداة التحسس فوق صدرهِ وهي تنظر الى الجدار الذي أمامهُ...

نبضات قلبكَ لاشيء فيها...

كلا...

قال لها...

فألتفتت إليه...

أن قلبي هو مشكلتي وكنت بخير دونهُ هل لكِ أن تخلعيه...

نظرت إليه شزراً ولكن غضبها سرعان ماذاب أمام عينيه اللتين أفصحتا لها عن كلام لم يستطع أن يقولهُ لها أبداً...

رجعت الى مكتبها وجلست عليه فلما نهض هو من فوق السرير وأتجه نحو كرسي المراجع ليجلس فوقهُ أنتبه الى دموعها التي حاولت أخفاءها وهي تعكف على كتابة الدواء لهُ فوق ورقة المراجع، فسحب الورقة عامداً كي ترفع رأسها وهناك بانت دموعها ونهضت من فوق كرسيها وهي توجه أصبعها نحوهُ...

أنت الذي قتلتَنا...

وما أن قالت كلماتها تلك حتى أنهار هو فوق الكرسي ولم يعد يقدر على الكلام وران صمت ثقيل بينهما لم يسمع فيه غير صوت نشيجها وكفكفة دموعها.. نظر إليها بألم ثم نهض...

لقد قتلتيني مرتين وسار نحو الباب بخطوات ثقيلة وألتفت إليها بصمت وهي تمسح دموعها بمنديلها ولم ترهُ حينما غادر صافقاً الباب خلفهُ ومرت الأيام وهو يمضي الى الدوام وهي تمضي الى عملها وآبنها يمضي أغلب وقتهِ مع أبيه لم يكن يرى أمهُ إلّ قليلاً وكان والدهُ يعطيه أهتماماً كبيراً لأنهُ يرى فيه وخلاله ثمرة حبهُ الذي ضاع ولم يكن أباً سيئاً لطفلتهِ ولا زوجاً سيئاً لا أبداً.. كان حنوناً رائعاً حتى وهو يتألم بصمت، ويموت من الداخل رويداً رويداً وكان في أحد الأيام يعطي لطلابهِ درساً حينما شعر أن الصف يدور ويلتف حولهُ أذ سقط على الأرض مغشياً عليه وحملهُ الطلاب الى غرفة الإدارة ولما أستيقظ من غشيتهِ أعطاهُ المدير أجازة كي يرتاح ثلاثة أيام قابلة للتمديد.. كان آبنهُ يجلب لهُ الدواء وأبنتهُ تحيط برقبتهُ تقبلها عندما دلفت هي بينما زوجتهُ تضع لهُ الطعام، ما أن رأها حتى حاول النهوض فأشارت إليه أن يرتاح...

- مالذي تفعلينه هنا ألا تخجلين...

صاحت الزوجة...

أليس لكِ زوج أخرجي من هنا...

رجعت القهقري ولما أرادت أن تخرج هاربة سمعت صوتهُ الحاني يناديها أرجوكِ لا لا تخرجي فليخرج الجميع الآن... صاحت زوجتهُ...

ياألهي أي أمراة تحتمل مثل هذا الهراء، وأنتَ نائم تنادي بأسمها وأنت تهذي تنادي بأسمها والأن تطردني أنا لأجلها، لما؟؟.. ألأنها أم الولد وأنا أم البنت كيف تعدل في حكمكَ هذا؟؟

نظر الى زوجتهِ بنظرات حنونة وهو يمسك بيدها...

أرجوكِ أن كانت لي معزة في قلبكِ أن تخرجي وأن تأخذي طفلي معكِ كليهما.. أتسعتْ عيناها دهشة حتى كادتا تجحظان، وأخذت تعيد النظرات بين زوجها وبين طليقتهِ، ثم صاحت:

هيا ياأبنتي وأنتَ ياولد، أخرجا.. وكان صوتها متشنجاً والدموع تكاد تقفز من مقلتيها.. نظرت إليهما بأحتقار قبل أن تغلق الباب وما أن أغلقته حتى قال لها أجلسي بجواري هنا فوق سريري، ففعلت ولم يتكلما، نظرت لهُ بحنان كان كفيلاً أن يشافيه وكانت نظراتهُ عشقاً وشوقاً

وحنيناً ولها جنوناً وندماً وأستغفاراً علها تغفر لهُ، فردت النظرة بالغفران والعشق بالحب الذي ما مات أبداً بل تجدد وأصبح عشقاً بالروح يسمو فوق كل ملموس ولم يتكلما بقيا نصف ساعة ينظران الى بعضهما كانت أقل من خمس دقائق بالنسبةِ لهما...

دلفت الزوجة الغاضبة الى الغرفة بعدها بجنون، أما آن لكِ أن تنصرفي ياأبنة الحسب والنسب؟؟

لم تجبها بل ظلت تنظر لهُ حتى أقتربت من الباب فألتفتت وأبتعدت خلفها كم دهشت الزوجة حينما ألتفتتْ لتعاتب زوجها الطريح في فراش المرض وهي تجدهُ واقفاً أمامها وكأنهُ لأشيء فيه.. حارت الكلمات في فمها ولم تقدر إلا أن تقول:

لا لا لا لا لن أعيش معكَ بعدما شاهدت بعيني وهل من أمراة ترضى لنفسها مارضيت أنا؟؟

حزمت حقائبها وأخذت طفلتها وذهبت الى منزل أهلها، تنتظر حلاً منهُ وهو الذي يريد حلاً، أما هي فقد سرت الشائعات سريعاً وقوعها في علاقة غير شرعية مع طليقها وبدأت الناس تلوك بسمعتها وتقطع لحمها دون رحمة، وأخذ الجيران يضيفون وقد شاهدوا خروج زوجتهُ من دارها لماذا تركتهُ أذاً أن لم يكن هناك حقاً شيء بينها وبينهُ؟؟ وتضيف أخرى لا دخان بغير نار أبداً وكبرت الشائعات رغم أنها حين جاءت تراهُ لم تكلمهُ بل كانت الدموع كلامهما ونظرات الحزن حديثهما ولم يعد طفلهُ يأتيه لأن زوج أمهِ مَنعَهُ، فزادت عذاباتهُ وشعر أن الدنيا تحولت الى جحيم لايطاق وخرج ذات مساء الى المقهى بعد أن مزقَ الشَّعر الذي قضى ليلة كاملة يؤلفهُ فيها فقد كانَ يكتب الشعر فيها.. طيلة تلكَ الفترة وينشرهُ في الصفحة التي ينشر الشعر فيها، جلس فوق الكرسي في المقهى وهو يحتسي الشاي...

وكانَ خلفهُ شابان يتحدثان وكانَ يفكر في عذابهِ وهو يشرب الشاي بينما الفتيان يتحدثان عن الحب أذ قالَ أحدهما للأخر أن الحب الطاهر شيء جميل.. أنهُ أجمل شيء في الوجود وسخر منهُ صديقهُ وقال لهُ لا وجود لهذا الكلام فأكدَ صديقهُ وجودهُ وتنازعَ الأثنان وأحتكما إليه...

ياعم أنتَ أكثر خبرة في الدنيا منا كي تخبرنا هل هناكَ حب طاهر في هذه الدنيا أم أنهُ مجرد كلام قصص لا أكثر، هل هناكَ من يحب الى الأبد مهما كان...

نظرَ إليهما وهو يمسك سيجارتهُ الذاوية ونفث الدخان من بين شفتيه...

أو تظنان الحب لعبة حمقاء، أنهُ شيء عظيم لكنهُ لايعطى إلاّ مرةً واحدة فيكون صاحبهُ أما تعيساً الى الأبد أم سعيداً في دنيا الحطام هذه، أنهُ موجود ولكن ليس للعبث بل أجمل شيء هو الحب الطاهر بالروح أنهُ شيء مقدس سحري لايفسرهُ بشر!!

وأطفأ سيكارتهُ فوق المنفضة وقام وحمل قدميه المثقلتين بثقل روحهُ التعسة الى البيت يجر أذيال الخيبة..كلم طيفها وهو يكتب شعرهُ...

إلا يمكن أن نعود؟؟

كان عنوان قصيدتهِ التي كتبها تلكَ الليلة بعد أن صلى في الليل باكياً وهو يناجي ربهُ أغفر لي يارب لقد أجبت دعائي من قبل ولكنني أنا الذي قضيت على نفسي، أنا الذي ضيَّعتُ ماأعطيتني، يارب أرحني من عذابي، فلم أعد أحتمل!! ولم أعد أعرف ماالذي أفعل؟؟

كتبَ طيلة الليل قصيدتهِ التي وجدتْ فوق صدرهِ وهو نائم فوق كرسي مكتبهُ ووجههُ المليء حزناً كانَ في ذلكَ النهار وجهاً مشرقاً وكأنهُ قد حلمَ حلماً جميلاً أرخى سدولهُ فوق محياهُ لم يستطع قياماً فقد كان حلمهُ طويلاً هذه المرة الى الأبد...

وتدور الأيام

(الجزء الأول)

في إحدى الدول في مدينة ما في زمان ليس ببعيد، كان هناك في ريف تلك المدينة منزل ضخم عتيق لم يسكنهُ أحد منذ زمن، لأن أحداً لم يستطع دفع ثمنهِ لمالكهِ الذي سكَنَ المدينةَ وتركهُ رهناً للبيع إذ أن أعمالهُ كانت متعلقةً بالمدينة، وكان سكان تلك المنطقةِ الريفيةِ يمّرون أمام تلك الدار الواسعة كل يوم وشهراً بعد شهر، وعاماً بعد عام وهي خاوية على عروشها قد هجر خدمها الدار، وهجرت الخيول أسطبلها التابع لها وترك حقلها الواسع دون رعاية أو تدبير حتى أخذ الناس يحوكون القصص عن أن أشباحاً قد سكنت الدار الشبيهة بقصر عظيم، أو أن جنّاً قد عقدوا العزم على السكن فيه بدل البشر، فما تجرأ أحد على الأقتراب منهُ بعد ذاك أو محاولة شرائهِ حتى جاء ذلك اليوم الذي أخذ فيه سكان تلك المنطقة الريفية يتهامزون وهم يرون مالكاً جديداً على وشك الأنتقال الى تلكَ الدار الفسيحة يتبعهُ شلة من الخدم وكثير من الأثاث والتحفيات...

أستعلم الناس عن ذلك المالك الثري فعلموا أنه أحد مستحدثي النعمة قد وَرِثَ أباهُ بعد وفاتهِ وضَّم أملاك قرابتهِ إليه ليعيش كملكٍ في قصرهِ لكنّ الإشاعات المغرضة دارت حول ثروتهُ وكيف أنهُ قد ظلم بعضاً من أقرب الناس إليه كي يصبح فاحش الثراء بهذه السرعة، جاءَ ذلكَ الرجل متزوجاً ولهُ ولدٌ كبير في الثانية عشر من عمرهِ وطفلةً جميلةً للغايةِ في الخامسةِ من عمرها، أقام حفلاً رحب به بأهالي القرية حولهُ كي يكسب ودهم وترحيبهم.. أحب الناس أسرتهُ وكرمهُ وبشاشتهُ واصبح طفلاهُ مرحباً بهما في تلكَ المنطقة...

لكن لم يمر أقل من عام لما وقعَ حادث رهيب إذ سقط ولدهُ الأوحد من حصانهِ وهو يتجول فوقهُ على أحدى الطرق الجبلية الضيقة الى الوادي السحيق ولم يعثر أحد على جثته إلا

وهي طافية فوق الماء قد تهشمت عظامهُ وغرقت رئتاهُ بالماء عن آخرهما، صار ذلك الحادث حديث أهل القرية وأخذوا يحوكون القصص عن أن الجان غضبوا على مالك الدار لأنهُ سكن مكانهم فقتلوا ولدهُ ودفعوهُ عن حافة الجبل وأخذ آخرون يحكون عن أن المالك كانَ قد حصل أموالهُ بطرق محرمة فعاقبهُ الله في ولدِهِ وأخذ الناس يتحدثون ويتقولون ماشاؤوا، لكن المحصلة النهائية كانت هي أعتكاف ذلكَ الرجل الحياة العملية لفترة طويلة أصبح فيها جليس الدار أما زوجتهُ فقد مرضت مرضاً شديداً بسبب تلكَ الحادثة التي كان وقعها كالصاعقة على قلبها ولم تستطع أن تعيش بعد ولدها فماتت كمداً وحزناً.. بقي ذاكَ الرجل وحيداً في قصرهِ مع طفلتهِ الصغيرة وحيداً معها ومع أحزانهِ المضاعفة، وبعد فترة طويلة من الأعتكاف والحزن، قرر أن يخرج مع طفلتهِ في جولة فوق الحصان ليرى مكان الحادث وليرى حدود أملاكهُ في تلك المنطقة الريفية، كانت تجلسُ أمامهُ طفلة في السابعة من العمر، عاشت عامين من الحزن المتواصل بوفاة أخيها الأكبر وبعد ذاك مرض والدتها وصراعها مع الألم وموتها علاوة على رؤيتها لحزن والدها الشديد وأعتكافه.. ولذلك شعرت تلك الطفلة أن تلك الدار مشئومة منذ اليوم الذ دخاوا فيه إليها...

سعدت الصغيرة أيما سعادة بخروجها للمرة الأولى مع أبيها بعد تلك الأحداث الأليمة.. كان المنظر رائعاً هناك فوق الجبل في ذلك المنعطف الجبلي حيث سقط أخوها من فوق صهوة جوادِهِ ولم يعلم أحد ماالسبب حتى تلك اللحظة التي نظرت فيها الى عيني والدها المغرورقتين بالدموع، تلكما العينان العسليتان الواسعتان اللتان أحبتهما حاولت أن تمسح دموعهُ، لكنهُ كانَ في عالم ثان بعيداً عن طفلتهِ حتى وإن كانَ قريباً منها في المكان، كانَ المنزل الواسع هناك يلوح في الأفق من بعيد وحولهُ تلكَ المساحات الخضراء التي كانَ من الأحرى أن تتحول حقولاً تزرع بشتى أنواع الخضار والفواكه المحلية، عاد الأب بأبنتهِ الى تلك الدار فانقبض قلبها من جديد.. أحس بحزنها قال لها بعد لأي...

- صغيرتي، هل تودين الخروج كل يوم من هنا؟؟

- نعم أودُ ذلكَ جداً!!

هتفت بسعادة وكانَ لها ماأرادت إذ أخذَ ذلكَ الوالد المنكوب يخرج مع طفلتهِ الى الحقل الممتد خلف قصرهِ العتيق وبين الحقول الواسعات فوق صهوة جوادهِ الأسود الأصيل يزور معها الأزقة والنواحي ويذهبان بعد ذلك عائدين الى الحقول التالية حتى يصلا حقلهما المهجور...

في أحد الأيام سألت الطفلة والدها وهي تنظر إليه بينما كان يضمها الى صدرهِ فوق صهوة جوادهِ وهما يزوران الأسطبل...

أبتاه!! لم لانزرع حقلنا مثل هذه الحقول الجميلة أمامنا؟؟

لم لانجعل من حقلنا هذ مصدراً للعيش بإحياء هذه الأرض التي تملكها ياوالدي؟؟

نظر الأب إليها بذهول وقال:

أممم، سأفكر في الأمر لكن علي الآن أن أعيد إحياء هذا الأسطبل المهجور منذ، منذ وفاة ولدي...

قالَ لها بإمتعاض وألم.. أحتضنتهُ الصغيرةُ بقوة وكأنها تريد أن تقول لهُ أنها هنا وأنها ستحاول أن تعوضهُ عن فقدان أخيها...

- حسناً، ياصغيرتي بعد أسبوعين من الآن ميلادكِ العاشر وأنا سأهدي لكِ شيئاً مميزاً...

أحاطت الصغيرة والدها بذراعيها وقبلت وجنتيه فرحاً...

- أحبكَ ياأبتِ الغالي...

- وأنا كذلكَ ياحبيبتي...

قالَ ذلكَ والدموع تتلألأ في عينيه العسلتين بينما عيناها السوداوتان تشعان بالسعادة والأمل من جديد، أخذَ الوالد يحضر الأسطبل كي تجد صغيرتهُ فيه متنفساً ووسيلة تخرجها من ضجرها ووحدتها، جلبَ عاملاً جديداً للأسطبل بعد أن طرد الأخير بعد وفاة ولدهُ البكر وأشترى مجموعة جديدة من الخيول الأصيلة ومهراً صغيراً أعدهُ هدية لميلاد أبنتهِ...

زارَ ذلكَ الوالد الأسطبل قبل يومين من موعد الميلاد، لدهشتهِ وجد ظلاً لشاب في عمر ولدهِ البكر ركض خلفهُ..كانَ هنالك من يركض فعلاً هرباً منهُ صاحَ بصوت جهوري...

- إظهر يافتى!!

قل لي من أنتَ؟؟

أختفى الظل وأختفى ذلكَ الفتى الذي كانَ يطاردهُ، فجأة ظهر لهُ رجل الأسطبل نظر الى سيدهِ بدهشة...

هل هنالكَ خطب ما؟؟

أقسم بكل مقدس في الكون لقد رأيتُ صبياً هنا ركضَ وتبعتهُ الى هنا، هنا أختفى في القش خلف هذا الحصان الذي كنت تفرش شعرهُ...

- سيدي!!

سلامتكَ؟؟

ليس هنالك أحد سواي وسواك وأسقط مافي يديه.. عادَ راجعاً الى قصرهُ لايلوي على شيء، وبينما حصانهُ يسير فوق الحقل المهجور إذ به يلمح ذلكَ الفتى فوق جواد بني صاحَ به إلتفتَ إليه، فشد القبضة على لجام فرسهِ وأنطلق مبتعداً لحقهُ بسرعة وكانَ فارساً لايضاهى ولذلكَ أستطاعَ الأمساك به وطرحهُ أرضاً من فوق فرسهِ...

من أنتَ؟؟

وماذا تفعل في أملاكي؟؟

سيدي أنا مجرد عابر سبيل ضللتُ الطريق والتجأت لأسطبلكَ ولما رأيتكَ هربتُ... انا أعتذرُ منكَ...

حسناً أعتذاركَ مقبول وأين وجهتك؟؟

قالَ السيد وهو ينظر الى الفتى بسعادة وقد خفف قبضتهُ على مؤخرة رقبتهِ وكأنهُ وجدَ ضالتهُ..كانَ يشبهُ ولدهُ كثيراً بل لعلهُ شاهدَ ولدهُ بشعرهِ البني المجّعد وعينيه اللوزتين ووجههِ الأبيض الطويل..كان ولدهُ ليكون في نفس العمر، فتى غضاً مثله تماماً لو أنهُ بقي على قيد الحياة هكذا حدث نفسهُ في ثوان سريعة وهو يتأمل وجه الفتى بسعادة غامرة.. كاد أن يقبلهُ وهو يقول «وجدتك ياولدي أين كنت»؟؟...

لكنهُ تمالكَ نفسهُ ووقف بكبرياء أمام الفتى وهتف بعد مدة قصيرة...

هل أهلكَ هنا أم ماذا والى أين عزمكَ؟؟

أنا ياسيدي بلا أهل ليس لي أم ولا أب يتيم فحسب وقد جئتُ هنا بحثاً عن عمل لأني وجدتُ نفسي فجأة بلا معيل أنا أكرر أسفي ياسيدي وأرجو ان لا تعاقبني على وقاحتي كوني أقتحمتُ ممتلكاتكَ دونَ علم منكَ فقد أردتُ مكاناً استريح فيه من عناء السفر وليس لي تقود كي أستقل وسيلة حديثة فأضطررتُ الى أمتطاء فرسي التي هي كل مالي من حطام هذه الدنيا بعد أن، وجدتُ نفسي فجأة بلا مأوى وكنتُ ماضياً في سبيلي قدماً حتى أجد عملاً ومأوى في مكان ما.. نظرَ السيد الى ذلكَ الفتى بدهشة بينما أطرق الفتى بندم وخوف.. شعرَ ذلكَ الرجل بحنان مفاجىء يجتاح مشاعرهُ وكأنَ الله قد أرسلَ لهُ ذلكَ الفتى عوضاً عن ولدهِ.. فجأة صرح بصوت حازم...

أنا كنتُ أبحث عن فارس يجيد إمتطاء الأحصنة وتدريبهم كي يرعى مهر صغيرتي التي سيكون ميلادها العاشر بعد يومين وأني لأشكر السماء لقد أُرسلتَ إلي وأنا على أستعداد لتعيينك في أسطبلي وتوفير كوخ لكَ هناكَ مع الطعام والشراب وراتب يزداد مع ولائكَ وتفانيكَ في العمل فماذا تقول يافتى؟؟

رفع الفتى رأسهُ ونظر بعينيه اللوزتين الى الرجل غير مصدق مايسمعهُ...

- يالبركات السماء!!

أنا لاأصدق ماتقول ياسيدي هل أنتَ متأكد أنك تريدني أنا كي أرعى أسطبلك؟؟

ماذا عن الرجل الذي يرعاهُ الآن؟؟

– ستكون مسؤولاً فقط عن رعاية طفلتي عندما تزور الأسطبل وتعليمها كيفية ركوب الخيل والعناية بمهرها، عليك أن تعرف أنهُ لو حصل لها أي شيء فسيكون عقابكَ شديداً وسأحرص على معاقبتكَ بنفسي فأنا لا أملك الآن سواها أينما تذهب تذهب معها وأينما تكون لما تمتطي مهرها تكونُ تحتَ إشرافكَ ونصب عينيكَ هل كلامي مفهوم أيها الفتى؟؟

– سيدي أنا لا أفهم، يعني هل أرعى الخيول الأخرى أم فقط مهر آنستي الصغيرة؟؟

– لابأسَ عليكَ لو ساعدت في رعاية بقية الخيل مع القائم عليها وسيزداد أجركَ، لكن مهمتكَ الرئيسية تقتضي مرافقة صغيرتي عندما تزور الأسطبل ورعايتها هي وحدها...

نعم سيدي أنا تحت أمركَ...

حسناً، إذاً هيا هلمَ وتعالَ معي لترى آنستكَ...

الى أين ياسيدي؟؟

قالَ الفتى بدهشة كبيرة ألتفتَ السيد إليه وهو ينظرهُ من طرف عينيه...

الى داري الواسعة تلكَ عليكَ أن تغتسل وأن تبدل ثيابكَ الرثة هذه فمن الآن فصاعداً أنتَ جزء من عائلتي وهمسَ كأنما يكلم نفسهُ «وولدي بالتبني» تعالَ معي يافتى...

سارَ الأثنان وهما يغذان الخطى نحو القصر العتيق.. قفزت الصغيرة من فوق كرسيها حيث كانت تلعب بلعبتها الصغيرة وأمتقع وجهها كأنها شاهدت شبحاً...

– أبتِ من هذا الفتى؟؟

نظرَ الوالد الى صغيرتِهِ بحنان وأبتسمَ بفرحة ممزوجة بالألم.. رفع عينيه نحو الفتى ومدَ يدهُ إليه، هل تريدين أن يكون هذا الفتى مرافقاً لكِ كي يرتاح والدكِ ولايخاف عليكِ أينما ذهبتِ ياطفلتي وكي (وغصَّ بعبرتِهِ) لاتتكرر حادثة كتلكَ التي لم نعرف كيف فقدنا بها أعز الناس الى قلبينا ياغاليتي!!

- نعم ياأبتاه، نعم...

تمتمت الصغيرة وكأنها واقعة تحت تأثير منوم مغناطيسي، كانت تنظر إليه بدهشة وهو ينظرها بإستغراب شديد...

- أبتِ!! إنه يشبه الى حد كبير...

- صه لاتقولي لهُ شيئاً...

وضعَ الأب سبابتهُ فوق شفتي صغيرتهِ بينما كانَ الفتى قد ذهبَ برفقة أحد الخدم ليغتسل ويبدل ثيابهُ، عندما عادَ إليهما بعد فترة من الزمن ظلَ الأثنان ينظران إليه بذهول بينما أدمعت عيناهما وكادا يحتضنانهِ، لقد أعطى السيد تعليمات للخادم كي يلبس الفتى أحدى ثياب ولدهِ المتوفي..كم كان شبيهاً به صحيح أنه كان أكثر طولاً بقليل لأن الفتى مات منذ أعوام وقد كان بطول هذ الفتى آنذاك تقريباً رغم أنه كان أصغر سناً إلا أن تفاصيلهُ كلها قاربت أن تجعلهُ أخاً جديداً وأبناً ثانياً، لتلك الفتاة الصغيرة وذلك الأب المفجوع...

وتدور الأيام

(الجزء الثاني)

أخذَ الفتى يرعى مهر الصغيرة ويأخذ بيدها في خطواتها الأولى وهي تتعلم ركوب الخيل وقد كانت الفتاة في غاية السعادة كونها قد وجدت من يرافقها خارج تلك الدار التي كانت كسجن واسع لها، وجدت سبباً تستطيع به إمضاء الوقت بعيداً عنها فساعات الوحدة الطويلة كانت كموتٍ بطيء وبالأخص ساعات دراستها المنزلية على أيدي أساتذة يأتون فيملؤون رأسها بالكلام والشرح دون أن تلتقي بمن هن في عمرها في مدرسة صغيرة ريفية قريبة تشاطرهن اللعب والكلام والحياة، ذاكَ أنَ والدها أبى أن تتعلم مع فتيات القرية في مدرستهن المتواضعة.. كان الفتى آنذاك في السابعة عشر وهي لاتزال في العاشرة ولقد أحبهُ والدها كثيراً وقربه إليه لشدة شبهه بأبنهِ المتوفي، في كل يوم كان الفتى يأخذ الصغيرة في جولة حول الحقول، هو فوق فرسهِ وهي فوق مهرها فيزوران مختلف الأماكن في القرية ثم يعودان الى الحقول حيث تلوح الغابة البعيدة في الأفق تمنت الصغيرة دوماً أن ترى الغابة من الداخل، كانت تخشى الذهاب بمفردها ولم يرض الفتى لها ذلكَ حتى مرَ عامان على تدريبها على الفروسية ففي أحدى المرات دخلت الصغيرة كوخ مدربها حيث وجدته جالساً قرب موقد النار يرمي قطع الخشب التي قطعها من الأشجار فيه، جلسَ قبالتهُ عامل الأسطبل الذي أصبح صديقاً لهُ رغم الفارق العمري بينهما نظرَ العامل إلى انسته مبتسماً ولكز الفتى في كتفهِ، إذ كانَ ملتفتاً نحو الموقد وظهرهُ محدوب وقد جلس القرفصاء يرمي قطعة الخشبية الى تلكَ النار المتأججة...

– لقد جاءت آنستكَ...

ألتفت الفتى ونهض واقفاً نفض غبار الفحم المتصاعد والمتراكم فوقهُ.. تلعثم لبرهة فقد

كانت تلك هي المرة الأولى التي تزور فيها السيدة الصغيرة منزلهُ الصغير...

- مرحباً آنستي الصغيرة، ماذا جاءَ بكِ الى كوخي المتواضع؟؟

- حسناً، ذهبت الى الأسطبل فلم أجدكما هناك، أريد أن نذهب في جولة حول الحقول أنا ضجرة جداً وأريد الخروج من الدار وتغيير هذا الروتين القاتل وتململت قليلاً عند الباب واضافت...

- هل لي أن أدخل أولاً هنا قبل الذهاب؟؟

نظرَ الفتى الى عامل الأسطبل بدهشة ثم صرح بسرعة...

أكيد تفضلي آنستي...

دلفتْ الى الكوخ الصغير تتفرس في أثاثهِ بإستغراب..كانَ مجرد سقيفة في البداية منحها والدها للفتى الذي أخذَ يصنع سقفها ويعلي جدرانها الخشبية حتى صنعَ من تلكَ السقيفة كوخاً من الخشب بيديه المجردتين فقط.. لم يكن هنالك أثاث يذكر ماخلا كرسيين من الخشب وسرير صغير وضع في نهاية الغرفة الوحيدة التي يتكون منها الكوخ كله، هنالكَ موقد نار بجوارهِ قدر صغير وأبريق شاي موضوعان على طاولة خشبية كانت موجودة بقربِ عامل الأسطبل حيث أتكأ بمرفقهِ ينظر الى الصغيرة وهي تجول بعينيها في أرجاء المكان بإستغراب شديد...

- ماالأمر آنستي...

هتفَ العامل بدهشة...

إلتفتت الفتاة الصغيرة بإرتباك وقالت وهي تتقرب نحو الكرسي الأوحد في تلكَ الكوخ بعد أن جلسَ العامل على الكرسي الثاني، حسناً، من بنى هذا الكوخ؟؟

لا أذكر أنهُ كانَ موجوداً من قبل...

أنا من بنيتهُ...

هتفَ الفتى وهو ينظر إليها بحزم...

شعرت بإرتباك وبأنها ربما قد جرحت كرامتهُ...

- حسناً، إنه عمل رائع، أحسنت ياالهُ من كوخ جميل...

كلاهما علم أنها كانت تكذب وأنها حاولت مجاملة الفتى، جلست الفتاة على الكرسي ومدت يديها لتتدفأ بالنار عندما أنتفض الفتى وهتف بها...

هيا بنا إن كنتِ راغبةً في الخروج ليس هنالك متسع من الوقت فالغروب بعد ساعتين أو ثلاث، هلمي...

ركبت الفتاة على مهرها الذي كبرَ ولم يعد مهراً بل جواداً أصيلا، أصبحتْ في الثانية عشر أنذاك، فتاةً جميلةً ذات شعرٍ أسودٍ فاحمٍ وعينينِ سوداوينِ كعيني الغزال وقد ممشوق سارا سوية هي فوق حصانها وهو فوق فرسهُ ذاتها التي جاء معها الى تلك الدار، ذهبا حول الحقول وسارا في نفس الدرب التي يسيران فيها كل يوم شعر الفتى بضجر الآنسةِ من تكرار تلكَ الجولات وكأنها درس مكرر، تمنى لو أنهُ أستطاع فعل شيء لأجلها.. توقفت الصغيرةُ فجأة نظرت الآنسةُ الى الغابة من بعيد وتنهدت.. علمَ الفتى مايجول بخاطرها تنفس الصعداء وقال لها...

- حسناً، هل أنتِ مستعدة لخوض هذه المغامرة الجديدة؟؟

- أنتَ تعني!! (وتبادلا النظرات فعلمت أنه يقصد الغابة نفسها)...

- ياالهي، شكراً للسماء طبعاً أنا مستعدة شكراً لكَ...

لكزت الحصان فأنطلقَ بسرعة بينما صاحَ الفتى بدهشة وهو يلكز فرسهُ بسرعة...

- أنتظري آنستي، أنتِ أمانة في عنقي...

رحماكَ يارب، وحاولَ أن يسابقها لكنها كانت الأسرع.. دخلت الغابة دون أن تعرف أنها ستتوه بها ولاتعرف طريق العودة.. جل همّها كان الخروج من القصر العتيق والخلاص من تقييد والدها ونظامهِ الصارم في الأكل والنوم المبكر وعدم الخروج الى أي مكان الإ ماحدد والدها

برفقة الفتى وتحضير واجباتِ أساتذتها كل يوم وعدم الكلام مع شخص غريب وعدم الكلام مع والدها نفسهِ الإ عندما يكون في مزاج جيد وقلما كانت تجدهُ كذلك لأنهُ (دوماً ما كان مثقلاً بالهموم لايكلم احداً) وعدم التحدث مع الخدم الإ بما تأمرهم به..كانت حياتها عبارة عن لا وكلا ولاتفعلي واّحذري من...

كانَ المنظر جميلاً جداً داخل الغابة فتوغلت أكثر وأكثر وهي تتابع أنعكاس الضوء على أوراق الشجر وتنظر تلكَ الأغصان المتكاتفة بشكل جميل.. هالها المنظر وأرادت رؤية المزيد فتوغلت أكثر وأكثر، كان المنظر أكثر جمالاً وخصوصاً وهي ترى من بعيد أقترابها من الجبل وهي تصعد بحصانها رويداً رويداً بين الأشجار والممرات الضيقة التي مرت بها بين جذوع تلك الشجر وصلت أخيراً الى مكان لم تعلم كيف تخرج منهُ...

أخذت تدور بحصانها بين الأشجار الكثيفة لاتعلم من أين الخروج، صاحت بأعلى صوتها تنادي الفتى كي ينقذها.. لم تجد سوى رجع صوتها، إنتابها ذعرٌ شديد وخصوصاً أنها ظنت الليل قد حل سريعاً بسبب تكاثف أغصان الشجر وحجب رؤية السماء عنها وضوء الشمس التي كانت على وشك الغروب.. بعد ساعة ضمت وجهها بين يديها وهي لاتزال تمتطي حصانها وبكت بصوت عال وقلبها يخفق بسرعة شديدة، فجأة شعرت بيد تحط على كتفها.. ذعرت وصرخت فزعة...

لاتخافي إنهُ أنا...

- ياألهي!!

صرخت بسعادة والدموع تنهمر من عينيها...

- لا بأس ياآنستي...

لا بأس لقد وجدتكِ، أنا أعرف طرق الغابة كلها، لا تخافي...

قال ذلك وهو يرى دموعها الحرى.. شعر بالتعاطف الشديد معها مسح دموعها بأناملهِ وقال لها بحنو كبير...

– لاتخافي آنستي أبداً فأنا هنا معكِ وسأعود بكِ الى والدكِ سريعاً، أنت وديعة عندي ولن أفرط فيكِ أبداٍ...

وبينما كانا يعودان أدراجهما إذ هبت عاصفة رعدية تلاها مطر غزير عرقل سيرهما فأضطرا الى التوغل في الغابة أكثر من ذي قبل ليصلا الى كهف قريب، اّختبأ الفتى مع آنستهِ تحتَ صخورهُ.. شد الفتى لجام حصان الصغيرة وفرسهِ قربهما واّنزويا في ركن بعيد، تحت الصخور حتى لايصل الماء إليهما، وكان الظلام على وشك الحلول، فأرتعدت فرائص الآنسة الصغيرة وشعرت بذعر شديد.. كان صوت الرعد مدوياً مهولاً يرتعد لهُ أشجع قلبٍ، وكانت الآنسة الصغيرة تخشى صوت الرعد وتصم أذنيها لما تسمع دوي الرعد وهي فوق سريرها فماذا لو كانت في البرية وتحت السماء؟؟

قفزت كهرة صغيرة وأختبأت تحت جنحي الفتى وهي ترتجف...

– أرجوكَ، إني أخاف الرعد، أخاف منهُ...

كانت ترتجف ذعراً وبرداً، نظر الفتى إليها وهي تضع رأسها فوق ذراعهِ خوفاً وتمسك بذراعهِ مرتعدة...

– لا لا، لا تخافي شيئاً... أنا هنا معكِ...

أحاطتْ رقبتهُ بذراعها الأخرى ودفنتْ رأسها فوق صدرهِ فرقاً لما دوى الرعد بصوت قوي جداً، صم الفتى أذنيهِ على أثرهِ...

– لا تخافي: لندخل الكهف، فمن الجلي أنَّ العاصفة لن تنقشع حتى الصباح.. نظرت الآنسة الى الفتى بريبة وقالت بصوت مرتجف...

ولكن ألا توجد حيوانات متوحشة في داخل الكهوف؟؟

نظر الفتى إليها لبرهة ثم قهقة ضاحكاً...

– لا عليكِ: أنا قد جئت هنا عشرات المرات ولايوجد شيء مما قلتِه.. بعض الخفافيش على

جدران الكهف ربما لا غير ذلك لندخل هنا.. لحظةً واحدةً دعيني أشعل مصباحي...

نزعَ الفتى كنزتهُ الصوفية الخشنة ووضعها كوسادةٍ أشارَ للآنسة أن تضعَ رأسها فوقها.. من الأفضل لكِ أن تنامي كي تنسي خوفكِ، أو لم يخفكِ صوت دوي الرعد الآن؟؟

نعم، نعم، لقد خفتُ كثيراً.. لكن لماذا كنت تأتي هنا كثيراً..

نظرَ الفتى إليها مطولاً نظرةً ذات معزى لم تفهمهُ، وصمت، شعرت الفتاة أنَّ في الأمر سراً ما.. وضعت رأسها فوق كنزةِ الفتى، وتكورت على نفسها كهرة صغيرة مولية ظهرها إياهُ...

وضعَ الفتى ذراعهُ أسفل رأسهِ وأستلقى على مسافة من الآنسة وحاول النوم مولياً إياها ظهرهُ لكن النوم جفاهُ وأخذ يتقلب يميناً ويساراً...

أخذَ يرقب الآنسة الصغيرة وقد غطت في نوم عميق فحسدها على ذلك في سرهِ بقيت أفكارهُ تتدافع وهو يفكر كيف لهُ أن ينفذ خطتهُ وكيف يتسنى لهُ أن يحقق مأربهُ، بينما كانت نظراتهُ تتابع جمال قسمات وجهِ الصغيرة وتتأملان براءة سحنتها، حتى هجم النوم على جفنيه، وسرعان ما غط في نوم عميق.. عندما عادَ في الصباح مع الآنسة الى قصرِ سيدهِ وجدَ الخدم في حالة آضطراب شديد.. تساءل عن الأمر فعلم أن والد آنستهِ قد جنَ جنونهُ عندما لم تعد فتاتهُ الصغيرة بالأمس ولم يعرف عنها شيئاً ولما شاهد السيد طفلتهُ أسرعت الأخيرة بأحتضانهُ وضمها هو بين ذراعيه باكياً.. نظرَ الى الفتى مكشراً عن أسنانهِ بغضب شديد وصرخَ به...

– ألم أقل لكَ أن ترعى صغيرتي وتكون مسؤولاً عنها.. أوَ لمْ أضعها أمانة في عنقكَ وتقاضيت اجركَ على ذلك ولا زلتَ تعيش من خيري لمجرد رفقتك لأبنتي كي ترعاها وتحرص عليها عندما لا أكون متواجداً لأرعاها!!

– نعم سيدي...

قال الفتى مطأطىء الرأس لما حاولت الآنسة الدفاع عنهُ وهي تحيط والدها بذراعيها...

– والدي الحبيب!!

هتفت بقلق وأحاطت رقبتهُ في محاولة منها كي يلتفت إليها لكنهُ أبعدها عنهُ بغضب وصرخ بها، لاتحاولي الدفاع عنهُ هو المسؤول عن عدم عودتكِ بالأمس، أين كنتِ، لماذا لم تعودي؟؟

أحمرت وجنتا الفتاة خجلاً وغضباً في آن وحارت جواباً عندما صرختْ فجأة وقد لملمت شتات شجاعتها وقالت أخيراً وهي تنظر الى عيني والدها وهما تتطايران شرراً...

- أبتاهُ، لقد أصررتُ أنا على الذهاب الى الغابة وهناكَ ضعت لولا حضورهِ.. هو أراد أن يرجعني لكن عاصفةً رعديةً هبتْ وتلاها مطرٌ غزيرٌ... خاف عليَّ من المرض ومن عدم قدرتي على مواصلة السير تحت المطر لنخرج من الغابة، فقررنا الألتجاء الى كهف صغير بقينا فيه حتى الصباح هذا ماجرى ياوالدي...

- كيف تجرؤ...

نظرَ الوالد الى ذلكَ الفتى بغضبٍ شديدٍ وأشار لابنتهِ بسبابتهِ أن تذهب بسرعة من أمامهِ عندما سحب حزام بنطالهِ وصرخَ بالفتى أن يجثوا على ركبتيه... صرختِ الفتاةُ بألم وتوسلتْ وهي تمسك بيدهِ أن لايضربَ الفتى لكنهُ دفعها بقوة الى الأرض بحيث أرتطم رأسها بذراع الأريكة...

- آنستي.. هل أنتِ بخير؟؟

صاحَ الفتى بقلق.. تكورت الآنسةُ الصغيرةُ وضمت ساقيها الى صدرها ولم تجب بشيء، عندما صرخ الفتى إثر ضربة قوية تلقاها على ظهرهِ بحزام سيدهِ.. غطت الفتاة عينيها براحتي يديها وصرخت بألم، أخذت تبكي إثر كل ضربة تسمعها تجلد ظهر الفتى بينما يصرخ الأخير بلا جدوى.. بقي والدها يجلدهُ بحزامهُ بهيستيريا وكأنهُ ينتقم من الزمن أو يثأر لموت ولدهِ أو يحاول بضرب الفتى أن يحافظ بكل ماأوتي من قوة على طفلتهِ من كل سوء أو أذى كانَ من الممكن أن يصيبها ببقائها في الغابةِ مع أو بدون ذلكَ الشاب الصغير.. فجأة سقط الفتى مغشياً عليه من الضرب المبرح فصرخت الفتاة بذعر...

أبي رحماكَ لقد غابَ عن وعيهَ ياأبتِ لقد أنقذني لم فعلتَ به هذا، لمَ لمَ؟... وانفجرت في

موجة من البكاء الهستيري تنبه السيد الى فعلتهِ وتوقف عن ضرب الفتى وهو يرى الدماء تسيل من ظهرهِ بينما كان قد سقط على وجههِ مغشياً عليه، نظر الى أبنتهِ مكورة في زاوية الصالة وهي تبكي وفكر لثوان قليلة قبل أن يصرخ طالباً حضور خادمهُ...

- نعم سيدي...

نادِ لي رجل الأسطبل كي يأخذهُ الى كوخهِ ويرميه هناك ولاتدع أحداً يقترب منهُ، دعوهُ لوحدهُ علهُ يموت بمفردهِ، رفعت الآنسة الصغيرة رأسها غير مصدقة ما سمعتهُ من أبيها كانت قد سمعت من قبل عن قسوتهِ مع الخدم وعدم مراعاتهُ لظرف أي أحد منهم، لكنها لم تصدق أي كلمة حتى تلك اللحظات التي نطق بها تلك الكلمات أمامها.. قال الخادم بعد لأيٍ وهو يحاول رفع الفتى دون جدوى...

- سيدي، دعني أنادي أحداً يساعدني، أنهُ ثقيل ولا أستطيع حملهُ بمفردي...

- إذهب وادعُ رجل الأسطبل ليأتي هنا وخذاهُ بمفردكما دون أن يعلم أحد بالأمر... أرمياهُ.. في كوخهِ ولاتعالجاهُ أبداً.. كيف تجرأ على المكوث مع ابنتي بمفردهِ ليلة كاملة دون علمي، سوف يكون هذا درساً لهُ لن ينساهُ أبداً هو وكلُّ من ينكرُ نعمتي، أوَ هكذا يجازيني أوَ أأتمنهُ على طفلتي فيفعل ذلك وثم من سمح لهُ أن يدعها تذهب الى الغابة وأنا الذي أعطيتهُ تعليمات مشددة كان حرياً به إلا يخالفها هلم وأذهب الآن...

- أمرك سيدي!!

قالَ الخادم مطأطى الرأس ثم أنصرفَ وعندما حلَ المساء.. أخذَ الخادم ورجل الأسطبل الفتى الى كوخهِ وتركاهُ هناكَ حتى الصباح، لم تستطع الفتاة النوم وبقيت تبكي طوال الليل وهي في حالة صدمة ووجوم لاتستطيع تصديق ماسمعتهُ وشاهدتهُ من قسوة والدها كانت ترتجف ذعراً ورهبة وحزناً ولما لاحت تباشير الصباح تسللت الصغيرة على أطراف قدميها حتى خارج الدار وهناك أنطلقت مسرعة نحو رجل الأسطبل إذ طرقت باب منزلهِ القريب بقوة فخرج مذعوراً...

عليكَ أن تجلب طبيباً بسرعة الى كوخ الفتى هل تفهم أنا سأنتظركَ هناكَ...

– آنستي، مهلاً، من أين أجلبُ طبيباً في ساعة كهذه؟؟

ثم ماذا لو علمَ سيدي بالأمر أرجوكِ أن تعفيني...

كلا هل جننتَ؟؟

سوف يموت!! كلا سأعطيكَ ماشئت من النقود، لا، لا تتركهُ، كيف تستطيعُ النوم وصديقكَ ملقى بجراحهِ على الأرض سوف تلتهب وتتحول الى شيء خطير، أرجوكَ...

نظر الخادم إليها بقلق وأرتبكَ قليلاً وهو يحاول أن يقرر ماذا يفعل، قال بعد برهة متلعثماً...

– حسناً، سأذهب معكِ ولكن سآخذهُ الى المستشفى كي لايعرف سيدي بالأمر وأن سألَ عمن طببهُ ننكر علاقتنا بالأمر...

– ولكنهُ سيعرف أننا ساعدناهُ أو ليس كذلك؟؟

– لا ليس بالضرورة، فذهابهُ الى المشفى يمكن أن يكون من قبل الشخص ذاته تعودين أنتِ بسرعة قبل أن يعلم والدكِ وأنكر أنا أية علاقة لي بالأمر

– حسناً إذاً لنذهب إليه هيا قبل أن يستيقظ والدي وذهب كلاهما نحو الكوخ ولما وصلا إليه هال الفتاة منظر الفتى وهو ملقى على الأرض بلا حراك هرعت إليه ورفعتهُ على مهل وصاحت برجل الأسطبل...

هلمّ إلي، ساعدني على حملهِ لنضعهُ في السيارة.. الوقتُ يمضي وأنا أخشى استيقاظ أبي في أية لحظة.. أنا أعلم أنهُ يتأخر في نومهِ، لكنني أخاف أن ينهض مبكراً اليوم على غير عادتهِ!!

لن ينهض إن شاء الله لا تقلقي هيا بنا لنحملهُ...

أخذت الفتاة ذراعهُ اليسرى ووضعتها خلف عنقها بينما أخذ رجل الأسطبل ذراعهُ اليمنى ليحملهُ نحو السيارة وهنالك جلس هو بجوار السائق بينما جلست الآنسة الصغيرة قرب الفتى

وكان لايزال في حالة إغماء، كانت أحد أسباب صعوبة نقلهِ من قبلهما من الكوخ حتى وسيلة النقل التي ستأخذهم الى المشفى، أخبر الخادم السائق بوجهتهم وناولهُ النقود بينما أسندتِ الفتاة رأس الفتى بين ذراعيها كي لايتعرض ظهرهُ للأذى بوضعهِ فوق المقعد أو إسناد ثقل جسمهِ عليه مع كل تلكَ الجروح.. أخذتِ الدموع تنهمرُ من عينيها بينما سارت السيارة بهم نحو المشفى، كانت تلكَ الدموع الحرى كفيلة بردّ وعي الفتى إليه وهي تتساقط فوق وجههِ.. رفع رأسهُ نحو الفتاة كانت تمسك بذراعيه بقوة خشية أن يسقط على ظهرهِ.. أنفاسها اللاهثةُ المتقطعةُ كانت ساخنةً رغم برودة الجو شعر بها فوق وجنتيه، حاول الكلام لكنهُ كانَ خائر القوى حاول النهوض ولكن بدون جدوى بقي بين ذراعيها يستمع الى تمتماتها الخائفة وهي تردد بهمس دون أن تعلم أنهُ قد أستردَ وعيهُ...

- أرجوكَ، لن أسامح نفسي أن حصلَ لكَ أي مكروهُ...

أرجوك،كن بخير، عد كما كنتَ وسأعدكَ أني لن أزعجكَ ولن آتي الى الأسطبل بعد هذا الحادث فبسببي قد جرى لكَ ماجرى أنا أسفة من كل قلبي، أنا أعتذر لكَ سامحني، سامحني، لن آتي أبداً حتى لو قتلني الملل ومتّ كمداً من الوحدة القاسية في تلك الدار المشؤومة التي لم أرى فيها أية سعادة.. لم أرى السعادة منذ تركنا منزلنا المتواضع القديم، أرجوكَ، عد لأجلي، لأجلي عد فليس هناك لي في هذا العالمِ أحد يفهمني أو يساعدني أو قد رافقني سواكَ، أرجوكَ، سامحني!! كادت أنفاسها اللاهثة تكوي جبين الفتى الذي خفق قلبهُ لأجلها للمرة الثانية بعد أن خفق المرة الأولى حينما ضمها تحت المطر بين ذراعيه خوفاً عليها وهي ترتعد من دوي الرعد...

وتدور الأيام

(الجزء الثالث)

قطعت الآنسة على نفسها عهداً أن لاتذهب الى الأسطبل مجدداً ووفت بذلكَ العهد ظلت حبيسة تلكَ الدار الواسعة لاتخرج أبداً منها فوالدها يخشى عليها ولا يرضى لها الخروج بمفردها الإ برفقة أحد مؤتمن وماكانَ يأتمن قبل تلكَ الحادثة أحداً سوى ذلكَ الفتى فلما حدثَ ما حدث، لم يعد يثقُ بأي شخص، وابتعد عن الفتى ولم يعد يقرّبهُ إليه لكنهُ لم يطردهُ أيضاً لعلمهِ أنهُ قد أنقذ أبنتهُ ولم يمسها بأي سوء رغم أنهُ خالفَ تعليمات سيدهِ ولأنهُ دوماً ماكانَ يذكرهُ بولدهِ الذي ماتَ في ظروف غامضة...

بقيت الصغيرة تأخذ دروسها في المنزل ولاتخرج الإ مع الخادمة لشراء ثيابها من الدار والى المحل ثم في السيارة عائدة الى القصر ولا شيء غير ذلكَ كم كانت تبكي نفسها ووالدتها في الليالي بمفردها وهي مستلقية فوق فراشها لم تكن مقربة الى أخيها ولاتذكر عنهُ سوى أنهُ كانَ مقرباً من والدها كثيراً إلا أنهُ أختلف معهُ قبل وفاتهِ.. وهجرها النوم من شدة الحزن والخوف من المجهول فوالدها لم يكن يكلمها إلا نادراً ليلقي تحايا الصباح والمساء مثلاً أو ليقول لها ماعليها وماليس عليها فعلهُ، كانا يلتقيان قليلاً جداً حتى عندَ الطعام لأنّ أباها ماكانَ ليمكث في الدار أبداً فأعمالهُ وتجارتهُ وعقاراتهُ ومشاريعهُ جميعاً كانت تتطلب منهُ الحضور المستمر خارج الدار وكم من المرات التي لاتحصى جلست الفتاة لوحدها تتناول طعامها وهي تشعر بأعين الخدم تراقبها بأمرٍ من والدها فلا تستطيع أن تحيد عن قوانينهِ الصارمة في مواعيد الطعام والنوم قيد أنملة، كما وأنها لم تكن تستطيع الخروج بوجود تلكَ الأعين حولها ولم تكن تستطيع مخالفة قانون والدها ولو لمرة واحدة...

مرت اربعة أعوام نشأت فيها الفتاة وترعرت على ذلك السياق حتى شعرت أنها في معزل

عن الحياة وعن العالم الخارجي وأنها لاتعرف كيف تتعامل مع الآخرين أو كيف تكلمهم أو لعلها بالأحرى نسيت كيف يتعامل الناس ويجاملون بعضهم بعضاً، خفف حدة وحدتها شيء واحد فحسب ألا وهو حبها للكتب والمطالعة التي أصبحت جزءاً منها أو بالأحرى عضواً جديداً من أعضائها لأنها بدون القراءة لم تكن لتستطيع المقاومة والحياة، لقد تحملت طيلة تلكَ الأعوام كل ذلكَ وتحملت الوحدة وعزلتها عن العالم الخارجي وكانت تلتمس الأعذار لوالدها في سرها، لابأس فهو يخاف علي لابد أن تعذريه فصدمتهُ بأخيكِ جعلتهُ يتصرف هكذا، لكن الشعرةَ التي قصمت ظهر البعير كانت إعلان والدها لها في أحد الأيام أنهُ قد وافق على خطبتها لأبن رجل الأعمال الغني الذي يعمل معهُ وانهُ قد دبر لهما لقاءاً في منزل والد الشاب في حفلٍ سيقيمهُ صديقهُ عما قريب...

أستمعتْ لتلاوةِ والدها وخطبتهِ العصماء وهو يحدثها عن ضرورة الزواج وأنها قد أصبحت في السادسة عشر وانها قد نضجت كفاية لتصبح مسؤولةً عن رعاية أسرة وتكوين أطفال وذكرها بزواجهِ من والدتها بعمر أصغر من عمرها، كانت تنظر إليه كأنها تنظر الى الفضاء، الى لاشيء، وكأنهُ غير موجود فقد أعتادت أن تجعل نفسها تستمع إليه والى خطاباتهِ المجلجلةِ دون أنْ تستمع فعلاً إليه، لكنها فجأة وبغريزة الفطرة لديها علمت أنها في خطر شديد هذه المرة وأن والدها سوف يسجنها مرة أخرى بطريقة ثانية أكثر إحكاماً هذه المرة.. لم تنم في تلك الليلة، كانت ترتدي ثوب نومها الرقيق الملمس الفضفاض والذي بالكاد يصل الى ركبتيها طولاً ويكشف من الأعلى عن رقبتها البلورية التي تلألأت مع ضوء البدر في تلكَ الليلة المقمرة.. هبطت من سريرها حافية القدمين تسللت بهدوء خارج الغرفة وسارت على أطراف أصابع قدميها حتى خرجت من الدار...

ذهبت وهي تحفو نحو الأسطبل لم تبال بتلكَ الجراح التي أصابت باطن قدميها الرقيقتين، وصلت إليه، كلمتهُ، إحتضنت رقبتهُ ومسدت بأناملها على شعرهِ..

– أيها الحصان الحبيبُ، يامهري الأصيل، جئتُ آخذكَ لتشهد معي وداعي الأخير لهذا العالم لقد سئمتُ الحياة حقاً لن أعود، لن أتردّد وسأكون شجاعة كذاكَ الفتى الذي رافقني دوماً ودافع عني وحماني أرجوكَ كن مطيعاً لهُ من بعدي وآنهمرتِ الدموع من عينيها وهي تقبّل رقبتهُ...

أُنظر رغم كل تلك السنين فأنتَ قد عرفتني ولم تفزع مني كم أنتَ وفي أيها الحيوان ليتني خلقت فرساً لأكون جواركَ..كم أكره كوني بشراً أوَ تدري...

نعم، نعم، لقد عرفت الآن وفي هذه اللحظات لماذا مات أخي الأكبر!! لم يدفعهُ أحد ولم يمت في حادث مجهول، فأنا الآن أفكر في أروعِ مكانٍ يمكنني أن أرمي نفسي منهُ.. تلك الحافة الجبلية الرائعة سوف يكون سقوطي مهولاً ولسوف تتهشم عظامي بقوة فوق الصخور قبل أن يجرفني التيار المائي أسفل النهر، إنّ المنظر من هناك رهيب جداً وإنهُ لرائع في آن هلم بنا ياعزيزي...

لنذهب، ساعدني في مهمتي الأخيرة هذه، هيا بنا...

رفعت ساقيها البلورتين ووضعتْ قدمها الحافية على سرج الحصان الذي وضعتهُ بيديها فوقهُ قبل لحظات.. آمتطتهُ بيسر فهي فارسة متمرسة رغم آعتزالها لسنوات.. ربتت على ظهرهِ بهدوء، فسار ببطء وخرج من الأسطبل دون أن يحدث ضجة.. سارت فوقهُ عبر الحقل الواسع حتى وصلت الجبل الذي أخذت تسير فوق ممراتهِ الضيقة بين الشجر والصخر حتى وصلت منحدر الوادي السحيق حيث يقع النهر أسفلهُ في منحدر مهول.. أستوقفت الحصان ورفعتْ قدمها لتنزل من فوقهِ.. تأملتِ القمر وهو في كمالهِ وتمتمتْ كلمات الوداع وأغمضت عينيها، كانت الريح الشديدة أعلى المنحدر تتلاعب بثوبها الفضفاض وشعرها الأسود الناعم فتذهب بهما يميناً ويساراً، شجعت نفسها وهي تتخيل أنها سوف تزف الى سجن آخر بآسم الزواج وأنّها ستعيش عمراً آخرَ من العذاب.. لا، لا، لا أريد!! وداعاً ياقمري الجميل، وداعاً يافتى الأسطبل، وداعاً ياحصاني، تركت جسدها للريح كي يهوي لكنّ يداً قويةً أمسكتْ يدها وشدتها بقوة رفعت رأسها كانت تتأرجح تحت الحافة الصخرية.. ظهر فجأة وجه مألوف من أعلى المنحدر، وجه قد ملئ رعباً وخوفاً عليها...

- هل جننتِ؟؟

لقد، لقد كنتُ نائماً في الأسطبل، غفوت فوق القش من شدة التعب.. سمعت كلماتكِ، تبعتكِ بسرعة، أنتِ مجنونة، لن أدعكِ تنهين حياتكِ أبداً!!

آه لقد فات الآوان دعني لن تستطيع أنقاذي هذه المرة...

أرجوكِ لاتفلتي يدي أرجوكِ تمسكي بي ياألهي أربع سنوات طوال لم تأتي ولو لمرة واحدة الى الأسطبل إلاّ الآن كي تنتحري!!

وداعاً أيها الفتى الرائع، أنتَ الأنسان الطيب الوحيد الذي عرفتهُ في هذه الدنيا.. أفلتتْ يدها فصرخ الفتى بجنون...

- آنستي... لااااااا

سقطت الى الوادي السحيق، لطمَ وجههُ وضرب جبينهُ وتلفت يميناً ويساراً كالمجنون.. لم يعد يعرف مسارهُ، أخذ الحصان وهبط به بسرعة أسفل المنحدر...

يارب أرحمها ولاتدعها تموت...

رباه رحمتكَ يارب..

كان يتضرع بصوت عال وهو يغذُّ السير بحصانها نحو أقرب نقطة يمكن أن يرى فيها جسد الفتاة طافياً فوق المياه إن حالفهُ الحظ..كان يبكي بجنون وهو يصرخ منادياً بآسمها.. نزلَ من فوق الحصان ما أن لاح لهُ شيء ما في المياه السريعة الهائجة نزعَ قميصهُ ورمى بنفسهِ في النهر وأخذ يكافح ضد التيار وهو لايدري هل سيموت أم سيعيش، إذ ملأت المياه فمهُ وهي تزيدُ وتفور بسرعة جريان النهر، ماأسعفهُ، هو قوة عضلات ذراعيه المتمرستين في قطع الأخشاب وذلك ماجعلهُ يقاوم ضد التيار، حتى وجدها فوق أحدى الصخور، كان حسن حظها إذ رمتها المياه على الصخرة قبل أن تنجرف أسفل الشلال.. أحاط الفتى بذراعهِ خصرها وحارب التيار وهو يجذف بأقصى مالديه من قوة بذراعهِ الأخرى وساقيه وكانت التيارات القوية تدفعهُ معها كل حين الى صخرة يرتطم بها بقوة لكنهُ لم ييأس حتى وصل بها ضفة النهر على اليابسة، كانت جثة هامدة أما هو فقد أخذَ يبصق المياه من فمهِ ويحاول أستنشاق الهواء بصعوبة وأسترداد قوتهِ.. لقد أصيب بإعياءٍ شديد لكن منظرها بجوارهِ لما ألتفت اليها وهي باردةٌ ساكنةٌ شاحبة الوجه كالموتى جعلهُ ينسى إعياءه، إرتمى نحوها يكلمها ويضرب وجهها بصفعات خفيفة وهو ينادي بأسمها لم تجبهُ...

أستجمع ماتبقى من قوة لهُ ونهض ليقوم بعمل تنفس أصطناعي لها في آخر أمل لهُ في حياتها وهو يبكي بجنون...

لاتموتي أرجوكِ لا، لاتموتي،كنتِ، أُمنّي نفسي برؤيتكِ، ولما رأيتكِ الليلة تفعلين هذا وتنهين حياتك!! لا، لن أسمح لكِ، لا، أرجوكِ عيشي لأجلي رحماكَ ياربي...

بقي على ذلكَ الحال أكثر من ثلث ساعة حتى أُنهكتْ قواهُ فارتمى على الأرض بقربها والدموع تسيل من عينيه أسفاً...

إلتفتَ نحوها، تأمّل جمالها حدثها بصوت مسموع...

كم أصبحتِ جميلةً مكتملة الأنوثة أيتها الآنسة الصغيرة، كم كبُرتِ!! جمالكِ هذا يسلبُ الألباب، لمَ أنهيتِ حياتكِ؟؟

هل يرضى الموت أن يأخذ هكذا نقاء وجمال!! لماذا، ليتني لم أنم، ليتني أستطعت أن أحول بينكِ وبين الموت...

آه، كم أنا أحمق!!

وبكى بألم شديد.. فجأة سمع شهقة كبيرة.. خرجتِ المياه من فمها وأخذت تشهق بصعوبة.. أمسكَ بها وقلبها على بطنها كي تستطيع إفراغ رئتيها من الماء، بعد فترة ليست بقليلة تنفست بشكل طبيعي وعاد الهواء الى رئتيها وفتحت عينيها لتنظر الى الفتى وهو ينظر اليها والدموع لم تجف في مقلتيه فجأة، صرختْ بصوتٍ مرعب وهي تحاول تحريك ساقها..كانت قد كسرت كسراً فظيعاً وكذلك ذراعها التي ما أن حركتها قليلاً حتى صرخت صرخة أخرى...

- لا، لا تتحركي، أرجوكِ سأعتني بكِ.. حمداً لله أنّ عمودكِ الفقري لم يتهشم.. رحماكَ يارب أنتِ محظوظة جداً لا أصدق، شكراً لك يارب، شكراً للسماء.. نظرت الفتاة إليه وهي تتألم حاولت الكلام، لكنهّا من شدة الألم غابت عن الوعي مجدداً...

وتدور الأيام

(الجزء الرابع)

عندما أستيقظت الفتاة وجدت نفسها في كوخ ذلكَ الشاب نظرت إليه وكانَ مولياً ظهرهُ لها يعد بعض الحساء.. وجدت نفسها فوق سريرهِ الخشبي كيف وصل بها الى هناكَ!؟ سرعان ماآنكشف الأمر لها لما دلفَ رجل الأسطبل الى الكوخ حاملاً بين يديه كيساً مع نقود ناولها للشاب الذي سألهُ عن الطبيب فأجاب بأنهُ أوصلهُ الى منزلهِ وعاد مسرعاً بعد أن زف بشرى نجاة الآنسةِ لسيدهِ فأكفهر وجهُ الفتى وبان الضيق الشديد على محياهُ.. تنبه فجأةً الى الفتاة وعلم أنها قد أفاقت،، نظر الأثنان إليها، هو وعامل الأسطبل..كانت ضعيفة جداً لاتقوى على الحركة أو الكلام.. حاولت بصعوبةٍ أن تسألهُ.. فقرب رأسهُ منها وحاول أن يفهم صوتها الضعيف بينما سألتهُ هي...

-كيف جئتَ بي الى هنا، كيف، ماذا حصل؟؟

وفجأة تذكرت ماجرى لها، فبكت بمرارة وقالت بوهن وعتاب للفتى...

لمَ أنقذتَ حياتي؟؟

لا أريد الحياة!! سيعود لأخذي الى سجني.. سأعود للحبس الأنفرادي...

-كلا، لن يأخذكِ أحدٌ من هنا، أنا من سيرعاكِ، لاتخافي ياآنستي، لن أتركك أبداً...

- ماالذي تقولهُ أيها المجنون؟؟

هتفَ عامل الأسطبل بسرعة ولم يبالِ لوجود الفتاة وأكملَ قائلاً...

- من الأسلم لكَ أن لاتعاند هذه المرة سيدكَ فعواقب هذا الأمر خطيرة ولربما تؤدي بكَ الى

التهلكة، أرجوكَ ياولدي كن عاقلاً ولاتتهور في آتخاذ القرارات على أساس المشاعر والعواطف لا العقل...

أنهُ على حق سأذهب مع والدي لما يأتي لأخذي...

قالت الفتاة بصعوبة وهي تحاول كتمان صرخات الألم الشديد بسبب كسر ساقها وذراعها، وما أن ذكرت أسم والدها حتى ظهر من خلف باب الكوخ.. كانَ فزعاً هلعاً لايعرف ماذا يفعل فما أن رأى أبنتهُ حتى جثا عند قدميها وقبّلَ يدها بحنو كبير وهو يبكي طالباً منها المغفرة...

لماذا ياصغيرتي تريدين أن تغادريني، لماذا؟؟

هل أنا سيء الى هذا الحد؟؟

هل أنتِ تكرهين الحياة معي الى هذه الدرجة؟؟

لماذا تحطمين قلب والدكِ مرة أخرى بعد أن تحطم بوفاة أخيكِ، هل تقبلين أن تحطمي قلبي هكذا، قال ذلك وهو يمرغ وجههُ بكفَّ ابنتهِ مبللاً إياه بالدموع...

لأنكَ أردت أن تحطم قلبي أيضاً مرتين...

قالت ذلكَ وثبتتْ نظراتها بنظراتهِ المندهشة وهو لايصدق ماسمع منها للتو...

ولسوف أستمر بذلكَ كن على يقين ياأبتِ لأنني لا أريد أن أسجن في قصركَ أكثر من هذا ولستُ راغبة في البقاء في دار أي شخص آخر لاتعرف عنهُ شيئاً سوى مقدار مايملكهُ في المصرف وعقاراتهُ وأملاكهُ، الموت عندي أفضل ألف مرة من مصير.. كهذا أرجوكَ لاأريد العودة الى قصركَ...

ولكن، لكن من سيرعاكِ هنا من سيحرص على نظافة ثيابكِ وإطعامكِ من سوف يجلب لكِ الطبيب حتى تتشافى كسوركِ...

إبنتي الحبيبة...

أرجوكِ، لاتتركي والدكِ الكهل بمفردهِ سأجنُّ حينها ارحمي مشيبي...

تأوهتْ الفتاة بألم فقد بذلتْ مجهود كبيراً كي تتكلم كل ذلك الكلام وما أن قال والدها جملتهُ الأخيرة حتى أغمضت عينيها وأشاحت بوجهها عنهُ والدموع تسيل من عينيها وقد رأى والدها ذلكَ فآلتفت نحو الشاب المنقذ وشعرَ أنهُ لايستطيع رفع ناظريه نحو عيني الشاب بعد معاملتهِ القاسية وإهمالهِ طيلة تلكَ السنين بعد أن قربهُ إليه...

هل يمكنني أن، أن أطلب منكَ رعاية ابنتي حتى تتحسن حالتها المزاجية قبل الجسدية لو كانَ بالأمكان ذلكَ وسأجزل لكَ العطاء...

سيدي، أنا كنتُ على أستعداد تام لخدمة آنستي دون طلبٍ منكَ ولا أريد مقابلاً لذلك جل ماأطلبهُ هو حضور خادمةٍ وقت أحتياجي تبديل ثيابها أو مساعدتها في أمور لايمكنني القيام بها وإلاّ لي كل الشرف بذلكَ أفعلهُ تطوعاً دون أمر منكَ بل لأجل آنستي فقط...

رفعَ الأب عينيه نحو الشاب وتبادلا نظرات التحدي والغيرةِ والبغضِ في آن معاً، لاحت منهُ التفاتة الى آبنتهِ فوجد عينيها معلقةً بالفتى، فأسقط مافي يديه وغادر الكوخ بعدَ أن وجه أمرهُ الى عامل الأسطبل...

- إن أحتاجت الآنسةُ أيَّ شيء عليكَ القدوم الى قصري وطلبهُ بنفسكَ وستجد طلباتكَ منفذةً على الفور...

أسرع بالخروج، وصفق الباب بغضب خلفهُ انتقاماً لأبوتِهِ المغدورة.. غادر العامل بعدهُ بمدة قصيرة، نظر الشاب الى الآنسة بحنو وقدم لها الحساء وهو يجلس على كرسيه الخشبي المتواضع الذي صنعهُ بيديه وبهدوء و روية أجلسها واضعاً وسائد خلف ظهرها وهو يرفع جذعها بيديه القويتين على مهل كي لا تتألم، نظرت إليه بأمتنان وهو يطعمها بيدهِ ويحنو عليها كطفلة صغيرة...

- شكراً لك...

تمتمت وعيناها تشعان سعادة وحباًبادلها نفس النظرات وأردف وهو يهمس كأنما يحدث نفسهُ...

حذار أن تكرري فعلتكِ تلكَ، لن أسامحكِ أبداً لو فعلتِ أتعلمين كم أنتِ أثيرة عندي، أتعلمينَ أني ماكنتُ لأسامح نفسي لو أنكِ متِ!!

أرجوكِ أن تتشافي لأجلي أنا، أو تفعلين؟؟

رفعت الآنسة عينيها السوداوين إليه لبرهة وأطرقت بسرعة خجلاً منهُ توردت وجنتاها...

بالطبع سأفعل!! سيكون هناك بصيص أملٍ في حياتي أعيش دون يأس معهُ.. سأتعافى بسرعة كي نذهب في جولات فوق حصانينا الى الحقول وخلف الغابة وفي أرجاء القرية.. سوف نعود كما كنا...

- نعم ياغاليتي...

سنعود آنستي الغالية والآن عليكِ أن تنفذي كل ماأقولهُ لكِ كي تسرعي في شفاء كسوركِ...

مرت الأيام سراعاً والفتى يرعى آنستهُ يطعمها ويقلبها فوق السرير بعناية لأن كسر ساقها كان يعيق حركتها.. يحملها عندما يلزم الأمر ويضعها فوق الكرسي المدولب الخاص بكسر ساقها كي يخرجها قليلاً الى خارج الكوخ حتى لاتمل رقادها يجلب لها الطبيب في الموعد المحدد (ولم يكن يرضى أن يدفع والدها نقود العلاج بل قام بآقتطاعها من أجور عمله عند سيده).. تعلق قلب الفتاة به أكثر فأكثر مع مرور الوقت ولقد كان والدها يزورها بين فترة وأخرى ليطمئن عليها ومعه خادمتها الخاصة تحمل ثيابها النظيفة وتأخذ المتسخة منها وظل الأمر كذلك حتى أنصرمت أربعة أشهر خرجت الفتاة تتنفس الصعداء خارج الكوخ.. كانت قد تعافت وأستطاعتْ السير على قدميها من جديد، كانت سعيدة بسيرها مرة أخرى فبقاؤها لليلة واحدة أخرى شبه مستحيل مع ذلك الشاب مادامت قادرة على السير...

نظرت الى الحقول المترامية الأطراف وهي تقف أمام الكوخ على حافة تلك القمة الصخرية المطلة على الوادي حيث الحقول ومنزل والدها.. تنهدت بألم لن يأتي الشاب قبل الظهيرة فهي تعرف أوقات عملهِ وقدْ حفظتها عن ظهر غيب طيلة مكوثها في رعايتهِ لاحت منها التفاتة نحو الغابة البعيدة في الجهة الأخرى من الكوخ سمعت صوت فرس قرب الكوخ ألتفتت حولهُ

فوجدتهُ فرس الشاب وقد ربط خلفهُ.. كان وجودهُ مغرياً لها تحركت ساقاها دون أن تفكر، إتبعت حواسها أمسكت بلجامهِ وقربتهُ منها وهي تربت على ظهرهِ بهدوء وتحدثهُ وبسرعة وجدت نفسها فوقهُ وهي تعذ السير نحو الغابة، كان هناك نداء في قرارتها يقول لها أن تعود أدراجها إلا أن قلبها كان ينقبض بقوة ما أن تتذكر عودتها الى سجنها مجدداً لم تكن مستعدة للعودة مطلقاً نفضت كل فكرة متشائمة من رأسها ولكزت الفرس كي تعدو بها نحو الغابة البعيدة بسرعة قبل أن تحل الظهيرة ويرجع الفتى...

عادت بها الذكريات الى تلكَ الحادثة التي وقعت قبل ست سنوات ما أن وطأت أرض الغابة.. أرادت أستعادة تلك الذكرى قبل عودتها الى والدها.. سارت دون هوادة حتى وصلت الكهف.. الذي التجأت إليه مع الفتى هرباً من تلكَ العاصفة، دلفت الى الكهف.. كانت هنالكَ أصوات بشرية فزعت وتراجعت القهقري لكن بعدَ فوات الأوان فقد أمسكت يد قوية بها، نظرت الى ماحولها فوجدت مجموعة من الرجال الأشداء يجلسون فوق الأرض وهم يتناولون طعام الغداء رفع الرجال رؤوسهم نحوها وصرخ أحدهم يجب أن لا يعرف أحد بمكان تجمعنا هذا أمسكوا بها، أستطاع أول رجل ثني ذراعيها الى الخلف ولفهما بحبل غليظ ثم رمى بها الى أرضية الكهف حيث كانَ البقية جالسين، ألتفتَ الجميع الى الفتاة وصاح أحدهم...

- أنها هي، نعم نعم، أنها الجائزة التي كنا نمني أنفسنا بها، إبنةُ ذاكَ الثري وقد جاءت بقدميها إلينا، إذاً سنخطتفها الآن، إجلبوا لنا الشريط لنضعهُ على فمها، أخذت الفتاة تصرخ عندما أسرع رجل بتكميم فمها بشريط لاصق وحيث قام آخر بشد يديها الى كرسي أجلسها عليه، بينما صرّح ثالث وهو يمسك ذقنها ويرفع وجهها نحوهُ يالها من مكافأة ويا لها من جائزةٍ عظيمةٍ سوف يدفع ذلك العجوز الكثير كي نرجعها إليه.. أنظروا لجمالها، ستكون رهينة ممتعة هذه المرة ماتقولون يارجال؟؟

كم أنتِ جميلة ياآنستي وطرية!!

- ضع يدكَ القذرة قبل أن أقطعها لكَ بمنجلي، صاحَ صوت مألوف للفتاة جداً صوت قد قطعَ عهداً لها قبل أن تستطيع العودة للمشي على ساقها المكسورة بليلة واحدة على الأخلاص

الأبدي والحب النقي الطاهر فعندما أجلسها آخر مرة على سريرهِ وبدأ يطعمها (رغم أنها قد تحسنت وكانت قادرة على إطعام نفسها) إلا أنهُ كان يأبى إلا أن يقوم بذلك بنفسهِ، نظر إليها ملياً، بادلتهُ تلك النظرات...

- هل، هل، همس بشوق وحنان...

- ماذا قل...

- هل تقبلين بشاب مثلي فقير الحال ليس لهُ من حطام الدنيا سوى هذا الكوخ وفرس أصيلة كي يكون لكِ زوجاً؟؟

إحمرت وجنتاها واطرقت خجلاً، لكن قلبها كاد يخرج من بين أضلاعها طرباً وفرحاً

- نعم، بكل تأكيد...

تمتمت بصوت خفيض، فأمسك بيديها وقبلهما بسعادة ورفع عينيه اللوزتين نحوها...

- هل أنتِ متأكدة من هذا، حبيبتي، أنا، أنا أحبكِ...

أحمر وجهها وتمنتْ أن تدفن رأسها خجلاً...

- نعم، نعم...

- قولي لي هل تحبينني؟؟

رفعت عينيها الخجولتين نحوهُ.. أطرقت بسرعة تمتم وهو يقبل يديها بشغف...

- أحبكِ.. أحبكِ.. أحبكِ.. أحبكِ...

سنذهب غداً لنعقد قراننا أنا وإياكِ أنتظريني هنا عند الظهيرة سأعود بعد موعد الغداء لأنّ عندي أعمالاً يجب علي أنجازها، ستكونين زوجتي رغماً عن أبيكِ هل توافقين حبيبتي؟؟

- نعم، أوافق، أوافق...

سنلتقي في كل فرصة ممكنة.. حبنا لن ينطفئ أعلم أنكِ أحببتيني منذ المرة الأولى في تلك الغابة أو ليس كذلك؟؟

– نعم، همست بخجل...

– وكذلك أنا...

– رحماكَ ياألهي كم تعذبتُ لأجل حبّكِ، إنتظرتُكِ كثيراً لن أفرط فيكِ أبداً...

عادت تلك الكلمات كشريط سينمائي سريعاً في ذاكرة الفتاة ولم تصدق عينيها وهي ترى فتاها نفسهُ ينقض بمنجل يمسكهُ بيدهِ فوق رقبةِ ذلك الرجل الذي أمسك ذقنها وقد سدد لهُ ضربة ألصقتهُ بجدار الكهف...

ماالذي يحدث يااافتى الأسطبل؟؟

صاحَ رجل آخر كانَ كما يبدو رئيس تلكَ العصابة، كان رجلاً كثيف الشاربين عريض المنكبين ضخم الجثة...

لاشيء يذكر، هتف الشاب...

أحتج رئيس العصابة عليه...

أو لم تكن تلك خطتك التي أتفقتَ عليها معنا، أو لم نتفق على هذا الموعد كي نأتي هنا ونهجم ليلاً أو نهاراً حسب أشارتكَ، فنخطف ابنة ذلك الثري المتعجرف، تبادلَ الشاب النظرات مع الفتاة التي لم تصدق ماتسمعهُ أو تراهُ كانت تنظرهُ بغضب وعتاب وذعر بينما كانَ ينظرها بحب وشفقة وندم...

لقد تغيرت خطتي كثيراً منذ زمن بعيد ولم تأتوا قبل موعدنا هذا كي نتفق أرسلت لكم اليوم كي أعدل على الخطة ولم أعلم أنها سوف تأتي...

قال جملتهُ الأخيرة وهو ينظر بألم نحو الفتاة...

إياكم ومسّها بأي سوء أتفهمون، سأقطع يدي من يلمسها وسأحرص على أقتلاع عينيه.. إذاً خطتك ستسير كما أردت...

نظر بألم نحو الفتاة وهو يشد على قبضتهِ...

– نعم، سوف تستمر...

- نظرت الفتاة إليه غير مصدقة ماتسمعهُ أو تراهُ، دعونا وحدنا أنا وإياها...

صرخ فجأة بهستيريا، فأسرعَ الرجال بالنهوض، وكأنهم يخشونهُ غاية الخشية وخرجوا جميعاً وكانوا قرابة خمسة رجال.. جثا الشاب قرب كرسي الفتاة وأبعد الشريط اللاصق عن شفتيها برفق...

- حبيبتي لا تخافي أنا أعتذر منكِ سأفك قيدكِ.. إرجعي الى والدكِ لقد ألغيتُ كل شيء...

- ماذا يحدث؟؟

كانت الدموع تنهمر من عينيها...

- أو كانَ كل ذلك تمثيلاً، أوَ كلُّ ذلك لأجل النقود وأنا التي ظننتكَ مختلفاً وأحببتكَ من كل قلبي...

يالني من حمقاء!!

قربَ الشابُّ وجَههُ منها وأمسكَ وجهها بأناملهِ بغضبٍ ولكنهُ لم يستطع إلا أن يرخي قبضتهُ على وجنتيها...

أنا أحببتكِ صدقاً ولم أكذب عليكِ مطلقاً أقسم بشرف والدتي التي لولاها لما جئت هنا، أنا أحبكِ أكثر من نفسي، ربما، ربما فكرتُ في البداية لما كنتِ صغيرة أن أختطفكِ وكنتُ أخطّط هنا مع هولاء الأصدقاء أن أفعل شيئاً سيئاً بكِ، ربما فكرتُ كثيراً أعترف لكِ لكنَّ قلبي خفق لكِ منذ تلك الليلة التي أرتميتِ بها فوق صدري تحت المطر ولما حملتني وذهبتِ بي الى المشفى وأنتِ تبكين عليَّ أتذكرين!! أنا لن أؤذيكِ أبداً، سأوذي نفسي ولن أؤذيكِ.. أحببتكِ وأحبكِ أوَ لمْ نتعاهد بالأمس أو لم نكن على وشكَ الزواج...

هل!! آه، يالحظي الأحمق كُنا على وشكَ الزواج ماالذي جاءَ بكِ الى هنا؟!

حمقاء، حمقاء، لكنني أحبكِ أيتها الساذجة النقية الغرة أحبكِ أكثر من حياتي!!

كانت تنظرُ إليه بذعر وشك شديدين وهي تبكي.. مسح دموعها بأناملهِ...

أوَ كلَّ ذلكَ ماخططتَ لهُ من قبلُ وأَردتَ الغاءهُ اليوم حسب كلامكَ قبل مجيئي، كلُّ ذلكَ

لأجل المال؟؟

- ماذا!!

قربَ الشاب وجههُ منها حتى كادت أنفاسهُ اللاهثة تحرق وجنتيها وشفتيها الورديتين...

أنا أحببتكِ صدقاً كما قلتُ لكِ ومن المستحيل لمحبَّ أن يؤذي محبوبتهُ لأجل نقود العالم كلهِ، أنتِ أجملُ مخلوقةٍ رأيتها في نظري وأرقُّ وأنقى أنسانةٍ في هذه الدنيا، أنا فعلت مافعلتهُ ثأراً.. أردت الثأر لتلكَ المسكينةِ التي ماتت كمداً وحزناً.. ماتتْ بسببِ ما فعلهُ أخوها البكر بها إذ سلبها كل أموالها التي ورثتها من جدي وجعلها تخسر نقودها وأوقع والدي في ديون كثيرة وبسبب ذلك أصيب والدي بسكتة قلبية مات على أثرها سريعاً أما والدتي فقد ظلت طريحة الفراش.. كنتُ أرعاها وأنا طفل صغير.. وأبكي حالها.. أخرجونا من منزلنا وشردونا في الشوارع.. عطف علينا أحدُ الجيران فأسكنونا في سقيفة يتساقط المطر من سقفها فوق رأس أمي في الشتاء.. عشتُ أتعس أيام حياتي في طفولتي وأنا أرى أمي تذبلُ بسبب ذلكَ الأخ الغالي، الذي وثقتْ به وسلمّتهُ أموالها كي يستثمرها لها في تجارتهِ المزعومة بترغيبٍ منهُ طبعاً فأذا به يوقعها في ديون طائلة ويتحايل عليها بأخذ كل نصيبها في تركة والدها، ماتت أمي دون أن يشيعها أحدٌ أو يعرفها أحدٌ.. لمْ أكنْ أملكُ نقودَ دفنها.. أنا لم أكن أمتلك قوتَ لقمةٍ آكلها مع والدتي، أو لاتفهمين كم كرهتهُ.. أوَ لمْ تعلمي لم ظنني أبنهُ.. لأنني أشبههُ كثيراً.. وكيف لا وأنا أبن عمتكِ، وهو خالي البكر الرشيد؟!

كانت عينا الشاب تقدحان شرراً، بينما أتسعت حدقتا عيني الفتاة ذعراً ورعباً.. تركَ وجهها وإبتعد عنها بعد خطبتهِ الطويلة تلك وألتفتَ نحو منجلهِ فأسرع بالتقافهِ وأقتربَ من الفتاةِ ينظر إليها بألم وحزن وهي تبادلهُ نظرات الذعر والخوف، أحاطها بذراعيه وهي فوق الكرسي جالسة عندما شعرت بذلك المنجل يفك رباط يديها المكبلتين من الخلف الى الكرسي، نظر إليها بحب وهمس لها قبل أن يرفع رأسهُ ويتركها، أنتِ حرة ياأبنة خالي، من المستحيل أن أوذيكِ قيد أُنملة، ولتعلمي أني قائم على عهدي، وسأظل أحبّكِ الى الأبد.. خرج من الكهف نظر الى فرسهِ.. تنهدّ بألم.. فجأةً سمع صوتها وهي تناديه إلتفتَ إليها نظر إليها مذعوراً...

ماذا تفعلين؟؟

كانت قد مدت يديها نحوهُ وقد شدت على قبضتيها.. نظرتْ إليه بحب وألم في آن معاً.. كبّلني الآن يا ابن عمتي.. ستسير خطتكَ كما أردت لها أن تكون.. أنا أثق بكَ أكثر من نفسي وقبل أن أعرفكَ.. لم تكن لي حياة ولا أظن أنني سأحيا بدونكَ...

كبلني ولنلعب هذا الدور.. سأساعدكَ لكن تذكر أنّهُ والدي مهما كان الأمر فلا تقسوا عليه ولا تؤْذه.. دعهُ يعطيكم الفدية ثم أطلقوني إليه...

- حبيبتي، أو تفعلين كل هذا لأجلي (أدمعت عيناهُ تأثراً) ضمها بقوة إليه كلا، لن أفعل ذلكَ سوف أخذكِ ونرحل من هنا، هل أنتِ موافقة؟ ماقولكِ ياأبنة خالي؟؟

رفعت رأسها من فوق صدرهِ والدموع لاتزال لم تجف فوق وجنتيها.. هتفتْ بصوت تشوبه السعادة ونشوة الأنتصار وهي تنظر إليه بحب يسع العالم كلهُ...

طبعاً، سأفعل.. سأتبعكَ الى نهاية الدنيا، سأفعل بكل تأكيد...

وماذا عن ثروة أبيكِ وقصرهِ أو لاتريدين منها شيئاً؟؟

- أو تمزح معي؟؟

كلا، كلا، أنا أكره ذلك القصر كنتُ أشعر أني أختنق دوماً فيه رغم وسعهُ ولست راغبةً بنقودٍ قد جاءت من ظلم أقرب الأقربين، دعنا نبدأ حياتنا بنقاء بنقود حلال ونربي أطفالنا على الحب والوفاء...

هلمي إذاً ولنرحل بعيداً ياحبيبتي...

نظرا الى بعضهما البعض وهو يرفعها بذراعيه فوق فرسهِ ويجلسُ خلفها، نظرا نظرة أخيرة لتلك الحقول الواسعة وذلك القصر العتيق، إلتفتتْ الفتاة نحو فتاها باسمة الثغر فأحاط خصرها بذراعهِ بينما أمسك اللجّام بيدهِ الأخرى، وآبتسم لها وهو ينظر إليها بسعادة لكز الفرس فأنطلقت بهما بعيداً...

الى أبنتي

أَحكيلكِ يابنيتي حكايتي..»»

قد ترين فيها الغرابة، قد ترين أني ربما أهذي ولكن ذلكَ ماجرى، ولدتُ بين ذراعي شجرة صغيرة ووجدتني في غابة كبيرة مليئة بالشجر وكانت الأشجار تحكي كالبشر لا لا تذهلي ولا ترفضي تصديقي فلقد كنتُ أرقص تحت القمر والأشجار تنظرني وتردد بعدي محركة أغصانها أنشودة جميلة ساحرة، وعشتُ هناكَ وترعرعت بمفردي كانت الأغصان ملتحفي والحشائش مضجعي والطيور صديقاتي والهواء مع الريح أصحابي، وكنتُ لما تمطر الدنيا تغطيني وريقات الشجر ومطعمي كانت النباتات والثمر ومشربي ماء النهر.. لربما تهزئين بي لكني أحكيكِ عن نفسي كلاماً هو أجمل من كل لوحات الدهر...

وكبرتُ بين أحضان الطبيعة لايكلمني بشر ولا أعرف من أكون وليس لي أسم ولا عنوان ولا دين ولا أعرف غيرَ أصواتِ الكائنات كلاماً، وكلامي لم يكن غير همهمة أو صوتاً مبهماً فلم أعرف أنذاكَ أن هناكَ كلاماً غيرهُ...

أما عن ثيابي فقد كانت من أوراق الأشجار الكبيرة لا أدري لمَ كنتُ أصنعها وألفُّ بها نفسي، لكنني كنتُ أتصرف كما تريد نفسي دون قيد أو أسر، لم تكن في غابتي وحوش كاسرة لكنني تعلمت الدفاع عن نفسي بالتسلق أو الأختباء في الجحور وكذاك كنتُ أرمي بالحجر، مرت الأيام والسنوات مبهمة فقد كنتُ لاأدرك الوقت ولا أعرف الأيام ولذا أقول ليس في يوم من الأيام أنما في أحدى الأمسيات الجميلة، وكانَ القمر في تمامهِ وكنتُ أتوسد العشب تحت شجرتي الأم إذ سمعت صوتاً غريباً وفجأةً دنا مني مخلوق عجيب لم أرى لهُ مثيلاً من قبل...

وناداني فقمت بخوف اتسلق جذع الشجرة وراقبتهُ من فوق وهو ينادي بكلام مبهم

لاأعرف لهُ تفسيراً عندما لاح شعاع الشمس في الأفق البعيد وجدت نفسي في جحر من جحوري التي أختبئ فيها عند الخطر.. خرجت من جحري بسرعة، ومشيت نحو شجرتي التي كنت نائمة تحتها لما برز لي ذلك الكائن الغريب وتلفت فأذا بي القاهُ وجها لوجه..كان أطول مني وعيناهُ واسعتان لونهما كالعشب...

إبتسمَ لي تكلم بكلام لم أفهمهُ لكنهُ سرعان ما مد يدهُ إلي فأمسكت بها ولشدة دهشتي كانت تلكَ هي المرة الأولى التي أرى فيها يداً كيدي، أخذني الى قصر جميل وألبسني ثياباً زاهية الألوان وجعلني أنظر صورتي للمرة الأولى في المرآة وأجلسني الى جنبهِ وهو يكلمني كلاماً لاأفهمهُ لكن نظراتهُ تأسرني ولم أكن أعرف أنها نظرات الحنان والحب وبدأ يعلمني كيف أحكي، كيف أنطق مثلما طفل صغير ويريني الأشياء وأنا أتابع شفتيه كيف تتحركان وصوت الكلمات كيف تنطق، وكانت هناك كائنات تشبهني تدخل غرفتي بين الحين والأخر تقدم الطعام لي وتنظف وتغير لي ثيابي، وكانت تلك الكائنات تحكي كلمات بدأت أفهمها رويداً رويداً لكنني فهمتُ نظرات ذاك الكائن أكثر من كل الكلمات...

ولما بدأت النطق عرفتُ كيف أتكلم مثل بقية تلك المخلوقات الشبيهة بي دلف مخلوقي الغرفة وأنا أسرح شعري الذي لم أعرف شكاهُ من قبل أمام المرآة، تقدم نحوي ومد يدهُ إليّ وأمسك يدي ورفعها نحو شفتيه أتقبلين الزواج مني؟؟

قالها لي ونظرَ إليَّ بتلكَ النظرات الآسرة لا أدري لماذا خرجت من عيني أشياء كقطرات المطر ونزلت على وجنتي أبعد تلكَ القطرات بأناملهِ ولأوّل مرة منذ قابلتهُ ضمني بين ذراعيه وتزوجتهُ...

كانَ أباكِ، أجل لكنكِ تتعجبين أذا كانَ وصفِ لأبيكِ بهذا الشكل فلا بد أنهُ ثري جداً وكانَ لابد لكِ أن تعيشي في قصر من القصور...

صه، دعيني أكمل قصتي لكِ ياحبيبتي فلقد عشتُ أحلى الصباحات والليالي معكِ أنتِ وأبيكِ، لكن مجيئها عكر صفوا أحلامي وأبعد بسمتي عني.. رأيتها وهي قادمة وعرفت أن

مجيئها سيحزن قلبي عرفت منهُ أنها إبنةُ عمَّهِ، وكان والدهُ يعيش معنا لكنَّ وجههُ كان عبوساً مقطباً الإ يوم جاءت إبنةُ أخيهِ، أجلسها بجنبِهِ وكلمّها بصوتٍ يفيضُ حناناً ولاحت مني آلتفاتةٌ إليه وإبنة أخيه فوجدتهما يرمقانني بنظرات كلهُّا بغض وكره وليس فيها شيء من نظرات أبيكِ بل على النقيض منها...

وماهمني ذلكَ وماهمني يوماً كلام تلكَ المخلوقات التي تسمى خادمات وهنَّ يتكلمن عني ساخرات، عن أنني إبنةُ المجهول، إبنةُ عارٍ، إبنةٌ كانَ لابد أن تموت فكتبت الحياة لها الأقدار، عن أنني لقيطة وماكنت أعرف معنى تلكَ الكلمة يا إبنتي حينها.. عن أنني جئت لبيت أبيكِ الواسع الشبيه بالقصر إن لم يكن قصراً...

أقول عن أني جئت إليه شبه عارية فكساني سيدهم ولم أكن أعرف معنى للكلام لاأقول أنني لم أكن هكذا، لا ولم أدافع عن نفسي أمام أحد ولن أدافع لأنني ربما فعلاً فيَّ كل تلك الصفات، ولكن ماآلمني، لماذا عيروني بها؟؟

لماذا أصبحتْ صفاتٌ ليس لي يد فيها لصقاً لكياني ولشخصي؟؟

وماهمني كلَّ ذلكَ اللغط ولاتعيير إبنة عّمِهِ لي كوني لا أعرف كيف آكل بالشوكة والسكين ولا أعرف كيف أقابل ضيوفهُ، وكنت أستشعر الحزن في عينيه وكان ذلك مايؤلمني حقاً فلأجلهِ علمّت نفسي ولأجلهِ أردتُ التعلم.. ودخلت في منافسة مع إبنة عّمِهِ كانت تضعني فيها عمداً فأخسر كل حين وأشعر حينها أني لم أعد كما كنتُ، وأني قد خسرت جزءاً من نفسي حتى نهضت ذات صباح أنظر نفسي في المرآة كلمتها...

من أنتي؟؟

فتاهَ عليها الجواب، وبكيتُ حينها من كل قلبي وروحي التي أضعتها بين أغصان أشجار غابتي والرياحين، وجاءت زوجة عمّهِ مع عمهِ ذات يوم ليزورا أباهُ وفهمت وأنا أصعد السلم الى غرفتي أنهما أرسلا أبنتهما لتعتني بوالد زوجي بناءاً على طلب شخصّيٍ منهُ وأخذوا يتهامسون.. بعدها صعدتُ الى غرفتي وجلست فوق سريري أو بالأحرى سرير أبيكِ وأغرقت وسادتي

بالدموع بدأت أشعر أن أباكِ أخذ يبتعد عني رويداً رويداً وكلما كنتُ أنهض في الليل أجدهُ غير موجود بقربي حتى نهضت في أحدى الليالي لأبحث عنهُ...

آه، ياآبنتي.. لقد شعرت بروحي تزهق وتفارق جسدي وياليتها فعلتْ لتُريَ أباكِ مقدار فعلتهِ الشنيعةِ بي.. كان جالساً بقربها ويداهُ تضمانها إليه وهي تتمايل كغصن شجرة هزتها نسمات الريح وكان يكلمها بكلام لحنهُ يشبه لحناً أسمعني أياهُ قبل سنين...

نظرتُ إليه فرفع عينيه إلي وأنا أقف أمامهما فانتفض وحاول الكلام لكنّي لم أبكي أمامهُ ومشيت بهدوء عائدةً الى غرفتي وأنا أسمعها تقول لهُ اتركها فهي لاتعلم مامعنى مانفعلهُ ومن أين لها أن تدرك هذه المتوحشة.. تركتهما وأتيت إليك، حملتكِ بقماطكِ ولم آخذ معي أيَّ ثوبٍ لكِ ونزعتُ ثوبهُ وتلفعت بعباءة سوداء لإحدى الخادمات وسرتُ بكِ في جنح الليل دون كلام و روحي مؤمنةٌ أنّني لن يحدث لي شيء أكثر مما حصل، فلو مزقني الوحوش معكِ في الفَلا وقطعّتني وأياكِ أرباً أرباً لكان ذلكَ عندي في تلكَ الساعة أكثر رأفةً بكثير مما جرى لي، وكلما أقتربتُ بكِ من الغابة مع أولّ أشراقة الشمس كلما كنتُ أشعر أن روحي تعود لي وأنني عدتُ لحريتي ولنفسي، وإذا سألتني: أماهُ لماذا أخذتني معكِ أقول لكِ أنني ماكنتُ لأترك روحكِ تموت هنالك ياابنتي...

وبنيتُ لكِ بيتاً قطّعتُ أخشابهُ بيدي وكنتُ أمضي للمدينة أعمل خادمةً في البيوت وأعودُ إليكِ بالطعام وماكنتُ أخاف عليكِ من كائنات الغابة ياابنتي وها أنتِ أم رائعة الآن وهاهي حفيدتي تزورني في بيتكِ الذي بنيتهُ لكِ وعشتِ معي ومع العشب والشجر والريح كما عشتُ أنا...

أليس كذلك ياحفيدتي ما سؤالكِ ياحبيبتي ؟؟

جدتي، جدتي

هل هذه القصة حقيقية؟؟

نظرتُ إليها وتبادلت النظرات السعيدة أنا وابنتي وعينانا تغمرهما الدموع وقلت لها:

كلا ياحبيبتي أنها من محض الخيال...

حكايتي باختصار

سرتُ فوق العشب في ليلتي تلكَ لما ضربتني دونَ سبب ووجدت دموعي تنهمر وأنا أرفع رأسي للسماء وأحتسب.. تركتني أمي، تركتني وأنا في عمر الزهور لأجلِهِ ذلكَ الخائن الذي دلفَ الى بيت أبي دونما خجل.. كانت أمي تضيفهُ لأجل أبي وتحسن ضيافتهُ كنا في سعادة قبل أن يدخل ذلكَ الضيف الثقيل حياتنا وآن كنتُ أسمع أمي وأبي يتشاجران كثيراً قبلها فأدخل غرفتي وأبكي بمفردي وأتألم، كانت لي أختان وأخوان وأنا أتوسط تلك المجموعة.. لكن أمي لم تعد تتشاجر مع أبي لما دخلَ ذلكَ الصديق حياتنا وبدأت زياراتهُ تكثر وأَخذت أمي تعتني بنفسها قُبيل قدومهِ كما كنتُ الاحظ.. كان يعمل مع أبي، جاء مهجَّراً من إحدى محافظات الجنوب، وكانَ أبي يحبهُ كثيراً لأنهُ صديق طفولتهِ قبل أن يستقر في محافظة أُمي الوسطى ويتزوجها ولكن ماذا جرى.. لن أطيل، لأنَّ قلبي يدمي وتنفتح الجراح.. أقنعها بترك أبي وبتركنا لأجلهِ، ففعلتْ.. لا أستطيع ولم أستطع أن أفهم كيف ولمَ هكذا فعلتْ، لكني كنتُ أبكيها كل ليلة، لم يطل أبي الوقت قبل أن يجلب زوجة جديدة ومعها أبنها الصغير.. أرملةٌ ليس لها معيل وجدتْ في أبي كل طموح تريد وأقصى ماتبغيه.. أما أنا فكانت الدموع والآلام حصتي مع أخويّ وأختي اللتين تصغرانني سناً واللتّين طالما شعرتُ بالمسؤولية تجاهما بعد رحيل أمي.. أمسكتني في إحدى المرات زوجة أبي قبل خروجي إلى المدرسة ولأني أوقعت كوب الشاي على سجاد أرضية المطبخ.. أمسكتني لتهزني بقوة بيديها وتخربش بأظافرها وجنتيَّ، وذهبتُ الى المدرسة وأنا لا أستطيع البوحَ بشيء ولما سألتني الطالبات عن تلكَ الآثار على وجنتي قلتُ لهنَّ أنها من فعل قطةٍ حاولتُ إمساكها.. كانَ البيت بالنسبةِ لي جحيماً، وكانت مدرستي متنفّسي.. أحببتُ دروسي فأحبتني، ورغم أنَّ زوجة أبي كانت تجعلني اقوم بأغلب أعمال المنزل إلا أنيّ لم أترك دروسي، وكانت كلمات المدرِّسة وهي تشجعني خير معين لي وحافز، فكنتُ أسهر الليل حتى أكمل تحاضير دروسي إذ أجد في كتبي متنفساً عن صراخها عن معاملتها السيئة لي عن ساعات عملي في البيت وأنا أغسل

الصحون وأقوم بكي ثياب أبي وأكنس وأمسح بينما هي تقوم بالتذمر من عملي، وإهانتي في أي فرصةٍ سانحةٍ وكان السلم مكان دراستي، إذ لم يكن لي مكانٌ لأدرسَ وماكان هناك أحدٌ يبالي إن نجحتُ أو رسبت.. بل كانت هي تتمنى أن أرسبَ كي تجعلَ أبي يجبرني على ترك الدراسة، كنتُ أدرسُ فوق درجةِ السلم الأخيرة كي أكون بمنأى عن مشاكل أبي مع زوجتهِ وصراخها عليه وهو يبدو أمامها بدون حولٍ ولا قوةٍ يهينها أحياناً ويسبها أخرى وأحياناً تقوم هي بالصراخ عليه وهو لايحرك ساكناً، أما أخوتي الكبيران فقد تركا المدرسة ولم يستطيعا أن يكملا في ظلِّ تلكَ الظروف (وآنخرَطَ) أحدهما في الخدمة العسكرية أما الثاني فقد تركَ البيت دون رجعة وكنتُ أبكيه وأنا فوق وسادتي مستذكرةً كيف قامت زوجة أبي بطردهِ بمكائدها وبلسانها إذ لم تكن تطيقهُ، لأَنَهُ كان يدافعُ عني دائما.. وأستطاعت بمكرها أن تقنع أبي أنَّ وجود أخي الثاني سبب هلاك البيت ودمارهِ ولقد قامتْ في إحدى المرات، في ليلة من الليالي بسكب النفط فوق وجههِ وهو نائم لأنهُ سكبَ النفط على عيني أبنها الصغير في صباح ذلك اليوم دون قصدٍ ظناً منهُ أنه ماء، وهما يلعبان في ممر المنزل الخارجي المؤدي الى الحديقة.. لن أنسى تلك الليلة ماحييت لقد قام أنتقاماً منها بحرق الشجرة التي بجوار غرفتها، وجاء الجيران في الليل ليخمدوا النار وكانت فعلتهُ تلك كفيلة بتأجيج أبي ضدَّهُ من قَبلِها.. لمْ أسمع عن أخي الثاني بعدها، إلا أَنهُ (انخرَطَ) في سلك طلاب الحوزة العلمية وفي زماننا ذاك كان معنى هذا، أنهُ حكم على نفسهِ بالموت، لأن أيَّ تقريرٍ بسيط عنهُ من أي شخص بأنهُ شابٌ متدين فقط لاغير كان كفيلاً أن يؤدي به إلى غياهب السجون.. لا أحد يعرف من أين ومتى الخلاص منها إن كانَ هناك خلاص ولا أزال لاأنسى مدى الرعب الذي عشتهُ في لحظات حياتي تلكَ، وأنا افكر في أخي، خاصةً بعدَ أن شاعَ خبر محاولتِهِ الهروب من البلاد عبر الحدود الفاصلةِ مع أيران ولم نعرف مامصيرهُ إذ ذاكَ حياً أم ميتاً.. لطالما تحدثتُ مع ربي أن يحفظَهُ أينما كان.. كلُّ ما مرَّ علي، كُلُّ معاناتي تلك لما أستذكرها أفكر مع نفسي كيف احتملتُ، فلو أنَّ الجبال وضَعَتْ همومي والآمي تلكَ فوقها، لكانت قاعاً صفصفاً، لاأدري متى وكيف، لكنَّ صوتاً داخلياً ناداني أم لعلَّهُ نداءٌ سماوي ذاتَ ليلةٍ وأنا أرتجف برداً وقد أصبت بنزلة برد ثقيلةٍ.. كنتُ أنظر الى سقف العلية التي عزلتني زوجة أبي فيها، كي لا أسبب العدوى لأُختي وأخي ليس حباً بهم بل لكي لايمرضَ إبنها.. كنتُ أنظر الى سقف

العلية، لأن بيت أبي لم يكن فيه طابق ثانٍ ولا غرفة واحدة لوضع الحاجيات أو الفرش، كانت الباب المؤدية الى السطح بجواري والهواء شديد البرودة يمر من أسفلها وأنا أرتجف وحدي، كرهتُ نفسي، كرهت حياتي وكنتُ أدعوا ربي أن أموت..كم تمنيتُ أن يجلب أحدٌ لي طعاماً، أن يجلب شخصٌ لي دواءاً فأستشعر الدفَء بفعلتهِ، دفَء العائلة لا دفء الجسد، لأني كنتُ أشعرُ بالبردِ يعصفُ في جوفي من الداخل وكأنني شجرةٌ جوفاءُ قُطّعت أغصانُها وتُركتْ للريح تَعبثُ بها كيف تشاء.. أقولُ أني لمّا نظرتُ إلى سقف العليّةِ وأنا أحاول أن أُدفِء نفسي بنفسي، فأَتكوَّر ساعةً كقطةٍ صغيرة أو أتقَّلبَ ذات اليمين وذات الشمال لأجد بعض الدفء هناك وأنا أبكي وأبكي وأدعوا بالموت لنفسي المعذبة، إذا بي أستشعر دفأً غريباً في سريرتي وكأنَّ صوتاً ما هتف بي، أنا معكِ!! وحدثتهُ ياربي لما أتعذبُ، لمَ خلقتني في هذه الأسرة المفككة؟؟

أنا لا أريد هذه الحياة، أنا أموت، أنا أكره نفسي...

أنا معكِ، تكرر النداء وحلَّتْ سكينةٌ غريبةٌ في قلبي الصغير..كنتُ في الصف الأول المتوسط آنذاكَ، بكيتُ وأنا أبتلعُ دموعي والآمي.. ماذا أفعل ياربي لقد سئمتُ حياتي، أَمِتْني...

أنا معكِ، هتف الصوت في سريرتي ثلاثاً فأحسستُ براحة كبيرة وبكيتُ بسعادة أنتَ تراني ياربي وترى كم أعاني...

ولكَ أجر عظيم، ردَّ الصوت من قلبي.. لستُ أدري من أين...

ولماذا أنا في هذه العائلة أنا لا أستحق ياربي أنا لم أذنب...

أنني أرى ماتفعلين.. أجاب الصوتُ مرةً أخرى وأحسستُ حينها براحة نفسية عظمى لاأستطيع وصفها أعطتني القوةَ على النهوض لأهبط السلم وأتوجَّهَ نحو الماء لأتوضأ.. سأصلي لكَ يارب فإن كانت هذه آخر أيامي، فأنا أريد أن ألقاكَ وأنا مصلية وتوجهتُ نحو القبلة في عليّتي بعد أن حملتُ سجادة الصلاة من غرفة أختي النائمة وآستغفرتُ ربي وقمتُ للصلاة وأنا أرتجف من فعل المرض...

ولا أستطيع أبداً.. أن أستعيد ذلكَ الشعور الرائع، لمْ ولنْ أستعيد، كيف أصفهُ شعور عظيم

فلقد كانَ شعوري مزيجاً من الرضا والصبر والتسليم، وكنتُ أشعر أن أعظم من في الكون يراني ويشفقُ علي وأَنَهُّ سوف يرأَفُ بي، فلم أعد أهتم بأَحد.. كان نوراً إلهيّاً ذاكَ الذي ملأ إحساسي وكياني وأصبحتُ سعيدةً به.. لنْ أعصيكَ ياربي، قلتُ وأنا أبكي بعد الصلاة وتابعت.. أنتَ تراني بل أنتَ من خلقني، وأنتَ تعلم مايحدث لي وأنتَ ترى زوجة أبي وتعرفُ ماتفعلهُ معي، وأنت ترأف بي ولن ترأف بها ولسوف تعطيني ولن تعطيها، أما أمي فلستُ أدري، أنا لا أستطيعُ أن أقول ياربي هل سامحتُها أم أني لن أسامحها...

أعرف أنها لم تكن سعيدة مع أبي وأتمنى من كل قلبي أن تسعدها مع زوجها هذا، أنتَ وضعتني هنا أنتَ خلقتني لأكون هنا وأنتَ تراني.. أنا سعيدةٌ لأنكَ معي أشكركَ ياربي، أنا على يقينٍ من عطائكَ، إن صبرتُ على عذاباتي، إن لم تعطني في هذه الدنيا، ففي الحياة الآخرة لأنكَ تبتلينا، أليس كذلك ياربي؟!

أنتَ تريد أن تعرف من يظل متمسكاً بكَ مع كل الأذى والحزن ومن يترككَ ويتخلى عن التصديق ويكره كل شيء، بعد تلكَ المناجاة مع ربي أخذت حياتي منحاً آخر فبدأت أتعمق بالدين وزدتُ تمسكاً به وبدأتُ أصاحب الفتيات اللاتي يزودنني بالكتب الدينية ولم أترك دروسي بل زدتُ تعلقاً بها وكنتُ كلما دخلت باب المدرسة رميتُ أحزاني ومعاناتي في بيت أبي بعيداً على عتبة الباب، ودلفتُ الى المدرسة بوجه جديد باسمٍ وكأنني فتاة سعيدة لم تمرَّ بأي ظرفٍ عائلي مؤلم، وحينما تقول لي مدرسٌة ما أحسنتي كانَ هذا مكافأةً عظيمةً لجهودي، فوق السلم أو فوق السطح أو في الممر الخارجي أو في الحديقة وأنا أقرأ وأقرأ كبرتُ وكبرتُ رغم تواصل دعائي أن أموت.. لم تُستَجبْ دعواتي تلك أبداً حتى وأنا أصرخ من أذاها وهي تضربني دون سبب وأقفز فوق سريري وهي تحمل العصا وأختاي ترتجفان وتبكيان وكبرتُ رغم العذاب وكبرت معي طموحاتي.. كنتُ أحلم وأحلم كلما وضعت رأسي فوق وسادتي أن أكون وأن أكون ولعل تلك الأحلام جعلتني لا أموت، لستُ أدري لكنني أعلم أن علاماتي الدراسية كانت تتحسن عاماً بعد عام، ولم أنبس ببنت شفه لأيَّ مخلوقة في المدرسةِ عما مررتُ به في منزل أبي حتى لأقرب صديقاتي وأنا إذ أسأل نفسي عن السبب أجدُ الجواب في خوفي من الشفقة

في عدم رغبتي في تقليل شأني بين قريناتي.. أسباب كثيرة لا أعرفها ولكنيّ أعرفُ فرحتي يوم جلبَ أبي نتيجتي في أمتحان السادس العلمي، ودخلتُ كلية الهندسة في العاصمة وسكنتُ قسماً داخلياً أبعدني عن زوجة أبي ولو لفترة من الزمن، وهل لي أن أقول أنهُ لم يعجب بي، أنهُ لم يحبني، كلا بل لعلهُ الأثنين معاً أذ تابع سلوكي طيلة السنوات الأربع في الكلية وتقدم ابنُ محافظتي لخطبتي ما أن تخرجنا، فكان أباً وأخاً وزوجاً حانياً شعرتُ أنّ الله قد بعثهُ لي ليعوضني عن سنوات عذابي وألمي وماذا عن طفلي الصغير الذي ما أن وُضِعَ بين يديَّ حتى نسيتُ كلَّ ألم مررتُ به وكلَّ جُرحٍ وكل عذابٍ وسجدتُ شكراً لله لما رزقتُ بابني البكر ولكنْ لم تكن تلكَ نعمتي الوحيدة فلقد تَبِعَتهُ أختهُ الجميلة وتلكَ الطفلة ذات الوجه الصبوح...

خالها الثاني هو من كبر في أذنها، لما عادَ بعد سقوط النظام سالماً هو وزوجتهُ ولهُ ثلاثة أطفال، وأبي بقي مع زوجتهِ وابنها الذي طردهُ ذات يوم من بيتهِ الذي كتبهُ باسم والدتهِ، فمكثَ معيَ حيناً وحيناً مع أخي الأكبر لكن الذي رعاه في مرضه كانَ أخي الثاني هو وزوجته حتى توفي وهو في بيت أخي.. أما زوجة أبي فقد رزقها الله بزوجة ابنٍ تحبسها في غرفتها وترمي لها الطعام كأنها سجينة في أوقات الطعام ولا ترضى لأم زوجها كلاماً ولا رأياً ولا مشورةً، فقمتُ بزيارتها يوماً ولم يعجبني مارأيتُ فحملتها معي وأخذتُ أرعاها في بيت زوجي حتى توفاها الله...

حلم يوم جميل

عندما كنتُ جالسة أمام تلكَ الشجرة أنظر إليها وأشعة الشمس الذهبية تنسج فوقها تاجاً من الماس، وبينما أنا أنظر الى الأزهار وهي متفتحة للتو فوق الغصن الذي كان عارياً في الشتاء، والنسمات العليلة تداعب وجهي وشعري، إذ سمعتُ صوتاً يناديني من بعيد، خفق قلبي بشدة وأمسكتُ بجذع الشجرة لأنهض بنفسي، ولكن يداً قوية إمتدَّت لتمسك بي وترفعني وإلتفتُ لصاحب اليد الكريمة ونظرت إليه بسعادة فائقة فبادلني نفس النظراتِ ولم أحتمل بعد ذلك إلا أن أمدَّ ذراعي الأخرى لتحيط برقبتهِ وأضّمهُ إلي...

- ولدي الحبيب...

بكينا سوية كم أشتقتُ إليكَ ياحبيب قلبي...

قالَ لي...

وأنا أكثر منكِ ياأمي الرائعة.. قالها وعيناهُ مغرورقتان بالدموع.. تلمستُ بأصابعي وجههُ ومسحت دموعهُ ونظرنا لبعضنا طويلاً قبل أن يقول...

- أماه، لقد عدتُ من سفري من الخارج ولكن ليس بمفردي، ذهلتُ وتلفتت يميناً ويساراً، حقا؟؟

قلتُ لهُ، فنادى باسمها وهو لايزالُ ممسكاً بي فشعرت أني لاأريد أظهار ضعفي أمام أحد ولذا أبعدت يدهُ عني ووقفتُ بمفردي واضعةً يدي على جذع الشجرة التي لطالما أسررتها وتكلمت، معها فحملت الريح أسراري وتكلمت الساقية عن أحزاني، وكانت السماء تراني والعشب يرمقني بنظرات متعاطفة كلما بكيتُ فوقهُ وأنا أحكي مع شجرتي أو أبثُّها الآمي، ونظرتُ أمامي فأذا بفتاةٍ جميلة تتمايل في خطواتها تمشي نحوي.. نظرتُ الى عيني ولدي فرأيْتُهما تتألقان وكأنّ بريقاً جميلاً قد زادهما فوق جمالها جمالاً...

- أماه أقدم لكِ خطيبتي لقد عدنا سوية وأريدكِ أن تطلبي يدها من أبيها...

رفعتُ رأسي بذهول قلت لهُ أو لا يعلم أبوها فرد ولدي بارتباك...

أماه كلا لقد أخبرتهُ عن طريق الرسائل الألكترونية وغض الطرف عني خجلاً مني، لم أرد أن أتحدث بسوءٍ عنهُ أمامها فتصنعت الابتسام وقلت لهُ...

حسنا ياولدي وماذا عن أبيكَ...

نظر أبني إلي بارتباك وقال...

أماه تركت أمر أبي إليكِ لأني أثق بكِ ياحبيبة قلبي أنتي...

وأمسكَ يدي يقبلهما...

لكن لما لم تخبرنا؟؟

أرجوكِ ياأمي أجّلي هذا النقاش لوقت آخر وهمس لي...

أمي أنا لم أصدق حينما وافق أبوها فطِرْتُ بها على جناح السرعة وعدتُ لكي نتم كل الأجراءات هنا وعدتُ لأجلكما أنتِ وأبي وإلاّ فإني كنتُ قادراً على أخباركما هناك والزواج دون أن تكونا موجودين!!

ماأشقاكَ...

قرصتُ أذنهُ فشعرَ بالإحراج...

أمي لم ترحبي بها!؟

وذهبتُ مع أبيه الى بيتها في اليوم التالي ورحبت بنا الأم ترحيباً حاراً، كيف لا وولدي الطبيب الذي أرسلناهُ على نفقتنا الخاصة ليكمل دراستهُ العليا سوف يتزوج أبنتها التي شهادتها لاتقارن بشهادة ولدي لأنها للتو سوف تكمل كلية الطب ولم تتخصص بعد في أي أختصاص.. وجلسنا أنا وأبوه نتنظر أباها فتعذرت الأم قائلة أنهُ قادم الآن...

إنهُ في المرسم وقد ناديتهُ...

آه ألم تقل لكم أبنتي أنهُ فنان؟؟

وتلعثَمتْ لكنني قلتُ لها لاتبالي فأنا أعرف ماهي لحظات الألهام.. نظرتِ الأمُّ إلي بدهشة...

أو تعرفين؟؟ فتبسمتُ وقلتُ لها أنا أكتب الشعر وأعرف لحظات الفن عندما تجبرهُ أن يترك كل شيء وينطلق ليلبي نداءاً غامضاً لايعرف من أين جاء ولأي هدف يعملهُ إلا ليرضي ذلك النداء الذي يجعلهُ يعتكف بعيداً عن أعز شخص في حياتهِ وكأنَّهُ في مخاضٍ حتَّى يُنجِبَ طفلهُ...

ضحك زوجي...

بدأت تتكلم أمكَ عن الفن، فأجابت أم الفتاة بذهول...

- رباه أنتِ تتكلمين مثلهُ...

وما أن ذكرتْ جملتها الأخيرة حتى دلف الى الغرفة ذلك الرسام ونظرتُ إليه بينما تقدم مرحباً بزوجي وابني فلمّا ألقى التحية عليّ توقفتْ نظراتُنا وذهلنا فما عدنا نستطيع الكلام، عرفني وعرفتهُ.. كنتُ في حديقة منزلي يوماً عندما كنتُ فتاةً في بيت أبي أكتب قصيدة جميلة عن الطبيعة وبين أناملي قلمٌ أهداهُ هو لي، وقال أنهُ سيظلُّ ذكرى بيننا وكانت دموعي تتساقط فوق صفحتي وكأنها مطر.. كنا مخطوبين لبعضنا وعشنا أجمل قصة حب عاشها إنسان، لكنَّ أبي وقف أمام سعادتي يوماً إذ قرر الغاء كل شيء بسبب خلافات مع أهلهِ وتبادلنا النظرات حتى انتبهتُ لنفسي وأشحت بوجهي عنهُ، جلس مذهولاً وآثار الصباغ بين يديه، تذكرني بلوحة رسمها لي وجلبها الى بيت أبي ويداهُ ملوثتان بالصباغ، وتكلم الأبوان عن تفاصيل الزواج، لكنني كنتُ أرنو لتلكَ الذكريات كم هو عالم صغير عالمنا وكم هي الدنيا عجيبة، وبينما كنا على وشك الخروج نظرنا بعضنا وقال لي:

لم ولن أجد لآبنتي أهلاً أفضل منكم ولا أماً بعد أمها أفضل منكِ...

نظرتُ إليه بسعادة وقلتُ...

قدر الله وماشاء فعل...

رسالة عتاب

إليكَ يازوجاً كنتَ من الدنيا نصيبي...

حسناً دعني أقول...

دعني أكتبُ لكَ...

رغم أنكَ لن تبالي ولن تفهم ما ذنبي أنا.. لقد أقتحمتَ براءتي وسذاجتي وجئتَ باسمِ الشرع وإكمال الدين تطلب يدي من والدي فوافقت...

رجل شريف هكذا قالوا لي، فعلا أنتَ رجل شريف لم تتلاعب بمشاعري ولم تطلب لقاءات مشبوهة ولم ترد سوى أن يحتوينا منزل واحد لكنكَ ياسيدي دمرتني وقَمَعَتَ كل أنوثة فَّي ولْم أعد أعرفُ من هي ذي تلك الفتاة التي كنتُها.. تسهر في الليل كما تشاء وليس لي حقٌ أن أقول لكَ ارجع أو حتى أن اسألك لماذا وأين كنت.. تعود وقتما شئت لكنني محاسبةٌ على أقل خطوة أخطوها بل وإنَّ ضميري لايسمح لي أن اخطوا خطوة واحدة دون إذنٍ منكَ...

لا، ليس هذا مهما فعلاً وليس لأجلهِ أكتبُ لكَ، لقد تعودتُ هذا الأمر وأخذتُ أحتضن أطفالي الصغار وأنام في غرفة ثانية عنكَ.. تنعتني بكل الصفات القبيحة حينما تتعصب ويجب علي أن لا أغضبَ وأن لا أتكلم لأنكَ رجلٌ ولأنّني إمرأةٍ، وتحاول إنتقاصي بكل وسيلةٍ عندكَ.. أنا دوماً مخطئة وأنتَ دوماً على حق مهما عملت فأنا عندكَ لستُ سوى إمرأةٍ تقوم بشغلها، أما أنتَ فيجب علي أن ألاقيكَ بوجه بشوش وأن آخذ أغراض التسوق منكَ وأنا في غاية الأمتنان...

لأنكَ رجل ولأنني إمراة...

من واجبي ياسيدي طبخ طعامكَ وليس من واجبكَ جلب الطعام لهم فأنتَ في كل يوم تهدد بترك المنزل لأنكَ مللتَ هذه الحياة ولأنكَ لم تعد تحتمل، فلماذا علي أنا أن أحتمل؟؟

ليس لأجلكَ صدقني بل لأجل تلكَ العيون البريئة التي تنتظرني وكأني منقذٌ لها لا بل كأنّي كلُّ شيء لها في الوجود...

ياسيدي كتبتُ لكَ هذا لأنكَ لاتبالي وأعلم أنكَ لن تقرأ سطرا واحداً ولن تهتم.. تركتنا دون أن تتكلم وبدونِ سابق أنذار تركتنا ورحلت لأنكَ قد تعبتَ أنتَ محق لابد لكَ من أجازة من أسرتكَ، فلقد أضناكَ التسوق ومتطلبات المنزل، لكنني دوماً ماكنتُ أقترح عليكَ أن تأخذنا جميعنا في أجازةٍ كي نكسر الروتين ونكون معاً ونغير قليلاً من واقعنا المثقل بالمسؤوليات التي لاتنتهي ولطالما كنتَ تهزأ بي...

أنا أخرج في أجازةٍ مع أطفالكِ؟؟

أين الأجازة إذاً؟؟

تمتع ياعزيزي الآن بإجازة مفتوحة...

لكنَّ نار البعد عن منزلكَ تأكلكَ وذلكَ ما أراهُ جلياً لما تتصل بأطفالي في نبرات صوتكَ وأنتَ تكيل السباب لأبنكَ الأكبر عندما يتَّهمكَ ويطالبكَ بتبرير ترككَ للمنزل فتكيل التهم لي، ولعل إجازتكَ تطول دعها لن أبالي لأنكَ ستموت وحيداً عندها ولن يعرفكَ أطفالكَ، أرجع الى أيام مغامراتكَ ولامسؤوليتكَ فأنتَ تحب هذا الأمر غاية الحب حتى وكأني أراكَ تحبهُ أكثر من أطفالكَ...

ليس ذنبي أنني أمراة مسؤولة ذات ثقافة كي تكره الصعود الى مستواي وكي تحاول دوما تقليل شأني حتى لاتشعر بالدونية...

تسألني هل تحبينني؟؟

وهل أبقيتَ في قلبي معنى للحب؟؟

وتريد أن أرعاكَ في كل أحوالكَ وأنتَ تعامل أثاث منزلكَ أفضل مني وتخاف عليه من الخدش وتضرب أبناءكَ إن خُدش ولاتخاف على شعوري إن خدش، تسألني أصبحتِ قاسية

إنها طريقة تعاملكَ قد جعلتْ قلبي يموت لأنني لم أعد أريد منهُ حباً ولم أعد أطالبهُ بالحب.. ياسيدي...

ليس ذنبي أنني صدقتُ وعداً كاذباً باسم الزواج وأنا التي قلتُ لكَ أهم شيء عندي المشاعر فدستها بنعليكَ ورغم ذلك كان لزاماً علي أن قَبِلتُ بكَ...

ولكنني أعلم وأنتَ تحكي بكل غضبٍ مع أبنكَ أنكَ سوف ترجع ولسوف ترجع خائب الخطوات صدقني، وسأقبلكَ، ليس لضعفي بل لأني كريمة الأصل ولأجلهم هم سأسامحكَ...

عندما حلَ الربيع فؤادي

جمعتنا تلكَ الظلمة وذلكَ البرد...

تلمستُ أصابعها الدافئة...

آنستي الصغيرة...

إنني أشمُ عطركِ وأنتِ لاتضعين عطراً، شكراً لأنكِ أشفقتِ علي وأنتِ تنظرين الى وجهي المتجمد برداً...

جمعتنا الصدفة في هذا الكوخ الخشبي وأُغلقتْ الباب بالصقيع والثلج فلا مخرج إلا قربكِ وعبر عينيكِ الخائفتين علي، أعلم أنني بالنسبة لكِ مجرد أب حنون، أنني لا أتعدى كوني قريبكِ الذي رباكِ وأنتِ صغيرة معدمة الحال لا أهل لكِ ولا أحباب...

جمعتنا الصدفة لما ذهبتُ أبحث عنكِ قبل هبوب العاصفة الثلجية.. أنني لا أعرف شيئاً الآن سوى أن تضمني ابنتي الى حضنها كي لا أتجمد برداً، أن تضمني حتى أشعر أن ضلوعي لم تعد ملكاً لي بل لها، وأنَّ أنفاسي قد أختلطت مع أنفاسها فصهرنا بحرارة ذلك الحب الذي لم يولد بعد في بوتقة واحدة الى الأبد، وليت الضوء لايأتي عبر ثقب الباب بل ليتهُ ليل سرمدي مؤبد، كان ذلكَ عندما بلغتْ طفلتي الصغيرة عامها السادس عشر.. أنني الآن أدوّنُ ذلك فوق الورق في غرفتي كعاشق مجنون.. ماالذي حدث لي ولمَ تغير شعوري فجأة.. الملاكُ الصغير الذي كنتُ أحملهُ بين ذراعي وأشتري لهُ مايريد ويشتهي، طلباتها أوامر ورغباتها مطاعة عندي، في تلك الليلة تغير قدري وحل الربيع فؤادي وأنا الذي أكبرها ضعف عمرها، نظرتْ إليَّ بعينين حانيتين...

أرجوكَ يافؤاد...

قالتها بصوت مرتجف...

بابا فؤاد، أرجوكَ، أبقى معي ولا تفقد وعيكَ، كانت أطرافي تتجمد من البرد وكيف لا وقد نزعت بلوزتي الصوفية وألبستها لطفلتي الصغيرة كي تتدفأ بها لأنني أحببتها أكثر من حياتي التي لم أقضها إلا بالطيش والعلاقات العابرة ولم أكن أعرف شيئاً أسمهُ الحب ولم أومن به...

فالنساء كوكبة تحيطني، نعم أنا وسيم الطلعة طويل القامة أستطيع بنظرة بسيطة أن أوقع بحبائل مكري أية فتاة أريد ولكن ليس فتاتي، ليس ابنتي تلك التي سهرت أياماً وليالي أرعاها تلك التي لم أنم وأنا أرقبها في مرضها حتى تشفى، أحببتها منذُ جلبتها والدتي الى منزلنا لتقول لنا أن والديها قد توفيا بحادث سيارة وأن هذه الطفلة الملفعة بالقماط هي آخر شيء تركتها لها أختها التؤام تلكَ التي ذهبت دونما رجعه... لم تستطع أمي رعايتها لأَنّ أخي كان كانا في نفس سنَّها...

أرادت أن تجلب مربية الى المنزل ولكن لم تتحمل ميزانية الأسرة مصاريف مربية تمكث طيلة الوقت معنا لرعاية تلكَ الصغيرة وهكذا كنتُ أنا...

(بابا فؤاد) الذي رباها والذي رعاها ولم أشعر تجاهها إلاّ بشعور الوالد تجاه ابنتهِ طول عمري حتى جمعتنا تلك الصدفة الحمقاء في ليلة خرساء وجعلت فؤادي يخفق للمرة الأولى في حياتي، لقد جلبتها والدتي من بلدٍ بعيد، هو مسقط رأسها ولأن قوانينهم هناكَ تعطي حق الحضانة للعم فقد طالب ذلك العم بعد سنوات طويلة بابنتي ورفع دعوة ضد والدتي وكانت تلكَ الدعوة سبباً لرحيلها عني، سافرت طفلتي في سن العاشرة ولم أراها حتى عادت إليَّ في سن السادسة عشرة فتاة رائعة الجمال، لم أصدق للوهلة الأولى أنها هي نفسها تلكَ الطفلة التي حملتها ذراعي وأنا أهدهدها ليالي وأياماً تلكَ الطفلة التي كنتُ الأعبها وأناغيها نفسها، تلكَ الطفلة التي تركض خلفي ولا تتركني أغادر مكاناً إلاّ وكانت معي، تلكَ الصغيرة "فاتن" أصبحت فتاةً فاتنة.. ونظرتُ لها وأنا أرتجف في ذلكَ الكوخ الصغير قرب منزلي لقد ذهبتْ هناكَ تبحثُ عن كلبتها الصغيرة التي أهديتها أياها منذُ كانت في العاشرة قبل أن تغادر بلادي الى تلك البلاد العربية البعيدة...

غادرتْ مسرعةً ولم تخبرني فلما أبطأت بالعودة وبدأت تلكَ العاصفة الثلجية خرجتُ مسرعاً أبحث عنها، يا لتلكما العينين، أنهما تحيرانني فلا هما سوداوان كالليل ولا هما زرقاوان كالبحر، أنَّ فيهما أمتزاجاً بين هذين اللونين فتراهما يتغيران كل حين خصلات شعرها السوداء

سقطت فوق وجنتي ودموعها الساخنة لامست ذقني...

بابا فؤاد...

أرجوكَ، أنا سوف أحاول أن أدفئكَ لاتفقد الوعي رجاءاً...

أرجوكَ، ماذا أفعل؟؟ ياإلهي...

كنتُ أحاول أن أتكلم لكن قواي خارت ولم يسعفني لساني ولا فكي على الكلام، أصبحتُ ضعيفاً جداً، كنتُ على وشك أن أفقد وعيي حقاً، لكنَّ دفء أصابعها وأنفاسها الساخنة اللاهثة، أقول، لعل تلك ماكانت تبقيني يقظاً حتى تلكَ اللحظة وأنا لا أرتدي سوى قميص قطني أزرق بلون عينَّي اللتين طالما أخبرتني فاتنتي أنها تحبهما...(ذاك لأني نزعت كنزتي الصوفية وألبستهالها...)...

بابا فؤاد...

أحبُّ زرقة عينيكِ...

ماذا حدث لي، كانَ قلبي يشتعل بينما جسدي ينجمد متى يأتي الصباح..كنتُ أتمنى أن يأتي لنخرج من ذلك الكوخ وأعيش لأجلها لأخبرها...

أو لا، لا، أنا لا أقوى على إخبارها بل لأراها وأعيش قربها، يكفيني أن أنظر إليها كي أحيا، تمنيتُ قدوم الصباح علَّ أحداً يساعدنا على الخروج وبنفس الوقت تمنيتُ أن لا يأتي كي أظل قرب عُطرها رغم أنها لم تضع أي عطر حتى أبقى أستشعر قربها...

ياصغيرتي الغالية...

نعم، أستشعر حرارة و دفء حنانها، لاتتركيني ياطفلتي فلطالما حملتكِ وأنتي صغيرة كوني معي حتى ولو لليلة، واحدة دعيني فقد وُلدَ حبٌّ جديد في قلبي تجاهكِ حتى وإن لمْ تعرفيه ولن تعرفيه.. حب بلا مصالح أو خداع أفضَّلكِ فيه على نفسي دعيني فقط أنعم بدفء أنفاسكِ الطاهرة ولأمُتْ بعدها...

لما سكنت فؤادي

(الجزء الأول)

كنتُ في الخامسة عشر عندما أخبروني أن عليَ الذهاب لرؤية عمي الأوحد ذاكَ الذي لم أرهُ عمراً كاملاً اللهم إلا في طفولتي الأولى إذ كنتُ أذكرهُ كطيف مر علي في حلم ليلة صيف عابرة أو كشبح ظننتني رأيتهُ فضغطت على جفني عيني بأناملي لأتلمَّس الصدق من عدمهُ، كان يسكن في نفس مدينتي لكنهُ كان ثرياً جداً ولم يكن والدي يزورهُ أبداً غير أني أحببتُ دوماً الذهاب مع جدي لزيارتهِ في منزلهِ الكبير، كانَ منزلاً أشبه بالقصر مليئاً بالغرف الكبيرة والثريا والنوافذ الواسعة والأثاث الفاخر، نعم فعمّي كانَ محامياً واسع الصيت ولهُ شهرة كبيرة ونفوذ واسع ومع كل تلك الشهرة والنفوذ والسلطة لم يحظ عمي بولد لهُ من زوجتهُ التي أحبَّها حباً جماً وكان والدها قاضياً كبيراً تخيرَّ عمي زوجاً لابنته الجميلةِ لّما رأى منهُ من وفاء وصدق في معاملتهِ معهُ وتلكَ الزوجة الوفية ظلت معهُ حتى وفاتها دون أن تطلب حقها في ذريةٍ لأنهُ كانَ عقيماً حسبما أشيع عنهُ ولم يتزوج ذلك العم بعدها أبداً ولعلَّ ذلك كانَ أحد أسباب حُبهُ المفرط لي وكتابة وصيته باسمي، فلقد أورثني كل نقودهُ وكل ما يملكهُ من عقارات ولكنهُ وضع شروطاً ثلاث...

أولها وأصعبها أن لا أُعطي والدي أي شيء من الثروة وأن أسكن قصرهُ...

ثانياً، ولا أغادرهُ أبداً تحت أي ظرف وأرعى أملاكهُ تحت إشراف محاميه...

وثالثاً وكانَ الشرط الأهم لأني إن لم أقم به أخسر كل شيء كما ذكرَ المحامي الخاص بتركة عمي...

لقد كانَ ذلكَ الشرط هو رعاية طفلةٍ صغيرة يتيمة أنجبتها فتاة في الثامنة عشر من عمرها

وماتت أثناء الولادة وكانت تلكَ الفتاة حسبما فهمت من المحامي تتردد كثيراً على منزل عمي في آخر أيامهُ وترعاهُ وتمرضهُ وأستنتجت خلال حديث المحامي عنها أنها قد أستدرجتْ عطف عمي عليها الى درجة أنهُ جعل لابنتها التي لايعرف لها أب نصيباً كاملاً من التركة وشرطاً ثابتاً في أستلام الإرث، لقد ذكر المحامي حصة الفتاة لما تبلغ الثامنة عشر وإرثها من تركة عمي وكأنها من لحمهِ و دمهِ.. ترك لها منزلاً فخماً غير هذا الذي أراد لي السكن فيه ومبلغاً ضخماً من المال وضعني وصياً عليه حتى تبلغ سنها القانوني، وقد ذكر في ملاحظة محددة أنني لو حاولتُ التلاعب بشيء من حصتها قبل أن تكبر فلَسوف أخسرُ كل أملاكي...

سر خفي في كل ذلكَ لم أفهمهُ وحاولت بكل جهدي معرفتهُ فلمَّحتُ الى أن عمي ربما كانَ زير نساء في أخريات عمرهُ بحيث أنهُ أرادَ التكفير عن ذنوبه بتبني ابنةِ تلكَ الفتاة فأشار المحامي بالنفي وقال لي بحزن وأسى، لقد رعتهُ تلك الممرضة لأنهُ لم يستطع النهوض أبداً بسبب مرض السرطان...

أنتَ لم تزرهُ عمراً طويلاً بسبب منع والدكَ بعد وفاة جدكَ وعدم أستطاعتك المجيء بمفردك كي لاتعصي أوامر أبيكَ...

حاولت أن أقاطعهُ وأن أدافع قليلاً عن نفسي وعن والدي بينما يتآكلني الندم لكنهُ أكمل قائلاً...

أنا أعرف كل شيء أنا صديق عمَّكَ ورفيقهُ طيلة سنوات طويلة، أنتَ ياعزيزي كنتَ أثيراً عندهُ ولقد أحبكَ دوماً واعتبركَ بمثابة ابنٍ لهُ، صوركَ معهُ دوماً بقرب سريرهِ، إنه لم ينساكَ يوماً...

حاولت أن أتكلم، أن أبرِّر قليلاً، شعرتُ بالخجل من نفسي وأنا أنظر الى صور تجمعني وأياهُ فوق رفوف مكتبهِ حيث كنتُ جالساً أنظرها من طرف خفي مستذكراً تلكَ الأيام الجميلة حينما كان يحملني عمي على كتفيه ويجوب بي في حديقة (فِلته) الكبيرة أو يلاعبني كرة التنس أو المضرب في ساحة الملعب المشيد أمام منزلهِ الضخم، وكان جدي سعيداً أيما سعادة بتلكَ

الضحكات التي أطلقها وأنا العب مع عمي، سألت جدي يوماً...

- لماذا والدي وعمي لايتكلمان؟؟

نظر إلي جدي بحزن وقال بألم...

لن تفهم الآن، لكنَّ كيد النساء عظيم، هي التي فرقت بينهما.. لن أتكلم أكثر من هذا...

لم أفهم إلا عندما كبرتُ، كانت والدتي هي من أحبَّها عمي ووالدي على السواء في فترة فوران الشباب كانت ابنة الجيران التي يتمناها كل من يراها.. جميلةً، مهذبةً، لايرتفع هدبُ عينيها إلا نادراً حينما تمشي في الحي الى مدرستها، خطبها عمي أولاً ووافقت لكنَّ ماحصل أنها وقعت بغرام والدي الذي أحبها أيضاً، ذاكَ أنهما ذهبا الى نفس الجامعة في فترة الخطوبة لعمي ومن كان يوصلها ويرعاها سوى والدي.. عرفتُ ذلكَ يوماً ما، عندما رأيت صورة أمي في درج عمي مرفقة برسالة منها إليه.. رسالة أعتذار و رسالة وداع أخير، كم شعرتُ بالعار عندها في داخلي وتقريع الضمير، فلم أعد أذهب هناكَ، ولم أعد أستطيع مرافقة جدي الذي لزم الفراش بسبب المرض بعد حين من اكتشافي للحقيقة المرة، وتوفي بعدها، إذاً فقد أحبني عمي مرتين حباً لوالدتي وكرامة لها، وحباً لي كوني رافقتهُ في طفولتي وأسعدتُ قلبَهُ بضحكاتي وأسئلتي الحمقاء وسذاجتي...

- حسناً، إذاً علي رعاية هذه الطفلة كابنةٍ لي أليس كذلك...

قلت بإمتعاض فجأة وأنا أهتف لأتخلص من عذاب الضمير، نظر المحامي إلي رافعاً نظراتهُ من فوق أوراق الوصية وحرك نظارتهُ السوداء وتفرس في وجهي قائلاً:

- بالتأكيد عليكَ ذلكَ ولسوف أشرف بنفسي على هذا الأمر بوصاية شخصية منهُ...

ولكن أليس من الغريب أن يوصي عمي وهو المعروف عنهُ أنا لا أقصد الكلام بالسوء عنهُ إنما المعروف عنهُ حرصهُ الشديد على نقودهِ إذاً.. لمَ هذه الطفلة بالتحديد!!

شزرني المحامي بنظرات خاصة من تحت نظارتيه...

عليكَ أن تعلم أن هذا الأمر سري وخطير للغاية...

- ماذا هناكَ تكلم...

قلتُ بقلق...

- حسناً...

تأوه المحامي وأشعل سيجاراً فاخراً إستخرجهُ من علبة سجائر كانت موضوعة فوق المكتب، نفث الدخان وهو ينظر إليَّ نظرات خاصة...

سوف تعرف يوماً ما سأخبركَ!!

ولايمكنني الآن مطلقاً، هل أنتَ موافق على هذه الشروط الثلاث...

وقع هنا وهنا إن كنتَ موافقاً...

أخذَ يتكلم بسرعة وكأنهُ يتدارك محاولتهُ البوح بالسر الخفي الذي وضعهُ عمي عندهُ قبل أن يموت، أومأت برأسي دلالة الأيجاب واسرعتُ بأخذ القلم من بين أنامل المحامي الكهل، فمن ذا الذي يرفض ثروة هائلة كتلكَ إلا أحمق مجنون، أول شيء كان علي فعله، هو الذهاب الى منزل الأيتام حيث وجدتُ طفلة صغيرة في اللفافة تنظر إلي بعينين رصاصيتي اللون تتلونان بلون السماء، ويداها البيضاوان الصغيرتان تحاولان شق اللفافة كل حين بمحاولاتها اليائسة إذ أمتدت أنامل صغيرة بحثاً عن معين يأخذ بها بعيداً عن ذلكَ السجن الرهيب...

ناولتني المربية الطفلة الصغيرة وعيناها تدمعان...

لقد تعلقت بها ياسيدي إنها جميلة جداً، لقد أصبحت في الشهر السابع الآن سيدي...

أخذتها بين ذراعيّ، لاأعرف كيف أصف شعوري.. فحينها أصبحتُ أباً قبل أن أعرف مامعنى الأبوة وكأنَّ شلالاً من الحب صُبَّ فوق قلبي ما أن نظرتُ الى عينيها الصغيرتين وأحسستُ أنها تمت لي بصلة قرابة قوية وكأنها لحمي ودمي.. كانتْ جائعةً تبحثُ عن طعام، وتحرك رأسها يميناً ويساراً، طفلةً ذات وجه مستدير أبيض كالقطن في بياضِهِ، وشفتاها كأنهما

وردة جوري حمراء صغيرة، كانت تحرك شفتيها باحثة عن الغذاء ويداها تحاولان الأفلات من اللفافة، مهلاً ياصغيرتي سأجلبُ لكِ قنينة الحليب، نظرتُ الى المربية فوجدتها متعلقة الأهداب بطفلتي، شعرتْ بالخجل مني وأسرعت بأعطائي قنينة حليبها ما أن نظرتُ إليها مستغرباً إلتفتت إلي وهي تناولني أغراض الصغيرة...

- سيدي!! أرجوكَ...

- ماالأمر...

- أتمنى أن ترعاها جيداً، أنا على يقين من ذلكَ، لكنني أحببتها كثيراً... نظرتُ الى تلكَ المربية بريبة، وأبتسمتُ بتكلف، ثم أستدرتُ والطفلة الصغيرة بين يدي لأغادر الميتم بعد توقيعي كل الأوراق القانونية التي تخولني التصرف في بنوتها إذ أنها أصبحت أبنة رسمية لي، أنا الذي لم أعرف ماهو الزواج بعد، ولم أجرب التحدث مع أية فتاة ومجتمعي يحذرني من الأختلاط مع الجنس الأخر ويصفهُ بالحرام، أصبحتُ أباً بين ليلة وضحاها وصاحبَ عقارات وأملاك، أسكن قصراً فخماً في وسط مدينتي في حي راقٍ...

ولي خدم ومحام وشركةٌ أدير شؤونها، إذاً مالي ومالَ الدراسةِ؟؟

تركتُ مدرستي وودعت اصدقائي الذين حاولوا زيارتي للحصول على بعض النقود، لكنَّ المحامي الخاص بعمي كان لهم بالمرصاد، ولم يخولني التصرف بأي شيء حتى تمر فترة تجريبية يختبرني بها بناءاً على أقواله، ولم يعد اصدقائي يزورونني رويداً رويداً لما أحسوا أنني لا أستطيع مساعدتهم بأي من نقود عمي ونعتوني بالبخيل وناكر العشرة ونعوت كثيرة أخرى.. كانت مهمة رعاية طفلتي الصغيرة أمراً صعباً للغاية عليَّ باديء ذي بدء، بكاؤها المستمر في الليل وطلبها الرضاعة باستمرار دفعني كي أعود لنفس الميتم وأجلب تلكَ المربية التي أحبت طفلتي حباً خالياً من المصالح وهي لم تعلم أنني ثريٌ قبل ذلكَ مطلقاً، ورغم وجود المربية إلا أنَّ مسؤوليتي تجاه تلكَ الطفلة أشعرني دوماً أن هناكَ أمراً معلقاً في عاتقي، أم أن حبّي لها هو مادفعني لذلك لستُ أدري، فلقد كنتُ أراقب المربية دوماً ولا أستريح حتى آخذ طفلتي بين ذراعي كل حين

وحين حينما أكون في منزلي الكبير فأضعها فوق حضني وأُهدِّئهَا بصوت خفيض وأغني لها حيناً آخر ولاأنام حتى أطمئن عليها.. أصبحتُ فجأة شخصاً لاأعرفهُ، لكني لم أنسى والدي ولا أسرتي، كنتُ أزورهم كلما سنحت لي الفرصة، أحاول إعطاء والدي نقوداً، لكنهُ يرفضها كل حين ويذكرني بشرط عمي ويقول لي...

- مجرد زيارتكَ لنا أنا وأخوتكَ وأمكَ تساوي عندي كل نقود العالم، أنا سعيد بكَ فلقد اطمأننتُ على مستقبلكَ وماذا يريد الأب سوى ذلك...

لكنني كنتُ أشعر بالذنب كلما شاهدت أخوتي.. طلبتُ من المحامي رخصة التصرف في أموال عمي بعد مرور أشهر من أستلام الإرث، وافق المحامي بصرف الشيكات لي بمبالغ محددة مع معرفة سبب صرفها، قلت لهُ يوماً ما أنني أريد شراء هدايا لأسرتي فوافق فوراً ولما أعترضت مستنكراً كون عمي لم يقبل أن أصرف فلساً على والدي قال لي باسماً...

- نستطيع التلاعب أحياناً بالقانون، فهناكَ قانون وهناك روح القانون وأنتَ لاتعطي والدكَ شيئاً بل تمارس حقكَ في شراء الهدايا لأخوتكَ أليس كذلك؟؟

قالَ وهو يغمزني فسعدتُ بذلكَ أيما سعادة، لقد أطمئن المحامي لي وأحب أدبي وعدم مجادلتي لهُ أو طلب النقود لتكون تحت تصرفي بطردهِ مثلاً من وظيفةِ كونهِ محامياً لي باستلامي لإرث عمي، لكن تصرفي بأدب معهُ واستماعي لكل مايقولهُ وأخذي بمشورتهِ جعلهُ يحّبني حتى دون أن يظهر ذلك، إذ أستشعرتُ حبهُ لي في كل معاملاتهِ معي وتغيير طريقة تصرفهِ ومرتِ الأيام وطفلتي تكبر أمام عيني وكلما كبرت كبر حبها في قلبي، أصبحت طفلتي المدللة التي تطلب فتجاب طلباتها فوراً تتغنج دلالاً بين ذراعي وهي تقبل وجنتي وتناديني...

- بابا، أنا أريد أن تأخذني الى مدينة الألعاب اليوم لنذهب سوياً...

نمر في طريقنا على محلات الألعاب فأشتري لها ماتشتهيه نفسها من لعب نعرّج في طريق عودتنا على محلات الملابس فأتعمَّدُ شراء ملابس جديدة لها كلما خرجنا سوية لترتدي في كل مرة معي ثوباً جديداً، تسعدني ضحكاتها الطفولية، وتذيب قلبي نظراتها اللازوردية بتلكما العينين

الواسعتين البريئتين وهي تحيط رقبتي بذراعيها وتطلب مني حملها بذراعي الى الأعلى واللعب معها، لكن كانَ لابدَّ لي في نهاية المطاف من زوجة ما، أقترح علي المحامي أسماء عوائل مرموقة كي أتخير فتاة لي من بينهم لتكون زوجة، كانَ الجميع يخبرني وأولهم أبي أن علي أختيار زوجة وتأسيس أسرة حقيقية، لم أكن أشعر باحتياجي الى أسرة مع طفلتي الصغيرة تلك فلقد ملأت علي حياتي.. كانت تكفيني تلك الزيجات المؤقتة التي تطالبني بها صاحباتها بأنفسهن، فلأنني ثري وشاب، كنتُ موضع أهتمام الفتيات والنساء على السواء وكنتُ أختار لنفسي أجمل الفتيات ولم تكن أية فتاة قادرة على مقاومة جاذبيتي فقد كنتُ وسيماً جداً حينها، ولذلك لم أقتنع بمبدأ الزواج ولم أؤمن به، لكنّ لكل جواد كبوة كما يقولون، إذ أن قلبي الأحمق الغض تعلقَّ فجأة في حفلة حضرتُها مع محامِّي (الذي أصبح محامياً لي بكل وفاء والتزام)، أقول إن قلبي تعلق بتلكَ المرأة الجميلة في تلك الحفلةِ التي أقامتها شركتنا وحَضَرَها كلُّ الأعضاء المساهمين والممولين للمشاريع وأقيمت في منزلها، كانت أرملة أحدِ أعضاء الشركة البارزين، لم أبذل جهداً كبيراً في جعلها تنتبه لي، لأنني وجدتها أنجذبتْ إلي مسبقاً، وذاكَ ماجعلني سعيداً للغاية، وتبادلنا عهود الحب وبسرعة لم تتجاوز أسبوعين، تمت خطبتنا وخلال شهر واحد كانت سيدة قصر عمي أي سيدة قصري بلا منازع وأصبحت أماً لطفلتي الصغيرة التي كانت حينذاكَ في الثامنة من عمرها تحديداً...

لما سكنت فؤادي

(الجزء الثاني)

كانت تلكَ الزوجة الحبيبة الأثيرة الى قلبي كلَّ ماأصبوا إليه في عالمي حينذاكَ، فلقد تعلقَ قلبي بها أيما تعلق وكانت رغباتها أوامر عندي وكل ما تقولهُ أصدقهُ بسرعة دونما تحقق لأنني أحببتها بشغف مراهق وقلب طفل حرم من عائلتهِ وهو لما يكبُر بعد ولقد أستغَّلتْ زوجتي نقطة ضعفي تلكَ أمامها فأخذت تطلب وتطلب وتفعل ماتشاء من تغيير أثاث منزل عمي الكبير الى صرف مبالغ طائلة على الحفلات والسهرات الفارغة علاوةً على المجوهرات والثياب الفاخرة وهلم جرا، أما طفلتي الصغيرة الأثيرة عندي فأني أعترف نادماً بإهمالي لها وعدم سؤالي عنها إلا نزرا يسيرا، فكلما حاولتُ الأنفراد مع طفلتي، تبعدها زوجتي عني وكأنها عدوٌ لدودٌ لها، لم الأحظ هذا الأمر بادئ ذي بدء، فعيناي قد عميتا عن كل حقيقةٍ بحبها المجنون، تلكَ المرأة الآسرة للقلوب، رغم كونها أرملة، لم تفقد جزءاً من أنوثتها بل أزدادت جمالاً في عيني وكلمّا نظرتُ إليها لم أكن أحتمل أن أرد لها طلباً بل أنني كنتُ أحاول بجلب الهدايا القيمة إسترضاءها وجعلها سعيدة راضية عني...

أستحوذت على كلَّ إهتمامي ولمَّا كنتُ أسأل عن طفلتي تتحجج بذرائع مختلفة كي تبعدها عني ولم ألاحظ كيف هزلت طفلتي ولا كيف شحب لون وجهها وغارت عيناها اللتان كانتا كأنَّهما السماء في لونهما تارة، وكأنَّهما البحر في عمقه وغمقِ لونهِ تارة أخرى، حاول المحامي أن يكلمني يوماً وأبدى أمتعاضةُ من صرف المبالغ الهائلة تلك على الحفلات والأمور التافهة، فلم أستمع لهُ.. مر عامان وأنا على ذلك الحال، هل كنتُ أعمى، هل كنتُ أصَّماً ماذا فعلت بي تلكَ المرأة...

لايزال جُرحها لم يندمل في قلبي، فأنا لحَّد هذه اللحظة كلما تذكرتُ مافعلتهُ بي أنزف من جديد حزناً على قلبي الذي حطمتهُ وهو لايزال فتياً فجعلتهُ حجراً قاسياً متبلداً، كنتُ في أحدى سفراتي التي أوفدتُ لها من قبل الشركة لأجل تجارتنا وترويج منتجات شركة عمي العالمية الصيت.. حدث طارئ مابحيث إستدعاني سكرتيري الخاص حتى أعود وأعالج مسألةً في الشركة...

عدتُ الى منزلي قبل أن أعرج على الشركة لأن الوقت كان متأخراً جداً بسبب تأخر الطائرة في الوصول فلم أحدد مجيئي وفتحتُ باب قصري بمفتاحي وصعدتُ الى غرفتي مشتاقاً لزوجتي الحبيبة وأنا أُمنّي النفس أني سوف أعيش أجمل اللحظات معها، وانها سوف تنسيني عناء الرحلة كلها لكنَّ همهمةً مبهمةً أنبعثت من تحت الغطاء دفعتني كي أنير المصباح وانطلقت صرخةُ ذعر وقفز رجلٌ من فوق سريري هارباً فلم أعرف كيف ومتى أخرجتُ مسدسي من درجٍ قريبٍ علي كنتُ أحتفظ به هناكَ، ومتى سقط ذاكَ الوضيع على أرضية غرفة نومي مضرجاً بالدماء، نظرتُ إليها ترتجف وتولول وتحلف، بكيتُ بألم...

لماذا أيتها الحقيرة السافلة ماذا فعلتُ لكِ؟؟

– لم تفعل شيئاً، تلكَ هي المشكلة.. كنتَ أكثر من مثالي.. كنتَ أروعَ زوجٍ في الوجود، وأنا لا أستطيع العيش هكذا دون وجود شيء يبعد الرتابة عن حياتي.. أعتذرُ إليكَ، وأعدكَ أن أكون وفيةً سامحني، فأنا، أنا مدللّتكَ وحبيبتكَ وبكت بهيستيريا...

–كانَ زوجي السابق يضربني ويهينني، ولذلكَ أعتدتُ خيانتهُ أما أنتَ فلا تستحق هذا إلاّ أنّني لم أستطع التخلص من عشّاقي السابقين رغم كل محاولاتي.. كنتُ سأتوب وأخبرتهُ أن لا يأتيَ لأنكَ لاتستحق...

وانتِ ماذا تستحقين؟؟

– أرجوكَ لاتقتلني...

– بابا، بابا...

صرخت طفلتي فزعاً وارتمتْ تحت قدميَّ، وقد ظهرت من العدم فجأة، محيطة ساقيَّ بكلتي ذراعيها، كانت تلكَ الخائنةَ ترتجف، وهي تلفُّ نفسها بالغطاء وصوتها يتهدج...

– لاتقتلني حباً لأبنتكَ...

– بابا أرجوكَ أنها لاتستحق، بابا سوف لن أراكَ وستدخل السجن بسببها...

كنتُ ممسكاً بالمسدس وأنا أصوبهُ نحو رأسها وأصبعي فوق الزناد، ثوان معدودة تفصلني عن تفجير رأسها وبعثرة أجزائِهِ فوق السرير، بينما تعلقتْ طفلتي بساقي تقبّلهَا وترجوني بصوت متهدج...

– بابا، لقد حرمتني منكَ منذُ دخلت منزلنا أرجوكَ دعها ترحل عنا بسلام لا أريد أن أفقدكَ مرتين...

نظرتُ اليها بألم.. كنتُ على وشك الضغط على الزناد وأنا على أستعداد تام لقتلِ تلكَ الدنيئة، لكنْ بنظرة مني لعيني طفلتي الغائرتين ووجهها الشاحب شعرتُ بذعرٍ دبَّ في قلبي فجأة...

– رحماكَ يارب!!

لماذا أصبحتِ بهذه النحافة؟؟

أبتِ، أنا أحبكَ، لاتحرمني منكَ، أرجوكَ.. ليسَ لي أحد سواكَ، بابا دعها لأجلي تعيش بعيداً عنا طلقها وآتركها...

الموت راحة لها...

في تلكَ الأثناء، كانَ الخدم قد حضروا بسبب الأصوات التي صدرت من غرفتي علاوة على صوت إطلاق النار...

نظرَ الجميع الى ماجرى عرفوا بسرعة ماحدث كانَ ذلكَ كافياً لي كي أعيد مسدسي الى الدرج وأحمل طفلتي بين ذراعي وأخرج تاركاً تلكَ الوضيعة بين يدي محاميي الذي أتصل رئيس خدمي به بناءاً على أمر مني كي يقوم بالأجراءات القانونية اللازمة، أقفلتُ الباب على

قلبي منذُ ذلكَ الحادث ووضعتُ الأقفال عليه وحقدتُ على كل أمراة جميلة، ولم أعد أصدق أنَّ هناك طهراً أو وفاءاً في العالم عند أي أمراة...

وفي يوم ما وبينما طفلتي تجلس قربي على الأريكة بجوار الموقد.. أكتشفتُ آثار حرق على يديها ولمَّا سألتهُا عن السبب تهربت مني.. احتضنتها وضممُتها الى صدري...

حبيبة بابا من لي غيركِ الآن هل تخبئين عن بابا الأسرار أو لا تحبينني؟؟ تأوهتْ طفلتي وكأنها تحمل هموم عجوز في التسعين من عمرها...

- ماالأمر أحكِ لي هيا...

قلتُ لها بقلق شديد، رفعت رأسها من فوق صدري والدموع تملأ عينيها اللازورديتين...

كلما كنتُ أحاولُ المجيءَ لرؤيتكَ كانت تهددني، ولما أكتشفتُ سرَّها ورأيت رجالاً يأتون لزيارتها بين الفينة والأخرى ويمكثون طويلاً فلا يغادر أحد جاءَ لرؤيتها حتى اليوم الثاني أو الثالث وكل ذلكَ لما تسافر أنتَ.. وصمتتْ خوفاً وهي ترتعد.. شعرتُ بجسدها يختض رعباً بين ذراعي...

صغيرتي تكلمي ماذا...

بكت بدموع حرى...

- لقد هددتني أن قلتُ لكَ أن تقتلني ببطء، لأنني صرخت بوجهها يوماً أن تطرد أولئك الرجال، فقد أحرقتْ جلد يديَّ بسكين سخنتها بالنار وتوعدتني أن تكوي ظهري إنْ أخبرتُكَ بأية طريقة عما يجري سامحني ياأبتِ، سامحني...

أنا لم أستطع القول، كنتُ جبانةً، لم أحتمل كيها لظهري بالسكين، لقد توعدتني أن تشوَّه جسدي كلهُ، كانت سكين واحدة على ظهري كفيلةً بأنْ أصمتَ وأكون جبانة لا أجرؤ على أخباركَ، سامحني ياوالدي...

وبكت وهي تمرغ وجهها فوق صدري، رفعتُ جزءاً من ثوبها لأرى أسفل رقبتها وبالضبط

تحت كتفها الأيسر أثراً لسكين حارقة طبعت على جلدها الرقيق...

صغيرتي الغالية بكيت بجنون ونهضت صارخاً كاسد جريح يزأر:

سأحرقها تلكَ ال (...)، تلكَ ال (...)، سوف أرسل لها من يحرقها، أنا لها، وسوف ترى.. لن أدعها تحيا بسلام...

بابا، لالا، أرجوكَ لا، يكفيها السجن والعار اللذين سيلاحقانها أينما تذهب طول عمرها لاتفعل شيئاً يحرمني منكَ بابا، أنا مشتاقةٌ إليكَ، مشتاقةٌ لأيامٍ كنتَ تلاعبني بها ونخرج كل يوم...

بابا لاتتركني أرجوكَ، سأموت بدونكَ...

قالت ذلكَ ومرغتْ وجهها بساقيَّ وهي تحتضنهُما فرفعتها بذراعي، وقبّلتُ وجنتيها الورديتين، كانتا شاحبتين جداً في أيام تلكَ العقرب، وأنا الأحمق لم أرى أي شيء.. كم كنتُ غبياً ساذجاً غرا...

- حبيبة بابا، من الآن فصاعداً لن يتركَكِ بابا ولن يجلب أية أمراة الى هذا القصر أبداً أعاهدكِ بشرفي حبيبة قلبي أنتِ...

وضممتها بحبٍّ فضمتْ رقبتي بذراعيها بسعادة ودموعها تتساقط على عنقي...

- أحبكَ ياأبتِ الغالي، أحبكَ...

وعدنا كما كنا وأخذتُ أحاول تعويضها عن تلكَ الأيام المريرة بشراء اللعب لها وكل ماتريدهُ وما لاتريدهُ، لكنني لم أعد أطيق المكوث في ذلك المنزل، فقررتُ الترحال والسفر المستمر كي أنسى وأعيش حياة جديدة، لكنْ عبثاً حاولتُ فذكرى تلكَ الحادثة ظلت تلاحقني في أحلامي ويقظتي حيثما ذهبتُ.. وصلتني أخيراً رسالة كنتُ أنتظرها وأنا في باريس في أحدى سفراتي، لقد تم الأمر، عرفتُ أن العملية قد تمت بنجاح وأنني قد أنتقمتُ لطفلتي من تلكَ المرأة الوضيعة، عندما عدتُ الى منزلي أخبرني محاميّي في معرضِ كلامهِ عن حادثةٍ بشعةٍ حدثتْ لطليقتي وهي

في السجن إذ قامتْ أحدى السجينات بافتعال معركةٍ معها وشوهتْ وجهها بحامض كيميائي حارق...

ولما أتم المحامي كلامهُ، شزرني بعينه فلم أستطع أن أخبئ إبتسامة الأنتقام.. شعرتُ أنيّ قد فعلت الصواب، حينها لكن شعوراً مريراً ظل يلازمني بعد ذلكَ، وخصوصاً بعد سماعي خبر أنتحارها في السجن وقتلها لنفسها شنقاً، كرهتُ نفسي في الأعماق وشعرتُ وكأن جزءاً من روحي قد مات، لم أعد ذلكَ الشخص الطيب الذي كنتهُ، كانت نقطة ضياءٍ واحدة أُبصرها في عالمي ذاك، إلا وهي طفلتي التي لم تعد صغيرة وأخذت تكبر...

لما سكنت فؤادي

(الجزء الثالث)

أخذتُ أطيل السفر في كل مرة أرحل فيها عن قصري لأن قلبي يعتصر بألم وتنتابني موجة إكتئاب شديد ما أن المح القصر من بعيد وأنا قادم في سيارتي التي يقودها سائقي الخاص، لقد أغلقتُ تلكَ الغرفة بما فيها ووضعتُ عليها الأصفاد مثلما وضعتها على قلبي وكلما مررتُ قربها يعتصر قلبي ويقطر دماً أصبحتُ أسافر لسبب أو بلا سبب لأجلِ أعمال الشركة أو ليس لأجلها، مجرد هروب من نفسي...

الى أين؟؟

لم أعلم، تركتُ طفلتي آخر مرة وهي في الرابعة عشر من العمر أحتفلتُ بعيد ميلادها بإقامة حفلة صغيرة تضمني أنا وأياها والمحامي طبعاً مع الخدم فحسب، لم أعد أحبُّ الأختلاط بأحد ولم أعد أحبُّ أن أرى أحداً في منزلي.. أصبحتُ شخصاً أنعزالياً حتى أنني لم أعد أسال عن أخوتي كثيراً ولا عن والدي (ولست فخوراً بذلك حتماً)...

مكثتُ عامين في باريس، تَلك المدينة التي كنتُ أهرب إليها كثيراً لأنني بين أجوائها أنسى نفسي.. تحيطني المعجبات لثرائي ووسامتي وأظل هارباً طول الليالي في الملاهي من نفسي كي أرتمي على السرير نائماً طوال النهار وأقضي وقتي هكذا سكيراً أحمق حقوداً على الحياة تركتُ الدين منذُ تلكَ الحادثة ولم أعد أتكلم مع ربي ولا أدعوهُ فشعرتُ أني في تيه عظيم، وكلما حاولتُ الهروب من نفسي إنغمستُ في الموبقات أكثر حتى أني نظرتُ الى نفسي يوماً في المرآة لأجدني وأنا أنظر وجهيَ الفاقع شخصاً آخر لم أعد أعرفهُ.. صحيح أن عضلاتي لم تزل مفتولة ولأني لم أترك تماريني اليومية، لكنني كنتُ أمارسها كشيء لابد منهُ كالأكل والشرب دونما رغبةٍ أو

نشاطٍ أو لذةٍ، لقد فقدتُ أستشعار اللَّذات بأعظمِ لذاَّتِ الحياةِ لأني فقدتُ نفسي ولم أعد أعرف ماالعمل؟؟

وعدتُ أخيراً بعد إنقضاء عامين لم أعلم متى انقضيا، كان لابد لي من العودة تحت الحاحِ محاميّي.. صحيحٌ أنني قد تركتُ من ينوب عني بالقيام بأعمال الشركة، لكن المحامي أرسلَ لي مرات لاتحصى رسائل يخبرني بها أنَّ علي العودة الى وطني ومتابعة أعمال الشركة والعقارات كجزء أساسي من تطبيق وصية عمي ولعلهُ فقد صبرهُ آخر مرة حيث أرسل لي تهديداً بخسارتي لكل ممتلكات عمي وذهابها الى الأيتام إن لم أعد وأطبق ماكُتبُ في الوصية تحت إشرافهِ...

عرفتُ أنهُ قد تحملني كثيراً وقررت العودة على مضض.. إشتريتُ بشكل سريع بعض الثياب لطفلتي كما كنتُ أذكرها آخر مرة، فتاةً في الرابعةَ عشرَ تحاول للتو ترك الطفولة ودخول عالمي القاسي عالم الكبار إشتريتُ لها لعباً كما اعتدتُ وعُدْتُ مثقَلَ الخطوات..كان المحامي في أنتظاري عندما دلفت بهو القصر الفخم...

وأخيراً عدت...

مرحباً بكَ، أنا سعيد فعلاً برؤيتكَ...

هتف المحامي الكهل وهو يبتسم وتقدم يصافحني ويربت على كتفي...

- شكراً لكَ أيها المحامي الوفي، أنا أعتذرُ لكَ لم أكن قادراً...

أنا أتفهم موقفكَ نعم، نعم لا بأس عليكَ ولكن كفاكَ لن تعود الى باريس مجدداً، لن أسمح لكَ...

قالَ معبساً فجأة فحاولتُ تغيير مجرى الحديث...

أنظر جلبتُ لكَ بعض الهدايا من باريس أنا أعرف عطركَ المفضل صديقي الوفي أنتَ!!

وبينما كنتُ أستخرج العطر الثمين من بين أغراض حقيبتي إذ أنَّ حقائبي الأخرى قد حملها الخدم الى غرفتي وأشرتُ عليهم أن يُبقوا لي هذه الأخيرة، لأوزع هدايا للمحامي ولطفلتي، أقول، بينما كنتُ أستخرج هدية المحامي إذا بي أسمع صرخةَ هتافٍ سعيدةٍ باسمي.. رفعتُ

رأسي نحو مصدر الصوت بسرعة فرأيتها تهبط السلم مسرعة نحوي واحتضنتني بسعادةِ الأطفال وهي تقول...

- بابا، لقد عدتَ أخيراً، مرحباً بكَ إشتقتُ اليكَ...

ولما رفعت رأسها وابتعدتْ عني صُعِقنْا كلانا.. كانت نظراتُها مدهوشة، أما أنا فقد أصبحتُ بِحيرةٍ شديدةٍ.. لم لم أعد أعرف ماأقولهُ لها، إذ ماتت الكلمات فوق شفتي نظرتها...

يارب.. ماهذا؟!

هتفتُ بأسم الرب بعدَ طول هجران...

سبحان الله...

قلتُ في روعي جمالها الأخّاذ سحرني، أصبَحَتْ فتاةً غضةً رائعةَ الجمالِ، لمْ أعرفها أبداً فهي لم تعد طفلتي...

- هل أنتي طفلتي؟؟...

تمتمت بغباء وأنا أنظرُ إليها بينما كانت تشعر بالإحراج لأنها إحتضنتني قبل برهة، ورفعت رأسها بخجل وتمتمتْ...

- نعم يا والدي!!...

نظرتْ إليَّ بخجل وكأنها تقول لي أنني تغيرت كثيراً.. عيناي قالتا لها نفس الكلام، لقد صعقنا كلانا...

- حسناً...

قلتُ متداركاً إرتباكي وأنا أستخرج العابها وتكاد الدموع تطفر من عيني، أنا الذي تجمدت الدموع في مقليته وتحجر قلبهُ، كدتُ أبكي فجأة!!...

- حسناً، أنا أعتقد أن هذه الهدايا لم تعد تناسبكِ سأشتري لكِ هدايا من هنا على ذوقكِ أنتِ،

أنا أعتذرُ جداً منكِ...

- لا، لا داعي للأعتذار ياأبتِ...

قالت وهي تغض النظر عني وتحرك قوامها الفتي يميناً ويساراً بدلال فتاةٍ غضةٍ في السادسة عشر قد تفتحتْ زهرةً رائعة الجمال تسر الناظرين، كان ثوبها الفيروزي بلون عينيها يميل معها برقةٍ وجمال متناهيين، شعرتُ بإحراجها الشديد فحاولتُ تدارك الأمر وقلتُ لرئيس الخدم فجأة، ألمْ تعدّوا الطعام بعد، أنا جائع جداً فطعام الطائرة لا يلائمني مطلقاً...

- بالطبع سيدي، أجل أجل، دقائق ياسيدي وتفضل الى غرفة الطعام عن أذنكَ...

تعال نجلس بينما يحضرون المائدة ياصديقي العجوز...

قلتُ لمحامي مبتسماً كي أدع لطفلتي فرصة للأنصراف فالتفتت بسرعة نحوي وهي تقول مطرقة الى الأرض...

- عن أذنكَ أبتِ...

- تفضلي بالطبع...

وجلستُ مع محامي أستعلم منهُ ماجرى خلال ذينك العامين وقد أنشرحتْ أساريري لسببٍ لا أعلمهُ، وأصبحتُ سعيداً بجلوسي قربهُ وأنا أنظر عبر النافذة الواسعة لغرفة الجلوس حيث كنتُ أنا جالساً، طفلتي تجلس فوق أرجوحتها وهي تهزُّ نفسها بها، أنهَّا هي طفلتي نفسها حيث تركتها تلعب بالأرجوحة قبل عامين، فمُتعتها منذُ صغرها كانت الجلوس وسط الحديقة فوق الأرجوحة الخشبية المخصصة لها...

وعندما حانَ وقت الطعام جلست قبالتي دون كلام وكذلكَ أنا عند رأس المائدة، أما المحامي فقد أستمرَ بتوجيه تعليماتهِ إليَّ وظلَّ يذكرني أنَّ سفرةً واحدة أخرى ستعرضني الى دفعةٍ كي يطبّق الوصية ويسحب الأموال كلها مني وذكرني أن هنالكَ عامين فقط حتى أكون حراً بدون وصاية على طفلتي وتنتقل أموال عمي التي تركها إليها، عندَ ذاكَ نظرنا الى بعضنا أنا

وإياها.. نظراتها البريئةُ الخائفة أسرت قلبي وكأنها تقول لي: لا، لا أريد أن تنتهي فترة وصايتكَ علي، أنا أخاف ذلكَ، ولا أريدُ العيشَ دونكَ ونظرتُ إليها.. طفلتي الصغيرة التي كانت تتعلق بساقي لما أهم بالخروج ولاترضى إلا بمرافقتي أينما ذهبت تلكَ الطفلة التي تحملتْ ماتحملْتهُ من تلكَ الزوجة الخائنة لأجلي...

«ياترى؟؟ هل نسيتْ»...

قلتُ في سري متسائلاً...

- ياصديقي العجوز كفاكَ ثرثرة أنا أعلم تماماً أن هنالكَ عامين فقط وتعلن عن نقل نصف ملكية عمي الى إبنتي بالتبني، وماذا يعني هذا قل لي...

يعني أنها سوف تكون حرة في التصرف بأموالها وتستطيع الخروج من قصركَ لتعيش بمفردها، ولاتنسى أنها ستكون قد أنهت دراستها الثانوية حينذاكَ ومستعدة لدخول الجامعة...

تبادلنا النظرات للمرة الثانية أنا وطفلتي ولم أجب بشيء وتناولنا طعامنا بصمت.. أستمرَّ المحامي بثرثرتهِ عن تبذيري أموال عمي وعن طريقة حياتي التي أصبحتُ عليها، وكيف أنني لا أستحق ماتركهُ عمي لي وظل يعدد لي مساوئ الحياة دون هدف أو عمل وكيف أن حياتي أصبحتْ كذلكَ، لم أتكلم مطلقاً، لكنني شعرتُ بعينيها تراقبانني بحزن وقلق فكلّما رفعتُ عينيَّ بأتجاهها أطرقتْ بخجل ووجوم وأعلن المحامي فجأة...

حسناً، أنهُ من الرائع أنكَ حضرتَ قبلَ أن نقرر إقامة عيد ميلاد ابنتكَ السادس عشر، يجب أن تدعوا المعارف وكل الطبقات الراقية في المجتمع.. يجب أن تتعرف هذه الصغيرة على الحياة وتراها بعيداً عن الأنطواء والعزلة اللتين عاشتهما عمراً كاملاً بسبب سفراتكَ وتركَكَ إياها لوحدها!!...

صعقتني كلماتهُ.. رفعتُ رأسي نحو طفلتي فعلاً لقد ظلمتها معي فهي لم تعش خارج جدران منزلنا الكبير مطلقاً اللهم إلا في الثانوية الخاصة بالفتيات ذات الأنظمة الصارمة والقوانين المتشددة.. عندما أقيمت الحفلة وحضر المدعوون مع أبنائهم الشبان الى منزلي الكبير،

كل يمني نفسهُ أن يخطف قلب صغيرتي لأنهم علموا أنها أميرة القصر التي لم تغادرهُ أبداً، صبية غرة يمكنهم الأيقاع بها بسهولة بكلامهم المعسول، كم كنتُ خائفاً عليها وكم فكرت فيها قبيل الحفلة وتمنيت في سري أن لاتقام أبداً...

هبطتْ السلم الرئيسي المطل على قاعة الأحتفال فتاتي الصغيرة في ريعان الشباب جميلةَ القوام، فارعة الطول، حسناء الوجه، رائعة الصفات، وكان ثوبها الأزرق المسود الذي أخترتهُ لها بنفسي بعد أن رأيتُ إعجابها به مرتسماً في عينيها وأنا ومعها نجول المحلات القريبة كي نشتري مستلزمات الحفلة وقد زادها حسناً وجمالاً وكذلك العقد اللؤلؤي الأسود الذي أشتريتهُ مع ذلك الوشاح الأحمر المخملي والذي لم تُبعدهُ عن كتفيها العاريتين بدونه طيلة السهرة، لقد أشتريتُ الحذاء لها أيضاً وقستهُ بيدي على قدميها كما كنتُ أفعل معها عندما كانت طفلة صغيرة مدللة ولقد شعرتْ بإحراج شديد مني لمّا فعلتُ إلاّ أن شعوري تجاهها كأب كما كنتُ أفعل دوماً جعلني أبتسم بوجهها وأقول:

- هل تخجلين من أبيكِ ياطفلتي!!...

فتورد وجهها خجلاً مني وزادها خجلها حسنا وجمالاً...

جلست أمام البيانو تعزف كما عودتني منذُ أن كانت صغيرة يومياً تعزف مقطوعة موسيقية لشوبان أو موزارات أو باخ، نظرتُ إليها وهي تقف أمام أولئكَ الشبان الذين أخذوا يعَّرفون أنفسهم إليها بعد أن أكملت عزفها وأخذوا يتملقونها فشعرت بالإشمئزاز في داخلي وتساءلت بغضب، هل سيلوثون نقاء طفلتي؟؟ هل ستدخل حبيبتي الصغيرة عالمي المسعور وتترك جمال طفولتها الذي عهدتها به!!

زممتُ شفتيّ بحنق شديد، وشعرتُ بموجة عارمة من الغضب تجتاحني وتمنيتُ في سري أن أطرد جميع المدعويين وأصرخ فيهم بأعلى صوتي لينصرفوا، وأخذتُ لنفسي مكاناً منعزلاً عن أولئك الصبية حيث جلستُ الى طاولة صغيرة أشرب عصيراً جلبهُ الخادم لي وكنتُ أراقب طفلتي من بعيد وهي تتكلم بخجل مع ذلكَ الشاب الذي تقدم مع عائلتهِ ليعَّرف نفسهُ لها

وبقيت أراقبها بين الفينة والأخرى حيث تأتي أمراةٌ ما تقدم ولدها وتظل معها حينا من الوقت كي يتسنى لأبنها عرض عضلاتهِ أمام صغيرتي الغرة.. كم تمنيت في سري أن ألكِمهم جميعاً على أفواههم وفجأة جاءت أمرأة في عقدها الرابع نحوي وكانت طليقة رجل أعمال أعرفهُ، تململتُ قليلاً قبل أن تفرض نفسها علي بالجلوس الى طاولتي حيث جلستْ وبدأت بالتعريف عن نفسها والثرثرة الفارغة عن حياتها ثم تكلمت عني وكيف أنَّ طليقها كان يثني عليَّ وعلى أعمالي في الشركة وظلت تثرثر ظناً منها أنها ستنال ولو نزرا يسيرا من أنتباهي، لما ألتفتُ في منتصف الحفلة الى مكان طفلتي حيث تركتها آخر مرة ولكنني لم أجدها فجن جنوني ونهضت دون أستئذانها أبحث عن طفلتي هنا وهناك في أركان الصالة الكبيرة فلم أجدها.. شعرتُ بضيق شديد وذهبتُ الى الحديقة أبحث عنها، كنتُ أعرف أين أجدها، لعلها ذهبت الى حديقة الورد التي زرعتْها بنفسها منذُ كانت طفلة في العاشرة من عمرها لما طلقت زوجتي وعدتُ أباً لها أرعاها وأبرُّ بها لتكون حديقتها السرية حسب قولها، وصدق ظني فقد وجدتها هناك جالسةً على مقعد من الخشب تتأمل بمفردها واجمة سارحة الفكر وكم تمنيتُ أن أعرف فيم تفكر؟؟

قررتُ اقتحامَ خلوتها وقطع حبل صمتها فجأة فقلتُ...

لماذا أعتزلتِ الحفلة والناس؟؟

إلتفتَتْ إلي بفزع إذ لم تتوقع قدومي...

- حسناً، أنا لا أحبُ تلكَ الأجواء الصاخبة على الأطلاق...

- هل أنتِ بخير ياصغيرتي...

قلت بقلق، فالتفتتْ إلي وابتسمت قائلة...

-هل تستمع الى هذه الألحان الموسيقية الرائعة...

- نعم، إنها أصوات الفرقة الموسيقية في حفلتكِ أو ليس كذلك؟؟

التفتت إلي فجأة واقتربت مني بخوفٍ وقد أرتسمت آثار الذعر على محياها...

- أبتِ الغالي، هل يمكنني أن أسالكَ شيئاً ما...

- سلي ماتشائين...

قلتُ بقلق وأنا أنظر الى عينيها الخائفتين...

أنا أعلم أنني لستُ أبنتكَ الحقيقية، وأعلم أنك قد قمتَ برعايتي متفضلاً منذُ كنتُ في اللفافة، لقد عرفت كل شيء في ذينك العامين اللذين تركتني فيهما، لم أكن قبلها أدرك إلا أنني أبنتكَ من لحمكَ ودمكَ.. وظننتُ أنك والدي...

كانت صدمة لي في البداية، لكنني زدتُ أحتراماً لكَ وخشيةً أن أفقدكَ، لأنني، ليس لي أحد في هذه الدنيا سواكَ ياأبتِ...

لكنني الآن خائفة جداً، فهل سأبقى في هذا المنزل بعد أن يعطيني المحامي حصتي من تركة عمكَ، أم أن عليَّ الذهاب بعيداً، هل سيكون لزاماً عليَّ أن أغادر، أم ماذا علي أن أفعل، أنا لاأعرف كيف أعيش بعيداً عن هنا ولا أحبُّ مكاناً أكثر من منزلكَ هذا، حيث ترعرعتُ وكبرتُ، حيث غمرتني أنتَ بكل حنان الدنيا ولم تتركني أحتاج شيئاً، أنا لا أستطيع نسيان تلكَ اللحظات الجميلة التي كنتَ تأخذني بها الى مدينة الألعاب وكيف كنتَ تشتري لي كل يوم شيئاً جديداً، كيف كنتَ تلاعبني في ساحة المنزل هنا أنا أتذكر هذا كلهُ كحلم جميل...

وصمتتْ...

نظرتْ إلي بعينيها اللازورديتين وكأنها تستنجدني لأنقذها من حيرتها، نظرتُ إليها بقلق ووجوم وقلتُ أخيراً...

لا أحد على وجه الأرض قادرٌ على أخراجكِ من منزلكِ هذا غيرَ نفسكِ، أنتِ فقط مهما سيكون ومهما سيقول المحامي بعد عامين عندما تنتهي وصايتي عليكِ فأنا أعدكِ بشرفي أن لاتخرجي من هذه الدار إلا برضاكِ أنتِ...

وما أن قلتُ كلماتي تلك حتى تنفستْ هي الصعداء وشعرتُ أنها وجدت في كلماتي كل

العزاء إذ نظرتْ إلي بأمتنان وتقدمت نحوي أكثر من ذي قبل وهمست بصوت حيي...

- هل يمكنكَ أن تراقصني على هذه الألحان ياأبتِ فأنا لا أثقُ بأحدٍ في هذه الدنيا سواكَ أنتَ؟؟ وما أجمل هذه الألحان!!

هل سندعها تذهب سدى؟؟

نظرتُ إليها بدهشة وقد حرتُ جواباً، لكن يديَّ أسرعتْ بالأمساك بيدها، ووضعت يدي الأخرى على خصرها بشكل آلي لأراقصها تحت ضوء القمر بين تلك الورود على الحان تلك الأنغام الملائكية، شعرتُ فجأة أني قد عدتُ صبياً، لم أعد ذلكَ الرجل الذي تجاوز الثلاثين بأعوام ثلاث ذاكَ الذي أثقلتهُ الحياة بجراحها، ولم يعرف معنى السعادة مطلقاً حتى تساوى لديه الموت والحياة، نظرتُ إليها كانت عيناها تلتمعان ببريق غريب زادهما جمالاً...

- مهما سيخبرنا المحامي عدني بشيء ياأبتِ إني أرجوكَ...

قالت فجأة فتوقفنا ننظر لبعضنا، قلت لها مندهشاً...

- بم أعدكِ؟؟

- أنكَ لن تتركني بعد هذا اليوم أبداً ياأبتِ وياوالدي!!

قالت ذلكَ وأطرقت بعينيها خجلاً مني ثم أستدارت بكليَّتها خشيةَ النظر في عينيَّ، وعند أستدارتها سقط الوشاح الأحمر الذي كان يغطي كتفيها العاريتين فبان أمام ناظري أثر السكين الحارقة مرسوماً بشكل واضح فوق أعلى ظهرها من الكتف الى الكتف الأخرى، فعادت ذكرياتي المؤلمة مسرعة إليَّ وغضضت بصري وقلبي يعتصر ألماً، قلتُ لها بعد حين وأنا أضع الوشاح على كتفيها مرة أخرى...

- بالطبع لا، أنا أعدكِ صغيرتي الغالية، لن أتركَكِ مطلقاً مهما يكن من أمر، ومهما قال المحامي...

ألتفتت إلي وعيناها تنطقان سعادة وفرحاً...

قلتُ لها بألم وأنا أنظر الى عينيها الجميلتين...

- إذاً فأنتِ لم تنسي ماحصل؟؟

نظرت إلي بقلق...

- ماذا تعني!!

فهمت من نظرات عيني ماأعنيه...

لم لاتدعيني أذهبُ بكِ الى الطبيب ليعمل جراحة تجميلية لكِ؟؟

-كلا لا داعي لذلك، أنا تصالحتُ مع نفسي ولا أهتمُّ بما جرى...

توقفتْ عن الكلام قليلاً ثم نظرتْ إليَّ نظراتٍ أخترقت روحي البائسة...

- أبتِ الغالي، أنا لا أزال أذكرُ ماجرى وكأنهُ الأمس لكنني لا أرضى أن أراكَ حزيناً.. طلبي هو أن تنسى الماضي ورجائي لكَ، هو أن تسامح نفسكَ وتدع الماضي يولي بعيداً.. ياأبتِ يجب عليكَ أن تسامح نفسكَ وتتوقف عن جلدها كل يوم ألف مرة...

صعقتني كلماتها قالت لي متداركة...

- هل يمكن أن نصبح صديقين؟؟

كي تعوضني عن ذينك العامين اللذين تركتني فيهما سجينة هذه الجدران؟؟

كما عصفور في قفص من ذهب ألستُ كذلك؟؟

هل يمكن أن تعرفني على هذا العالم وتخرج بي من هذا القصر لتريني أماكن لم أراها؟؟...

نظرتُ إليها بخشوع وكأنني في عالم آخر لايمت لعالمي بشيء.. تمتمت بدون وعي بسرعة...

- بالطبع ياصغيرتي، أنا تحت أمركِ، وسأعمل كل ماتشائين وسأحاول تعويضكِ عن كل لحظة تركتكِ فيها ياغاليتي الصغيرة...

لما سكنت فؤادي

(الجزء الرابع)

أصبحتُ أخرج كل يوم مع طفلتي (التي لم تعد طفلة) الى مكان جديد لأريها العالم الذي لم تراهُ على حد تعبيرها ونتجول سوية في مكان جديد أو متحفٍ لم ترهُ من قبل أو حتى سينما لم تدخلها قبلاً، أخذتُ أعرَّفها على معالم مدينتنا وطرقاتها وأماكنها السياحية ومنشآتها الخدمية...

ندخل كل يوم في مطعم جديد لم ندخلهُ قبلاً ونذهب كل يوم الى مكان مختلف عن الذي ذهبنا إليه بالأمس، كانت أبتسامتها المشرقة أجمل شيء في الوجود أدخل السعادة الى قلبي الحزين، وضحكاتها الطفولية البريئة كانت كدواء سحري لروحي الكئيبة التي ظننتها ماتت منذ زمن بعيد، لكن هاهي ذي تنطلق سعيدة وكأنها كانت سجينة في قفص ما فكلما نهضتْ سقطت في هاوية سحيقة وأسقطتني معها، وجدتُ نفسي فجأة قد تركتُ معاقرة الخمر، وتركتُ كل شيء اعتدتُهُ خلال فترة هروبي من نفسي...

جل ماكان يهمني هو البحث عن طريقة أرى فيها أبتسامتها وأسمع فيها ضحكاتها كجرس سحري يداوي جراح قلبي الأحمق الذي طعن وواريتهُ الثرى بسرعة دون علاج منذ زمن بعيد.. شعرتُ فجأة أنَّ هنالكَ معنى لحياتي وأنَّ هنالكَ هدفاً، سألت نفسي...

ماهدفكَ؟؟...

يوماً ما وأنا أجلس قرب موقد النار المثبت بالجدار على كرسيي الأثير، أستمع اليها تعزف على البيانو كما اعتادتْ أن تفعل كل يوم في ساعة محددة من بعد الظهر مقطوعة ما وأحياناً مقطوعتين أو ثلاث، كنتُ أستزيدها بإشارةٍ من يدي وهي جالسة عند آلتها الموسيقية في منتصف الصالة الواسعة حيث كنتُ أجلس في نهايتها...

لما سألتُ نفسي عن هدفها أسرعت روحي تجيب بدفعةٍ من الأثارة والمتعة اللتين

أفتقدتهما دهراً، لأجلِ صغيرتكَ تعيش إنها تثق بكَ، وليس لها أحد سواكَ، إنها بحاجة ماسةٍ لكَ الآن فمن الذي سيأخذ بيدها في هذا العالم المجنون، ألم تقل لكَ ذلكَ بنفسها؟؟

فأشعر بنشوة نصر وسعادة ليس لهما مثيل، قالت لي ذاتَ يوم بينما كنا نتمشى فوق جسر صغير والنهر أسفل منا وهي تتناول الآيس كريم الذي أشتريتهُ لها، لم لا نذهب أسفل الجسر ونركب مترو الأنفاق، أنا لم أركب المترو مطلقاً يعجبني أن أذهب هناكَ كانت الشمس على وشك الغروب ومنظر الشمس فوق الجسر وهي تودع تلكَ المنازل الصغيرة مذهلاً، نظرت إليَّ تحثني على الأسراع، أمتثلتُ لما تريد وقلتُ لها كما أعتدتُ أن أفعل...

- طلباتكِ أوامر ياطفلتي الصغيرة...

فتبتسم بسعادة الأطفال كلما قلتُ لها ذلكَ ذهبتُ وإياها الى أسفل الجسر وهبطنا السلم الكهربائي وصلنا حيث يقطعون التذاكر، لا أدري كيف ومتى جاء فتى صغير ليخطف حقيبة يد صغيرتي ويهرب، إلتفتُّ بغضب وكنتُ قد قطعت التذاكر، أسرعتُ أركض خلف الفتى وهي تركض خلفي، ركضتُ كثيراً حتى آنقطعتْ أنفاسي وأخذتُ ألهث، ألتفتُ يميناً ويساراً، أختفى ذلكَ اللص الصغير نظرتُ الى صغيرتي فوجدتها تضحك وهي تلتقط أنفاسها...

- هيا أتركهُ ليس فيها إلا القليل من النقود، أنا سعيدة بهذه التجربة الجديدة.. إبتسمتُ من أعماق قلبي لطيبة قلبها وسذاجتها، كلمتُ الشرطي الآمر فقال أنهُ سيتخذ الأجراءات اللازمة وصعدنا المترو بسرعة أنا وصغيرتي، لم يعد هناكَ مكان للجلوس فقد تأخرنا.. بقينا واقفين وأمسكنا بذلك الحزام الصغير المتدلي من أعلى سقف المترو، تحرك القطار نظرتُ إليها...

- ماذا؟؟

نظرتْ إلي وهي تشير بعينيها الى مقعد قريب أمامنا، كان ذلك الفتى هناك أردتُ الذهاب بسرعة إليه لألقنهُ درساً لن ينساهُ، لكنها أمسكت يدي فجأة (وهي لم تفعل ذلك من قبل مطلقاً) نظرتُ إليها بقلق فآنفجرتْ بالضحك شعرتُ بدهشةٍ أولاً، ثم أخذتُ أضحك معها لما وجدتها

لاتتوقف عن الضحك.. كان الفتى قد رآنا وفرائصهُ ترتعد خوفاً من القبض عليه، نظرتُ الى صغيرتي لما توقفنا عن الضحك...

حسناً شكراً لكَ...

هَتَفتْ بسعادة شديدة وامتنان شعرتُ معهما أني بطل أسطوري، لم آبه بالفتى بعدها ولم أنظر إليه أبداً وفجأة لما توقف المترو في أول محطة هرع الصغير بالهروب، ولكنهُ رمى حقيبة فتاتي بآتجاهنا قبل أن ينزل من القطار.. نظرنا الى بعضنا مرة أخرى وأنفجرنا ضحكاً، كانت فعلاً مغامرة جميلة.. عندما حان موعد النوم بعد تناولنا العشاء صامتين قلتُ لها بسعادة...

تصبحين على خير ياصغيرتي...

- تصبح على خير ياأبتِ...

نظرنا الى بعضنا والسعادة تشعُّ من عينينا.. تمنيتُ أن يتوقف الزمن عند تلكَ اللحظات ونظل في تلكَ السعادة أبداً...

قالت لي ذات يوم...

لقد أخذتني الى كل مكان في مدينتنا وأريتني كل معالمها وشوارعها لكنكَ لم ترني مكاناً واحداً واحداً وهو أهم مكان في الوجود بالنسبة لكلينا...

- ماذا؟؟

تساءلت بجدية وأنا أحاول حل اللغز كل جهدي...

يجب أن تجيبني أنتَ...

فكرتُ وفكرتُ، لكنْ أُسقِطَ مابيدي.. قلتُ لها بعد حين ونحن جالسان في المقهى نتناول الفطور...

لاأعرف، قولي لي أنتِ...

أهم مكان في الوجود هو مكان ولادتكَ وترعرعكَ منزل والديكَ يا أبتِ!! نظرتُ إليها فزعاً.. ذُعرتْ روحي الآثمة...

أنا لم أزر والديَّ ولا أخوتي منذ زمن طويل، أنني لا أعرف شيئاً عنهم ولا هم يعرفون، كيف لي أن أذهب هناكَ بعد كل ذلك الهجران؟؟

فكرتُ بذعر وقلق وكأنها قرأت أفكاري كلها قالت لي...

- لابأس الأم تسامح والأب ينسى...

أهم شيء أن لاتظل قاطعاً لهما يجب أن تبرهَّما، يجب أن تراهما!!

وقع كلامها كالصاعقة على رأسي...

- لا، لا أستطيع...

- صدقني تستطيع ياأبتِ...

قالت ذلكَ وشدتني من ذراعي مشجعة.. نظرتُ إليها بألم...

- لا ماذا سأقول لهما أعتذر عن ترككما طيلة، سنوات وأنا جئت أزوركما الآن!!

نظرت إليَّ بجدية وقالت بحزم...

نعم، قل لهما ذلكَ واطلب السماح منهما، أنهما والدكَ من رباكَ سواهما، من أنجبكَ غيرهما، أنتَ تملك والدين في هذا العالم ولاتزورهما، لديكَ نعمة في هذا الوجود لاتعرفها، وتسيء أداء حقها، متى ستزورهما، لما يتوفيان مثل عمكَ؟؟...

ورفعتُ نظراتي إليها مذعوراً، كانت لا تزال واقفة قربي وهي تمسك بذراعي...

- تمنيت لو كان عندي والدان أعرفهما!!

قالت بألم وقد أطرقتْ فجأة وتركت ذراعي.. شعرتُ بحزنها وضعت نقوداً على طاولتنا ونهضت ممسكاً بذراعها وبأنامل يدي الأخرى رفعت ذقنها نحوي سنذهب لرؤية والدي...

سوف أُريكِ أين ولد هذا الشقي والدكِ الأحمق، وأشرتُ الى نفسي فنظرت إليَّ وإبتسمتْ بسعادة الأطفال مرة أخرى، لكنها هذه المرة ضمت رقبتي بذراعيها وقربتْ شفتيها من أذني لتقول لي...

- شكراً لكَ ياأغلى ما في وجودي، أنا لا أساوي شيئاً بدونكَ...

قالت ذلكَ وأسرعت بالخروج من المقهى تنتظرني أمامهُ، خرجتُ بعدها ونظرنا بعضنا بسرعة وابتسمنا.. أسرعتُ بأيقاف سيارة أجرة، أخبرت سائقها أين وجهتنا، عندما وصلنا قرب منزل أبي، أُعتصر قلبي بشدة.. شعرتُ بخوفٍ وذعر كبيرين، لم أستطع التقدم لطرق الباب أو ضغط زر الجرس.. حثتني صغيرتي بنظراتها لكن عبثاً حاولت فقد توقفتُ متشنجاً منكفأً على نفسي...

- لا، لا، لنعد أرجوكِ هيا...

قلتُ لها وفرائصي ترتعدُ...

عبثاً حاولتْ دفعي لطرق الباب وإستدرتُ أنا لأعود أدراجي لما فاجأتني هي بالقفز نحو الباب وضغط الجرس، عدة مرات، وضرب الباب سريعاً مرات متتالية بحيث لم تمر ثوان حتى سمعنا صوتاً من خلف الباب ينادي باستغراب...

- من هناكَ!!

خرج من خلف الباب فجأةً عجوز كبير، نظر نحوي بسرعة وكأنَّ صغيرتي لاتعني لهُ شيئاً بعد أن وقعت عيناهُ عليها بسرعة...

- هل أنا في حلم، قال وكأنهُ يحدث نفسهُ...

ملامحهُ لاتزال كما هي خلفَ تلكَ التجاعيد التي أرتسمت بفعل السنين...

- أبي، أنهُ أنا أبنكَ العاق، أنا لا أستحق دخول منزلكَ...

- أيها الأحمق تعال هنا...

هبطَ بسرعة وهو يتعثر فسقط على الأرض عندما أمسكتُ به ورفعتهُ بذراعيّ...

- ولدي الغالي، أبني البكر، ياإلهي!!

لقد عدتَ إليَّ...

أخذ يبكي وبكيت معهُ دون أن أشعر، في تلكَ الأثناء كانت والدتي تقف عند الباب وخلفها أخوتي الثلاث، هرعت نحو والدتي أقبّل يديها.. كان موقفاً مليئاً بالدموع والعناق والعتاب...

- سامحيني ياأمي، سامحيني...

مرغتُ وجهي بكفيّها وأنا أبكي، بينما هي تنشج وتعاتبني بحنان وتقبلنَّي بحب، عندما دخلنا الى المنزل عانقني أخوتي...

- رباه كم كبرتم، لقد أصبحتم رجالاً...

هتفتُ بسعادة.. أخي الأوسط كان شبيهاً بي جداً لكنَّ شعرهُ كان أشقر عكس شعري الأسود الفاحم، أما أخويَّ الأصغران فقد كانا توأمين متماثلين ذوي اشعر أحمر كبرا ليصبحا شابين وسيمين وبالأمس كانا طفلين عندما إعتدتُ زيارة أبي قبل سنوات طويلة.. نظر الجميع الى طفلتي، فقد تنبهنا لوجودها بعد فترة طويلة من اللقاء والأحضان والبكاء، تبسمتْ والدتي في وجهها وهتفتْ تفضلي بالجلوس ياآنستي...

- شكراً لكِ...

قالت بشكل مهذب بينما لاحظتُ نظرات الأعجاب في أعين أخوتي نحوها علاوة على علامات الأستفهام...

لما سكنت فؤادي

(الجزء الخامس)

جلسنا سوية أنا وأخوتي ووالدي حول مائدة الطعام وجلست طفلتي الصغيرة (الكبيرة) قبالتي، أحسست بدفء مشاعر تجتاح صدري، مشاعر افتقدتها منذُ سنين طويلة وحل الصقيع والبرد في أعماق روحي الخاوية بدلاً منها شعرت أني عدتُ طفلاً صغيراً أجلس مع والديّ وأتناول الطعام معهما نظرتُ حولي بسعادة كانا لايزالان كما هما في ناظري، أمسكت أمي بيدي بسعادة وضغطت عليها فوضعت رأسي فوق صدرها وقبلتُ وجنتيها اللتين أمتلأتا بالدموع، كان والدي ينظر إلينا بسعادة لا أستطيع وصفها، كانت عينا صغيرتي ترقبانني من طرف خفي فنظرتُ إليها بامتنان أردتُ أن أشكرها بكل جوارحي، لأنها جعلتني أعود طفلاً صغيراً، جعلتني أعود لدفء أسرتي.. كان أخوتي بالأمس صغاراً، كانوا يلعبون حولنا عندما جاء والدي بخبر انتقال ملكية عمي إليّ، وشجعني على الذهاب إليه لأن محامي عمي عرج على والدي حينها في عملهِ وأخبرهُ عن الوصية، كنتُ لا أزالُ في الخامسة عشر فتى غرا لا أعرف شيئاً عن الحياة ماذا جرى وكيف سارت بي سفينتي والى أي بحر هائج قذفت بي الأمواج؟؟ تمنيتُ لو أعود ذاكَ الشاب الصغير فأرفض عرض المحامي وأظلَّ في أحضان والديَّ واكدح للحصول على لقمة عيشي، أفضل عندي الف مرة من حياة الترف الغبية تلكَ مع روح شريرة سيئة الطباع، وعادات مليئة بالاثام، تمنيتُ لو أنني استطيع العودة بالزمن ماأجملَ حضن والدتي.. قبلتُ يديها مراراً ومرغتُ وجهيَ بهما، كانت الدموع لاتزال لم تنشف من عينيها الجميلتين اللتين كانتا تتكلمان معي وكأنهما تقولان لي كم أشتاقتا إلي...

- سامحيني ياأماه...

هتفتُ بألم والدموع تنهمر من عيني...

- كلا ياولدي.. لكنْ أولن تعرفّنا بهذه الجميلةِ الحسناء؟؟

قالت والدتي ذلكَ وهي تنظر الى طفلتي التي تضرج وجهها بالدماء خجلاً ونحن نلتفت إليها جميعاً فجأة، عندما هتف أخي الأوسط وكان يصغرني بعشرة أعوام...

- من هذه الفتاة الجميلة التي حطت علينا من السماء حقاً ياأخي أولن تعرفنا إليها؟؟

تبادلنا النظرات أنا وصغيرتي فأطرقتْ خجلاً عندما أعلنتُ أنا فجأة...

إنها إبنتي التي ربيتها والتي سترث نصف أملاكَ عمي بعد مدة من الزمن أن شاء الله...

فعلق أخي الأوسط مباشرة وهو ينظر إليها بشكل مباشر...

حسناً ياوريثة عمي مرحباً بكِ في أسرتنا وبيتنا المتواضع ماشاء الله أنتِ لستِ جميلة فحسب بل غنية أيضاً...

وهنا قرصهُ التوأمان وكان يجلس بينهما بحيث أنهُ صرخ بصوت عال فنظروا جميعاً إليَّ والى صغيرتي بوجوم لبرهة إنفجرت هي بالضحك وحولتْ إحراج الموقف الى سخرية لطيفة...

- شكراً لكَ ياأخ والدي الغالي...

هتفت صغيرتي بكل أدب وأضافت...

أنا مجرد إنسانة عادية ولولا لطف أخيكم الأكبر ورعايتهُ لي لكنتُ في الملجأ الآن ولكنتُ شخصاً آخر...

وأسرع أخي الأوسط بالتعليق على كلماتها تلكَ بقولهُ...

- حسناً إنهُ لم يفعل ذلك بدون سبب أو بلا ثمن وكل شخصٍ مكانهُ كان ليقوم بنفس الشيء...

وما أن أكمل جملتهُ تلك حتى صاح والدي بغضب باسمهُ...

- ماذا دهاكَ ياولد!!

نظرتُ إليه مشفقاً عليه، المسكين الصغير كان يشعر بالغيرة من ثروتي.. وتكلمتْ صغيرتي بغضب فجأة وهي تقف أمام المائدة كأنها تلقي خطاباً...

أنا لا أقبل أن تتكلم عن والدي هكذا، صحيح أنهُ جاء لمنزل عمهِ بسبب النقود وأي شخص لايفعل ذلك مكانهُ قل لي؟؟...

لكنهُ رعاني ورباني أكثر مما يرعى الأب أبناءه.. أنا لا أسمح لأي مخلوق أن يمس والدي بكلمة سوء (نظرت إلي بأرتباك وأضافت أخيراً) هل يمكنني الأنصراف الآن ياأبتِ؟؟

كانت ترتجف أنفعالاً، هرعتُ اليها وهي تسرع نحو الباب لترتدي معطفها.. كانت غاضبة جداً ووجهها مضرج بالدماء، إرتديتُ معطفي بسرعة وخرجت خلفها بعد أن ودعت والديَّ بسرعة هتفت أمي خلفي...

- هل ستزورنا بعد هذا ياحبيبي؟؟؟

قبَّلتُ يديها وأنا أرفعهما نحو شفتي بسرعة وتمتمتُ وكأنَّ على رأسي الطير...

- طبعاً ياأماه ولسوف تزورونني في منزلي الكبير...

إحتضنت أبي بسرعة وودعت إخوتي بحركة من يدي وأسرعتُ ألحق طفلتي التي رأيتها قد ركبتْ سيارة بسرعة فأستوقفتها وأنا ألهث...

- مهلكِ صغيرتي مهلاً، أنا قادم معكِ...

إلتفتتْ بخجل نحوي...

كلا يمكنكَ المكوث مع عائلتكَ، أنا أعتذر منكَ، لقد أفسدتُ أمسيتكَ، إذهب لوالديكَ سأعود الى المنزل بمفردي...

- يستحيل هذا...

قلتُ ذلكَ وأنا أركب الى جوارها فوق المقعد الخلفي للسيارة، حيث ناولتُ السائق نقوداً وأنا أدُّلهُ على وجهتنا، لم تنظر إلي طوال الطريق بل كانت تتعمد النظر عبر النافذة القريبة لها لتحاول تدارك أرتباكها، كنتُ سعيداً بدفاعها عني ومشاعر لذيذة تنتاب صدري بعد لقائي بوالدي...

- تصبحين على خير...

قلتُ لها وهي تلقي علي تحية المساء لتذهب الى النوم بعد أن صعدنا السلم وأتجهنا كل منا نحو غرفتهُ...

أنا جداً ممتن لكِ لقد أرجعتني اليوم الى عنفوان شبابي حينما كنتُ أزور والديَّ وقبل ذلكَ لما كنتُ صبياً غضاً أعيش معهما.. نظرتْ إلي بسعادة بتلكَ العينين البريئتين وهي تتمتم وكأنها تحدث نفسها...

- حقاً أنا سعيدة جداً لسعادتكَ، سنكرر زيارتهم أن أحببتَ أوْ لمَ لا تدعوهم هنا ليعيشوا معنا إن كانَ ذلكَ يسعدكَ؟؟

- ماذا!! يعيشون معنا؟؟ كلا، وصية عمي تنص على عدم إعطاء والدي أو إشراكهِ في شيءٍ من ممتلكاتهِ، لكنْ لكنني سأدعوهم الى حفلة ميلادكِ الثامن عشر بعد شهرين تقريباً من الآن...

- حقاً ستفعل ذلكَ؟؟

قالت صغيرتي بسعادة الأطفال، نظرنا بعضنا والسعادةُ تشع من عينينا، قلتُ لها بعد حين...

تصبحين على خير صغيرتي...

تصبح على خير ياأبتِ...

وذهبنا كلٌ الى غرفتهُ.. إستلقيت على سريري وفي قلبي آمال طوال وفرحةُ طفلٍ صغير خرج من داخلي، مرتِ الأيامُ سراعاً ووجدتُ طباعي تتغير، ومزاجي النزق وسوء خلقي يوليان بعيداً وكأنَّ شخصاً جديداً ولد من داخلي، فأصبحتُ كثير التبسم بوجه خدمي، لا

أصرخ بهم ولا أجلس وحيداً في أكتئاب وحزن، فكيف لي ذلكَ وتلكَ الفراشة الجميلة تطير حولي ولاتتركني بمفردي مطلقاً، فكل يوم كنا نخرج سوية الى مكان جديد ونستكشف أذواقنا التي إتّحدت في أغلب الأمور، فكلُّ شيء أحبهُ كنتُ أجدها ترغب في زيارتهِ أو رؤيتهِ أو خوض تجربتهِ، وكذلكَ ماكانت تحب هي وكأننّا خُلقنا من طينة واحدة بل كأنها ترتبط بي بحبل متين، ومرت الأيام على ذلك النسق حتى أني كنتُ أتهرب من أعمال الشركة أغلب الأحيان وأزورها بين حين وآخر كي أبقى قرب صغيرتي وأخرج معها كصبي صغير.. كنتُ أذم نفسي أحياناً وأهزؤ بشكلي وأنا أنظرها في المرآة...

- رباه!! إنني حقاً كبير جداً بالنسبة لها!!

لكنَّ نفسي كانت تخادعني مباشرة بقولها...

أنتَ والدها وهي بحاجتكَ ويجب أن تكون معها وتعرفَّها على هذا العالم وتأخذ بيدها لتكتشف الدنيا... وحان ميلاد أبنتي الثامن عشر.. خرجتُ معها بناءاً على طلبها لنشتري ثوباً جديداً يليق بحفلتها الصغيرة التي لم ندعوا أحداً إليها هذه المرة سوى محامي عمي ووالديَّ وأخوتي، ومررنا بمحلاتٍ كثيرة ولم تعجبنا ثياب أكثر، ومشينا كثيراً حتى تورمت قدمانا.. نظرتُ إليها أخيراً وأنا متعب للغاية، ربما عليكِ أرتداء ثوب ميلادكِ السادس عشر نفسهِ لا شيء قد أعجبنا هذه المرة مطلقاً.. وبينما أنا أقول لها ذلك وجدتها تنظر الى ثوبٍ رائع الجمال معلقاً على واجهةِ محلٍ صغير، كان آخر محل لم نزرهُ أنهُ هو مارأيكَ؟؟

وافقتها بنظراتي وشعرتُ بالسعادة لأنها وجدت ضالتها أخيراً، دلفنا الى المتجر لنشتري الثوب عندما هتفت بائعة المحل...

- رحماكَ يارب، أنهُ نفس الشاب الذي خانتهُ زوجتهُ وسجنتْ ثم قتلتْ.. نفسها... إرتسمتْ ملامح الذعر مباشرةً على وجه صغيرتي، بينما فاجأتني كلمات البائعة ووقعت كالصاعقة على رأسي، و أسرعتِ البائعة بتدارك كلماتها بالقول...

أعتذرُ منكَ سيدي، فلقد عانيتُ أنا أكثر منكَ لأنكَ قتلت زوجي ووالد أطفالي...

قالت ذلكَ بحنق ونظرتْ بغضب إلي فصعقتُ لنظراتها وعاد قلبي ينزف من جديد...

نعم أنا قاتل حقير يتَّمتُ أطفال هذه المرأة ولم أساعدها مطلقاً ولم أحاول أن أعرف عن أسرتهِ شيئاً...

- هل ترغبان بشراء شيء سيدي...

قالت بعد لأي وهي تكتم غيضها...

كلا لا نريد شيئاً، هتفت صغيرتي ومدتْ يدها لتمسك ذراعي وتجرني الى الخارج لكنني أصبحتُ كخشبةٍ مسندة...

- نعم أريد شراء هذا الثوب سيدتي وأريد كل مايناسب صغيرتي معهُ من محلكِ.. نظرتِ المرأة بذهولٍ إليَّ وقالت بعد برهة...

حسناً تفضلي آنستي لقياس ثوبكِ...

بعد إكمال البائعة كل الترتيبات المتعلقة بالبيع وضعتُ بين يديها وصلاً بمبلغ ضخم وودعتها وقلبي يعتصر ألماً، خاصةً وأنا أنظر الى أبنتها التي ظلتْ تنظر صغيرتي بغيرة وحقد وكانت تجلس خلف الصراف الآلي بجوار والدتها، وعدنا أنا وصغيرتي بعدها الى قصرنا لا نلوي على شيء وأحدنا لايكلم الآخر، وفي تلكَ الليلة ولما نمتُ.. فجأة صرختُ بألم صرخة جعلتني أنهض من نومي وأنا ألهث.. صرخةً كانت كافية كي تجعل طفلتي تهرع الى غرفتي وتجلس عند سريري وهي تلتقط أنفاسها اللاهثة...

- ماذا جرى، مابكَ؟؟

هتفتْ صغيرتي بقلق شديد، وهي تنظر بذعرٍ إليَّ، كان العرق يتصبب من جبيني، وضعتْ يدها الصغيرة على جبيني ومسحتهُ بمنديل صغير ثم ناولتني الماء بسرعة وهي تردد بذعر...

- ماذا جرى، ما بكَ؟؟

كانت نظراتي حائرة وقلبي يخفق بقوة.. رأيت نفسي في كابوس مريع وأنا أفجر رأس ذلك

الرجل بمسدسي مرة أخرى ودماغهُ ينتشر فوق سريري...

كانت الدماء في كل مكان وقلبي يعتصر حقداً وغضباً، وكانت زوجتي الخائنة هناك فوق السرير تتوسل إليَّ كي لا اقتلها لكنها هذه المرة مشوهة الوجه بحامض الكبريت الحارق، شهقتُ عدة مرات وأنا أتناول كأس الماء من بين يدي صغيرتي...

- سلامتكَ!!

ياربي ماذا أفعل الآن لكَ قل لي ماذا أفعل أيها الغالي قل لي...

كانت تقول ذلكَ وهي تمسح بيدها شعري تارة، وتارة أخرى جبيني وصوتها يتهدج قلقاً علي.. عدلتُ جلستي فوق سريري بعد أن هدأ روعي رويداً رويداً وأنا أتناول الماء من بين يديها بين فينة وأخرى بينما كانت تهدئني بكلماتها وتقيس حرارتي بظاهر كفها كل هنيهة، نظرتُ إليها بإمتنان وأمسكتُ يديها اللتين رعيتاني لاحت مني نظرة إليهما فرأيت أثر الحروق على معصميها فأدمعت عيناي وبكيت...

أرجوكَ، لا لا تفعل ذلكَ...

صغيرتي كل ذلك بسببي...

قلت ذلك وقبلتُ معصميها دون شعور مني فسحبتهما بسرعة ونهضت خائفة وهربتْ من غرفتي.. لم نلتقِ في اليوم الثاني ولم أرها عند الفطور ولا الغداء ولما سألتُ عنها الخادمة قالت أنها تشعر بتوعك ولاتستطيع ترك السرير، فحزنتُ عليها لأنها مرضتْ يوم ميلادها الثامن عشر.. إنتظرت نزولها من غرفتها وأنا جالس على كرسي الأثير، حيث كنتُ أستمع عزفها من قبل حتى المغرب، عندما إقترب موعد حفلتها، إذ كان لابد لي من معرفة حالها كي أقرر إلغاء الحفلة من عدمها...

قرعتُ باب غرفتها، ردت من خلف الباب...

من هناكَ؟؟

- أنا ياصغيرتي، هل أنتِ بخير؟؟

- نعم أنا بخير...

- هل أقيم الحفلة أم لا، لم لا تتناولين الطعام؟؟

- كنتُ اشعر بالأعياء قليلاً أنا الآن على مايرام...

- حسناً، هل أرسل الطعام إليكِ؟؟

- كما تشاء...

تركتها وعدتُ أدراجي لأصدر الأوامر للخدم كي يرتبوا المكان لحفلتنا الصغيرة بعد أن أمرتُ الخادمة بالذهاب بالطعام لصغيرتي في غرفتها، حضر والداي وأخوتي بعد ساعتين وكان كل شيء جاهزاً وطلبات الكيك والحلويات والزينة قد وصلت ورُتبَّتُ كما ينبغي، جلس أخوتي قرب والديَّ على الأرائكَ، ينتظرون قدوم صاحبة الحفل حينما رن جرس الباب وأعلن الخادم عن وصول المحامي...

سلم المحامي علي بحرارة ونظر الى والدي بدهشة، ثم إستذكرهُ بسرعة فشد على يديه بحرارة وحماس...

- سررتُ برؤيتكَ أيها العجوز...

هتف المحامي بينما نظر والدي إليه ورد بإنفعال...

- شكراً أيها الكهل سررتُ برؤيتكَ بعد كل هذه السنين...

جلسنا نتسامر سوية وأخذتُ أحادث أخوتي عن حياتهم ومامروا به وماهي طموحاتهم بينما والدتي جالسة بقربي تمسك بيدي بسعادة وأنا أشدُ على يديها، فجأة رأيتُ عيون أخوتي تتوجه الى مكان جديد وكأن على رؤوسهم الطير.. ونهضوا جميعهاً دون شعور، ألتفتُ حيث كانت أنظارهم معلقة، فوجدتها تنزل السلم كأميرةٍ من القصص الخرافية.. هبطتْ متجهة نحونا، حيث وقف أخوتي وحيث جلستُ أنا، شعرها الأسود الطويل منسدل حتى خصرها بينما ثوبها

الأسود الطويل يزيدها جمالاً وبهاء طلعة، شعرتُ أني مسحور بعينيها، لما لاحت منها نظرةٌ إليَّ كأنها تستعلم بها عن حالي بقلق وتهرب مني في نفس الوقت بخوف ووجل، عينان تخافان عليَّ ومني، لم أشأ أحراجها أو أزعاجها فتركتها تتصرف بحريتها دون أن أكلمها مطلقاً...

جلستُ بقرب والديَّ بينما اقترب أخي الأوسط منها وجلس يحدثها وبقربه أخوي التؤامان.. أخذتُ أتأملها وهي تندمج في أحاديثهم، وتبتسم تارةً وتضحك تارةً أخرى شعرتُ أني أغار عليها حتى من أخوتي، بقيتُ أرقبُ كيف تتغير تعابير وجهها مع مجاملات أهلي ومديح أخوتي الذي كانَ أقرب الى الغزل منهُ مديحاً وبالأخص أخي الأوسط الذي كان جريئاً جداً وأخذ يسألها أسئلة كثيرة فتتورد وجنتاها تارة وتطرق خجلاً من مجاملاتهُ الوقحة تارة أخرى، تمنيتُ أن ينتهي الحفل بسرعة، نظرَ أخي الأوسط إلي بينما كان أهلي ينصرفون وهو معهم وغمزني قائلاً...

- سآتي لزيارتكم دوماً ياأخي العزيز، فما أجمل قصركَ وماأروع أبنتكَ!!

تمنيتُ أن أضربهُ بعد تلميحهُ ذاكَ وخصوصاً عندما همس في أذني وهو يحتضنني...

أنها في غاية الجاذبية ياأخي الغالي لقد ربيتَ فتاة رائعة حقاً، جميلة وثرية وداعاً والى الملتقى قريباً...

جلس المحامي بوقار وأخرج الأوراق من حقيبة سوداء ووضع نظارتهُ وهو يركز على قراءة الوصية...

- الآن الجزء الأخير من الوصية وأخيراً، قال متنفساً الصعداء وزهو النصر في نبرات صوتهِ وقسمات وجههِ بينما كان ينظرنا نظرة خاصة أنا وصغيرتي إذ أعلن قائلاً وهو يقرأ الوصية...

أنا المدعو... (وذكر اسم عمي كاملاً)...

أوصي وبكامل قواي العقلية بكل أملاكي ومن ضمنها قصري الذي وهبتهُ لأبن أخي مسبقاً الى حفيدتي الوحيدة من دمي ولحمي إبنة إبنتي التي ليس لي وريث سواها، ومن ضمن أملاكي شركتي (...) التي يظل أبن أخي رئيساً ومديراً لها ومشرفاً على كل أعمالها، إنني أعلم

أنكِ الآن تسمعين كلمات محاميي المخلص إن كان لايزال على قيد الحياة وإلا فأنني أوصيتهُ بتحويل أمور وصيتي الى محامٍ يثق به...

عزيزي أبن أخي، أشكركَ من كل قلبي على رعايتكَ لحفيدتي، لقد قمتَ بواجبكَ على أكمل وجه والآن حان الوقت كي تسلم قصري لوريثتهِ ومالكتهِ الأصلية، ولكن حباً لكَ ووفاءاً لإخلاصكَ الذي جعلتُ محاميي مراقباً عتيداً لهُ، فإنني لن أسلبكَ كل ثروتي، ستظل مديراً لشركتي الرئيسية ولكن عقاراتي كلها تذهب منكَ ويبقى لكَ حساب مصرفي كبير يبقيكَ على نفس المستوى من الرفاهية عمركَ الباقي، إن حافظت عليه ولم تسرف أو تتصرف بطيش فيه أما أنتِ ياحبيبتي التي لم أبصركِ إلا ملاكاً هبط من السماء عليَّ وتمنيتُ أن يطول عمري كي أرعاكِ وأضمكِ الى أحضاني.. أنْ أعوَّض بكِ حرماني من الأطفال عمراً كاملاً وأن أعوّض والدتكِ برعايتي إياكِ، عن كل سنوات حرمانها مني، لكن المرض أعياني ووالدتكِ الغالية مرَّضتني طوال فترة مرضي وكانت حاملاً بكِ.. تلكَ طفلتي التي تركتها إكراماً لزوجتي التي كانت عاقراً ولم تعلم بذلك...

فوالدتكِ هي إبنتي التي لم أعترف بها لأنني أكتشفتُ بنوتها بعد أن تزوجتُ إبنة سيدي ورئيسي الذي وهبني كل أملاكهِ وأمنَّني على إبنتهِ فبعد كل تلكَ السنين وبعد مرضي قررتُ التكفير عن ذنبي لما جلبوكِ بين ذراعي إذ توفيت والدتكِ عند ولادتكِ وبكيتها كثيراً.. لقد طلبتُ من والدتكِ الغفران قبل وفاتها فغفرت لي.. لقدْ عاشت مع والدتها وزوج والدتها حياة طبيعية، ولكنها كانت مليئة بالفقر والحرمان، حتى أنَّ من تزوجتهُ كان فقيراً من نفس طبقتها، أما أنتِ ياغاليتي فقد خططتُ لكِ حياة خالية من الفقر مليئة بالرعاية وجعلتُ أبن أخي مسؤولاً عنكِ، والآن عيد ميلاد سعيد ياحبيبتي وأحسني التصرف بثروتكِ وكوني على قدر مسؤوليتها.. أما من يكون والدكِ فعليكِ معرفة شيء واحد وهو أنه أحبَّ أمكِ كثيراً قبل أن يموت بحادث في المصنع الذي يعمل فيه.. كوني رائعة دوماً أحبكِ الى الأبد...

جدكِ...

أنتهى المحامي من الكلام ونظر إلينا من تحت نظارتهِ، نظرتُ الى صغيرتي.. كانت الدموع

تنهمر من عينيها، نظرتْ إليَّ، قررتُ قطع حبل الصمت...

- مبارك لكَ يا قريبتي كنتُ أعلم دوماً في مكان ما من روحي أن بيننا قرابة قوية أنتِ الآن سيدة هذا القصر المطلقة كما كنتِ دوماً وأبداً لم يتغير شيء سوى أنني أصبحتُ غريباً عن هذه (الفيللا) ويتوجب عليَّ أن أرحل الآن سأعود الى منزل والدي.. سبحان الله (ضحكتُ بعصبية وأنفعال).. لقد لاعبني عمي العجوز، وهذا المحامي الكهل الذي علمَ بكل شيء دهراً طويلاً.. الله، كم مرَّ على ذلك.. ثمانية عشر عاماً كاملات، أنا أضحوكةٌ كبيرة ولعلمكَ أيها المحامي اللعوب، أنا لا أريد أي حساب مصرفي.. أنُ أبتعدَ عن هذه اللعنة التي عشتها طول تلكَ السنوات.. أنا الآن حرٌ، حرُّ نفسي.. تعساً لتلكَ النقود التي جعلتني أترك والديَّ وأخوتي، تعساً لتلكَ النقود التي بقيتُ عمري أخشى خسارتها إن خالفتُ وصية عمي في شيء، أنا نادم جداً لأنني ضيعت عمري وشبابي، لكنَّ شيئاً واحداً يظل عزائي.. تلكَ الضحكات البريئة التي سمعتها من ثغر طفلتي وكيف أني لما أراها أنسى كل ألمي ورغم كراهيتي لهذه الدار لكن وجود صغيرتي الغالية كان عزائي دوماً وسلوتي فأنا قد ربيتكِ ياصغيرتي وصنعتُ منكِ فتاة رائعة...

كنتُ أتكلم والدموع تنهمر من عيني دونما إرادة وكانت هي تنظر إلي باكية العينين وما أن أتممتُ كلماتي تلكَ حتى أنتفضتُ بغضب وأسرعتُ بالخروج هبطتُ السلم مسرعاً وفي داخلي إعصار من الغضب قررتُ أن لا اخذ شيئاً من منزل عمي.. أن أغادرهُ بثيابي كما جئتُ إليه بثيابي.. فجأة سمعتُ نداءاً من خلفي، أمسكت بذراعي وهي تهبط السلم مسرعة...

نادتني باسمي المجرد...

رحماكَ يارب لم تعد تناديني (بوالدها).. نظرتُ إليها وأنا أسفل منها، كانت تشع جمالاً وغضاضة ونعومة.. تمنيتُ لو أنني التقيتها عندما كنت فتى شعرتُ بغصةٍ في حلقي فلم أستطع كلاماً...

- أرجوكَ، أرجوكَ، إن كنتَ فعلاً لم تأتِ الى القصر لأجل النقود، إن كنتَ فعلاً قد ربيتني لشخصي ولأجلي أن كنتَ يااا (...) تحبني بغض النظر عن كل شيء، فلتبق لأجلي...

صمتتْ وهي تذرف الدموع، كانت صدمة لي مناداتها لي باسمي المجرد.. نظرنا بعضنا لثوانٍ طويلة وتلعثمتِ الكلماتُ بل ماتتْ على شفتيّ، كانت لاتزال تشدني من ذراعي فتنبهتْ بعد برهة لذلكَ وأبعدت يدها عني، وقد تورد خداها خجلاً...

لقد عاهدتني في عيد ميلادي السادس عشر، عاهدتني عندما كنا في حديقة الورد خاصتي، أنهُ مهما يكن ومهما قال المحامي فأنتَ لن تتركني.. أنتَ قلتها بنفسك أنكَ لن تتركني...

قالت ذلكَ بشكل عصبي وتشنجت وجنتاها وأغمضت عينيها وقد أنهمرت الدموع منهما مداراراً.. أبعدت وجهها عني ولما فعلتْ شعرتُ أني تحررت من سحر عينيها لثوانٍ قليلة فهتفت...

– قلتُ لكِ ذلك عندما كان المنزل هذا ملكاً لي وقد خشيت أنتِ أن تخرجي منهُ فعاهدتكِ أن لا أحد يستطيع إخراجكِ وأني لن أتركِكِ مهما يكن...

– إذا فالقصر هو كل مايهمكَ إذاً أنا أهبهُ لكَ ماالذي تغير...

قالت ذلكَ وقد ألتفتت بعصبية نحوي وعيناها الجميلتان تحتجّان علي...

– أنتِ لاتفهمين.. كرامتي لاتسمحُ لي بعد هذا أنا لا أستطيع...

وما أن قلتُ ذلكَ حتى هبطت السلم نحوي ورفعتْ عينيها باتجاهي..كانت نظراتها عتاباً قاسياً...

– هل ستتركني الآن لأجل كرامتكَ، كما تركتني من قبل هرباً من نفسكَ؟؟

إذاً لطالما كنتُ مجرد لعبةٍ في نظركَ، مجرد طفلةٍ صغيرة تكمل بها برجوازيتكَ وترضي بها نرجسيتكَ ألست كذلك؟؟

أما الآن وقد سُلبت ثروتكَ فأنا لستُ مهمة بعد ذلك في نظركَ إن غادرت الآن فلا تعد أبداً، لا تعد ياعزيزي (...) أو تدري لماذا أوَ تدري...

كانت قد أسرتني بتلكما العينين وهما تلتمعان ببريق عجيب رغم أنهما أغرورقتا بالدموع

تمتمت شفتاي دون إرادة مني...

ماذا، أدري ماذا؟؟

أغرورقت عيناها بالدموع وهي تقف قبالتي وقد رفعت رأسها بأتجاهي...

- لأنني، لأنني، أحببتكَ...

صعقتُ وكأنَّ الجبال دكَّتْ فوق رأسي وحرتُ جواباً.. أطرقتْ برأسها وأكملت...

- لأنني أحببتكَ حباً بريئاً صادقاً منذُ أدركتُ الحياة.. أحببتكَ أنتَ، أنتَ الأنسان الحنون الذي حماني من قسوة الدنيا وضمني إليه بحب أب عطوف ولم يحرمني من شيء أردتهُ، أحببتكَ لأنكَ حرمت نفسكَ من كل شيء لأجلي بعد تلكَ الزيجة الفاشلة ولم تجلب أية أمرأة أخرى تؤذيني هنا...

أحببتكَ، نعم حتى وأن ناديتكَ أبي فأنتَ لستَ أبي، أنتَ قريبي ومن رباني أنا صنيعة يديكَ أنا نسخةً منكَ، لكنني ربما أكون دواءكَ بل لعلكَ عشتَ طيلة ثمانية عشر عاماً تصنع دواءاً لعلتكَ دون أن تدري فهل أنا شيء أو أثاث ما لتقول أن عمركَ ذهب سدى، كلا أنا من صَنَعتْ يداكَ، فانظرلي وقل لي ماترى، هل أنا سيئة، هل أنا شيء جميل أجبني الآن وفوراً...

فتمتمتُ بشرود بينما رفعت عينيها تنظرني بغضب...

- أنتِ أجمل مخلوقة في الكون وأجمل ما رأتهُ عيناي وأنقى وأطهر فتاة في الدنيا...

إذاً، هل أنتَ شخص سيء وقد صنعتني طيلة هذه السنوات بيديكَ، أجبني بسرعة...

- على حسب تحليلكِ أعتقد أن الجواب لا...

إذاً، دعني أكون دواءكَ وكلُّ أملاك جدي هي لكَ أنا لا أريد أي نقود بدونكَ ولا أملاك، لا أريد سواكَ، هل تفهم هذا خذها جميعاً وإبق بقربي، فأنا سأضيع دونكَ.. سوف يتكالب الطامعون عليَّ وسوف تصبح فتاتكَ النقية مشوبة النقاء، ولسوف يذهب تعبكَ سدى، فإن كنتَ فعلاً قد ربيتني لشخصي وها أنذا أكررها وليس لأجل نقود عمكَ فابق معي وإلا فأرحل

الى الأبد...

نظرتُ إليها بذهول.. قلتُ لها بألم...

– تمنيتُ لو ألتقيتكِ عندما كنتُ في مثل سنكِ أنا الآن كبير عليكِ، أكبركِ جيلاً ونصف كيف لي أن، أن...

– وهل كنتَ تظن أني سأعجب بكَ أو أهبكَ قلبي لو كنتَ شخصاً آخر غير الذي بذل عمرهُ لأجلي وتعذب كثيراً وعانت روحهُ الأمرين في سبيل بقائهِ قربي هنا؟؟

هل تظن ذلك؟؟

– آه ياغاليتي...

شهقتُ بألم وضممتها الى صدري بحنان الأب وحب العاشق وتمتمتُ أهمس في أذنها...

أولا تعلمين كم يحبكِ هذا العجوز الأحمق، أو لا تعلمين...

رفعتْ رأسها والدموع تتلألأ في عينيها وضحكت في وجهي وهي تمسح دموعها...

–أنا أعلم أنكَ تحبني ياقريبي ووالدي وحبيبي...

والآن هل ستغادر المنزل؟؟

هل ستتركني؟؟

رفعتُ يديها نحو شفتي أقبلهما وأنا أقول لها...

– أبداً ياسيدة هذا القصر ووريثة عمي المطلقة، أنا سأظلُ خادماً مطيعاً لكِ ياقريبتي وإبنتي وحبيبتي الى الأبد...

وعرفتُ بعضاً مني

كانَ في المقهى يدخن الأركيلة وينفث الدخان بغضب وأفكار كثيرة تتصارع في رأسهِ، كانَ يشعر بالظلم، بالغبن، بالحزن، بضياع شبابهُ مشاعر متشابكة لم يجد لها تفسيراً سوى حنقة على حياتهِ وعلى زوجتهِ وأطفالهِ، لقد تشاجرَ معها وخرج فهو كلما يدخل البيت يجد أطفالهُ يتشاجرون ويتقاتلون فيما بينهم وزوجتهُ تشتكيهم لهُ فيبدأ بالصياح والترهيب والتهديد حتى يذهب الجميع الى غرفتهم ويهدأ الأعصار، ولكن ما أن يرتاح ويأكل ويشرب الشاي حتى تبدأ ثورةٌ جديدة فيذهب الى غرفتهِ مستسلماً ويسلم الرايةَ الى زوجتِهِ المسكينة بعد أن أمسكها لمدة خمس دقائق أو أكثر بقليل وفي غرفتهِ يبتعدُ عنهم وينام ليرتاح من عناء دوامهِ المضني، فهو مهندسٌ في شركة أتصالات الهاتف المحمول وعملهُ لا ينتهي قبل الخامسة عصراً، وأيام الشتاء يأتي ليتناول غداءهُ مع عشائهِ سويةً، صحيحٌ أنهُ يتناول شطيرةً في فترة الأستراحة التي تمنحها الشركة لموظفيها، لكنهُ لم يكن يحب تناول طعامِهِ خارج المنزل، وماكانت الشطيرة بالنسبة إليه لتمثل وجبة طعامٍ تغنيه عن غدائهِ...

في تلكَ الأمسية، خرجَ من غرفتهِ فوجد أبنهُ الأصغر ممسكاً بأنِفهِ بكلتي يديه وهو مفزوع، وأخوانهُ هربوا بعيداً بمجرد رؤيتهم لأبيهم.. صاح به أن يبعد يديه فأبى أول مرة هددهُ فرفع أحداها وأذا بسيل من الدماء تحت يدهِ يخرج من أنفهِ، حملهُ وقام بالأسعافات الأولية لهُ، ثم ولما استقرت حالتهُ حمل عصا كبيرة كان قد خصصها لأولِادهِ الذكور وذهبَ ليحاسب الذي ضرب أبنهُ الأصغر لكنهُ لم يعثر على الفاعل...

كل واحد يرمي التهمة على أخيه حتى الأبن الأصغر يبكي ويقول لا أعرف من ضربني فضرب الأب بعصاهُ الحائط وخرج والغضب يتطاير شرراً من عينيه كانَ قد صرخ على زوجتِهِ قبل أن يخرج...

-كلهُ منكَ

قال لها...

- لماذا لا أملك زوجة حازمة؟؟ أليس من حقي أن أرتاح في بيتي - لكنهم أولادكَ، ردت بألم زوجتهُ...

فقال بحنق وليسوا أولادكَ هه؟؟

أو لا يحق لي أن أرتاح في بيتي وأنام قليلاً، فأستيقظ على صراخٍ ومعارك، أيةُ حياةٍ هذه!! تعساً لكَ...

وخرجَ صافقاً الباب خلفهُ بقوة...

نفثَ دخان الأركيلة أمام وجههِ، وكأنهُ لا يريد أن يرى حياتهُ تلكَ بل كانَ يريد أن ينسى...

أين كنتُ أنا فكر مع نفسهِ وإستذكر أيام العزوبة، «كنتُ حراً «، إسترسلت أفكارهُ، «كنتُ طيراً طليقاً لا التزامات، لا مصرف، لا ركض خلف اللقمة.. لِمَ تزوجتُ؟؟ سحقاً للمجمتع».. وإستذكر كلمات أمهِ وهي ترغبهُ بزوجتهِ الحالية:

أنظر يابني إنها من عائلة طيبة، الى متى تبقى هكذا، ألا تريد أن ترزق بأطفال، العمرُ يمضي، وأنتَ بمفردكَ، أنا لن أدوم لكَ.. ولدي دعني أفرح بكَ...

ومرت ذكريات العرس كطيف جميل على خاطرهِ كذلكَ ذكريات ولادة أطفالهِ واحداً تلو الأخر، لكن قلبهُ قُبِضَ مجدداً حينما نظرَ الى الساعة فراها قد تجاوزت منتصف الليل بقليل وكانَ عليه أن يعود لنفس الدوامة ونفس الروتين الممل ونهض بتثاقل منقبض القلب مكفهر القسمات ودفع حسابهُ وانصرف نحو منزلهِ، وفي طريقهِ نظر الى هاتفهِ النقال فوجد مكالمات فائته لزوجتهِ فتأففّ وأرجع الجهاز لجيب بنطالهِ بعد أن غير وضعهُ الصامت الى الرنين مجدداً...

وفي المنزل مضى نحو سريرهِ دون أن يرد على كلمات زوجتِهِ...

- ساعدكَ الله أبا علي...

لم يلتفت نحوها، كان متعباً ولديه دوام صباحي الى حد الخامسة عصراً رمى بنفسهُ فوق سريرهِ ووضع يدهُ فوق جبينهِ وأخذَ يتمتمُ بعبارات مع نفسهِ حانقاً...

– ليتني كنتُ أعزباً؟؟

لقد سئمتُ!! ليتني لم أتزوج...

وغلبهُ سلطان النوم فذهب الى عالم الأحلام، قام مسرعاً نحو دولاب ثيابهِ، لكنهُ لما فتحهُ أخذَ يمرر سبابتيه على جفني عينيه عدة مرات لانهُ لم يصدق عينيه، ظنَّ أنَّ النوم لايزال معلقاً بجفنيه، لكنهُ بعد عدةِ مرات من أغماضِ عينيهِ وفَتْحِهِا صدَّقَ أنَّ تلكَ البدلات الرسميةَ لهُ وأنهَّا معلقةٌ في دولاب ثيابهِ.. هَرع نحو الباب ونادى زوجتهُ..كانت أفكارٌ عديدة قد أختلطت في ذهنهُ...

من أين جلبت زوجتهُ تلكَ الثياب وهي ربة بيت أو أنها قد أخذت نقوداً من جيبهِ خلسةً عنهُ، كانَ يريد جواباً منها لكنَّ الجواب الوحيد الذي جاءهُ صَوتٌ محببٌ مألوفٌ لديه...

ماذا بكَ يابني، من تنادي هبطَ الى الطابق السفلي مسرعاً وكاد يجن من ذهولهِ...

ألم...

لكن أنتِ على قيد الحياة أمي...

كيف؟؟

أين أطفالي؟؟

أين زوجتي؟؟

وهنا ترددت ضحكات الأم عالية بقهقهة رجت أركان المطبخ...

– حبيبي أين أطفالكَ الرائعون؟؟

ياليتني أعيش وأرى عرسكَ...

أمي؟؟

صاحَ بدهشة...

- أي مزحةٍ هذه؟؟

علي، أحمد، محمد، مصطفى، فاتن، نور، أين أنتم؟؟

وركضَ نحو غرفة الأطفال.. لا أحد هناك، ركضَ نحو غرفة إبنتيه، لا أحد، ركضَ نحو غرفة الجلوس حيث أعتادت زوجتهُ أن تكون فيها...

- لاأحد بني...

وضعت الأم يدها فوق كتفهِ...

- لابد وأنكَ كنتَ تحلم، لكنهُ حلم جميل، لقد مرت السنوات وأنا أتوسل بكَ كل يوم تقريباً أن تتزوج وأن أرى أطفالكَ قبل أن أموت ولعلَّ حلمكَ هذا إشارة من الله لكَ، فلقد استجاب دعواتي وأنا أُصلي كل يوم خمس مرات وأصلي خمساً أخرى مستحبة وأدعوا أن يهديكَ الله، فأنتَ الوحيد الذي بقي لي من أولادي، الوحيد الذي لم يتزوج وصغيري هو أنتَ، لكنني ياولدي أتالم لما أرى الشيب قد خط خطوطهُ في شعركَ الفاحم الجميل، وأدركُ أنَّ العمر قصير، أطال الله في عمركَ ياحبيبي...

قالت الأم ذلكَ ثم اتجهتْ نحو قدرها...

- سوف أطبخ لكَ اليوم أكلتكَ المفضلة (متفونة)، أنا أعدُّ موادَّها من الأن حبيبي لأجلِ عينيكَ ولدي الغالي، قالت ذلكَ وجلست الى طاولة المطبخ المدورة وأمامها الباذنجان والخيار والفلفل، ووجهها يفصح عن سعادة بالغة إتكأ الأبن المصدوم بذراعهِ الى شباك المطبخ، ونظرَ عبرهُ الى الزهور التي طالما كان والدهُ يعتني بها، ثم أورثهُ هواية حبها ورعايتها وتنهد بألم...

مالذي يجري...

وعادَ الى غرفتهِ، ونظر الى التجاعيد حول عينيه، «مالذي يجري» أختلطت الأفكار وتزاحمت

في رأسهِ، لكنَّ منظر الساعة وهي تلوح بميليها الى اقتراب موعِدِ دوامهِ عبر المرآة بالمقلوب جعلهُ يلتفت إليها فزعاً ويسارع بأقتناء بزَّتهِ بحركاتٍ شبه آليه وثم وبسرعةٍ امتدتْ يدهُ نحو المشط، وبحركات آليه مشط شعرهُ وانطلق نحو والدتهِ ليرتشف من بين يديها كوباً من الشاي ككل يوم وليرفض محاولاتها اليائسه كي تجعلهُ يأخذ شطيرة من بين يديها، وفي العمل وجد الجميع ينتظرونهُ ووجد نفسهُ مديراً على مركز فرعي من فروع الشركة ومن بين وجوه الموظفين لاح لهُ وجهها، أنه نفس وجه زوجتهُ، كانت مهندسةً أنيقة قائمة على شؤون الحضور والأنصراف وكانت تنظر إليه خلسةً كلما دخل في ذلك اليوم وقف مصدوماً وهو ينظر إليها بشكل أحرجها وجعل وجهها يحمر خجلاً، هناك في مكتبهِ بعثَ في طلبها، كانت ذكرياتها في المنزل حيةً معهُ وكأنها واقع ملموس، إستدارَ بكرسيه فور دخولها...

- هل أرسلتَ بطلبي؟؟

- نعم...

ردَ عليها وعيناهُ نحو مكتبهِ.. كان لايدري ماذا يريد أن يقول...

- مالأمر؟؟

قالت لهُ...

- هل، هل أنتِ في هذه الشركة منذُ زمن بعيد؟؟

- هل صدر مني أي خطأ؟؟

قالت بذهول بعد سؤالهِ ذاكَ، نظر إليها حاول أن يتكلم لكن الكلمات خانتهُ، نهض من على كرسيه واستدارَ نحو شباك مكتبهِ متظاهراً بالنظر عبر النافذة...

- لا، لا شيء.. يمكنكِ أن تنصرفي شكراً لكِ...

لم يلتفت إليها ليرى النظرات المبهمة التي إرتسمت على محيّاها، لم يستطع أن يلتفت إلا حينما أغلقت الباب خلفها خارجة من مكتبهِ، وفي ساعة الأستراحة ولما قامَ عامل النظافة بتوصيل

الطعام لهُ، طعام الغداء الذي تجلبهُ والدتهُ كل يوم بيديها لمقر فرع الشركة الذي لايبعد كثيراً عن بيت والدهِ، رفع الغطاء عن القدر الصغير فانبعثتْ رائحة طعامِ والدتهِ الشهي وقال للعامل ككل مرة هيا تفضل معي، وكانَ العامل يأكل معهُ من طعام والدتهِ كل يوم ويدعوا له ولها، وعندما إِنتهت ساعات دوامهُ وخرج بإتجاه منزلِهِ لاحت منهُ التفاتة للمقهى الذي تعود الذهاب إليه وبحركات تلقائية سارعت قدماهُ الخطى نحو المقهى فدلفهُ ورحب به صاحبها وأصدقاؤهُ وجلس على نفس الكرسي الذي تعود الجلوس عليه ونفث دخان الأركيلة وهو يفكر في تلكَ المهندسة..كان يعرفها تماماً، ولطالما تقدم لها العديد من الزملاء للزواج لكنها كانت ترفض لسبب لا أحد يعرفهُ في الشركة حتى أذاعوا أولئكَ الذين رفضوا من قبلها، أنها ولابد أن تكون منهياً عليها أي أن أحد أقربائها قد أخذ عهداً من أبيها أن تكون زوجة لهُ وعلى الأكثر إبن عمها كما كانوا يقولون، لماذا هي بالذات فكر في نفسهِ، وكانت الأفكار تتزاحم في رأسهِ حتى وصل منزلهُ، (بيت والدهِ)، وهناك فرح برؤية (علي) إبن أخته الأكبر ذو الخمسة عشر عاماً، كان معهُ أخوانهُ الأصغر سناً وما أن دخل حتى أحاطوهُ جميعهم...

– على مهلكم صاح بهم...

أريد أن أرتاح أرجوكم دعوني أنام، وأسرعَ بالهروب منهم نحو السلم فصاحَ أبن أختهُ الأصغر، وكان أنفهُ محاطاً بضماد طبي...

– ياخال ألن تلعب معنا بعدها، لن أستطيع الفوز في العاب البلي ستيشن بدونك...

– أرجوووووكَ قالها بتوسل...

حسناً، حسناً، أمضِ لألعب معكَ قليلاً ثم أنام مفهوم...

مرحى سيلعب خالي معي...

هيا ياخال...

وأخذوهُ يجرونهُ جراً نحو غرفة الجلوس وعند العشاء كانت أختهُ أم علي في المطبخ تساعد والدتها على إعداد العشاء.. كانت تسكن بقرب بيت أبيه، وكل يوم عند المساء تأتي مع أولادها

الى بيت أبيها، تناولَ العشاء مع أختهِ وأولادها وأمهِ ثم ذهب لينام، ورمى بجسده فوق السرير وما أن حاول أن يفكر قليلاً، حتى غلبهُ النعاس من شدة التعب، ونهَض في اليوم التالي فزعاً على صوت المنبه وعاد الى ارتداء بزتهِ وتناول الشاي من يد والدتهِ والذهاب الى عملهِ، ثم انتهى العمل، عاد الى منزلهِ وقبل أن يصل عرج على مقهاهُ وثم ذهب الى البيت...

وفي الليل ذهبَ الى النوم وهكذا مرت الأيام.. كانَ يستمع بين الحين والآخر وهو يمر بالعاملين في قسمهِ أو بالأحرى في مقر الشركة الفرعي، كانَ يستمع الى أحاديثهم فهذا يشكو زوجتهُ وذاكَ يشكو أذى أطفالهِ وذاكَ لايشكو هذا ولا ذاكَ بل يسخر من كلا الحالتين ويقول متفاخراً...

– كونوا مثلي.. أنا أعيش دون زواج وتكفيني العلاقات التي أعيشها، لمَ أتزوج أصلاً!!

فيهز المتزوجون رؤوسهم ويقول أحدهم لهُ أنتَ لاتفهم شيئاً، ستظل هكذا في ضياعٍ طيلةَ عمركَ...

– أذاً لماذا تشكون.. هه؟؟

وما أن يرونهُ وهو يمر بقربهم حتى يسكتوا ويكفوا عن النقاش فيضحك في سرهِ منهم، ويمضي وهو يضع يديه في جيبي بنطالهِ نحو مكتبهُ وهو سعيدٌ بنفسهِ، أنهُ ليس من هؤلاء ولا هؤلاء لكنهُ بعد حلمِهِ ذاكَ أو لحظة تجليه تلكَ، لم يعد يسخر إلا من نفسِهِ ولما تمر الساعات طوالاً عليه أيام العطل وهو ينظرُ الى الوقت ويقوم بتسليةِ نفسهِ عبر النت أو بقراءة الكتب حتى يشعر بالملل من كل مايفعلهُ، فيختار الخروج وحيداً لانهُ لم يعد يستطيع الخروج مع أصدقائهِ، فغالبيتهم متزوجون أو آباء، فوقْتُهُم لايسمحُ لهم أن يكونوا كما كانوا معهُ كل يوم في مكان يتفقون عليه للخروج، ولكنهُ كانَ يجتمع بهم أحياناً صدفة وهم يحملون أطفالهم متوجهين الى الزيارة مثلاً أو ذاهبين بهم الى الطبيب، كانوا يقولون لهُ بحسرة...

– هنيئاً لكَ لم تتورط مثلنا، لكنهُ سأل نفسهُ ذلكَ اليوم...

– لماذا أنا وحدي؟؟

كانَ ينظر الى العوائل في المتنزه الذي خرجَ إليه في أحدى العطل، كلٌ معهُ زوجةٌ وأطفالٌ إلاّ هو، أو لعلَّ عينيه لم تعودا تبصران إلاّ ذلكَ، لم يعد يفهم ما الذي جرى لهُ.. أخذتْ لياليهُ تؤرقهُ وصارت وحدتهُ تزعجهُ.. كان يفكر في جدوى حياتِهِ وهو يرى شبابهُ، وهو على وشك الذبول أمام عينيه فها هي خطوط الزمن تزحف بقواتها وجيشها نحو وجهِهِ وجسدهِ ورأسِهِ...

مرت الأيام وهو يقوم بعملِهِ الذي يحبهُ ويأكلُ طعام أمهِ التي يقدسها ويلاعب أبناء أختِهِ الذين يحبهم، لكنَّ أمَّهُ مرضت فجأةً وتدهورت صحتها واختارها ربّهُ للقاءها، وعاش حزناً رهيباً دونها ووحدةً مضاعفةً وأصبح بيت أبيه موحشاً بارداً...

صحيح أن أختهُ القريبة بسكناها منهُ كانت تتردد عليه بين الحين والآخر وتجلب لهُ كل يوم طعامهُ بيد أحد أبنائها ومع شدة مواساة الأخت لهُ ومحاولتها التخفيف عن أخيها بإرسال أبنائها ليبيتوا معهُ أو الذهاب لرؤيتهُ بين الحين والآخر، والاتصال به عبر الهاتف في الأيام التي لاتستطيع فيها الذهاب لرؤيتهُ، لكنَّ هذا كلهُ لم يسدَّ مكان والدتهُ وفراغها الذي تركتهُ...

الشخص الوحيد الذي شعرَ بصدق أحاسيسهِ تجاههُ ومواساتهِ الصادقة، كانت تلكَ المهندسة التي أخذت تسأل عن صحتهُ كل يوم وتسألهُ كيف يشعر وبدأت بحنانها الصادق و دفء مشاعرها تجاههُ تنسيه رويداً رويداً ألم فراق والدتهِ الحنون، وبدأت أواصرُ الصداقة بينهما تقوى حتى تجرأ ذات يوم أن يقول لها أنهُ يرغب فعلاً وجدياً في الزواج منها وكان خجلها دليل موافقتها ولقد عرف فيما بعد أنَّ سببَ رفضها لكل من تقدم لخطبتها من زملائها في الشركة أنها كانت تتمنى أن تكون زوجةً لهُ هو بالذات، وكتمت الأمر في سريرتها لأعوام وهكذا كان الأمر..

وهكذا تزوجها.. أنَّ من يدخل بيت والدهِ الذي تزوج فيه الآن يمكنهُ أن يرى زوجةً تجلس في غرفة الجلوس معهُ وهما يتصفحان النت بينما يدور حولهما أولادٌ مشاكسون، وهم يصرخون أو يتقاتلون بينهم لكنَّ الأب الذي صاح بأطفالِهِ كي يتوجهوا الى غرفتهم، لم يشعر بالأسى هذه المرةَ على نفسهِ بل كان سعيداً وتبادَلَ نظرات الأعتزِاز بأطفالِهِ مع زوجِتهِ بينما كان طفلها الصغير في حجرها...

لما سرقَ الخريف فؤادي

حسناً...

قالت لهُ بذهول...

هل هذه كل كلماتكَ التي تستطيع البوح بها بعد كلٍ مافعلتهُ معكَ.. بعد كل تلكَ السنوات إذ عاهدتني أن نظل كياناً واحداً، و روحاً واحدة وجسداً واحداً...

لم يجب، كانت كلماتهُ صمتاً، مجرد نظراتٍ حزينة، لمّ يعرف بمَ يجيبها، لم يكن يتقن لغة الكلام مثلها، وهو الذي قالَ لها، أنْ تبتعد وأن لايكون بينهما أي رباط مقدس، وهو الذي قالَ لها أن تذهب بعيدا لتجد شخصاً أفضل منهُ، إلا أنهَّا لم تستطع البعد عنهُ، وكان قرارها أن تكون زوجتهُ حتى وإن كانَ الأمر سيتطلب أن تضحي لأجلِهِ، لأنَّ الزواج من رجلٍ قد طلق إمراةً قبلها، كان يثير حفيظة أهلها ولم يوافقوا عليه بادئ ذي بدء، وهي الفتاة البكر الجميلةُ، ذات الثمانية عشر عاما وقد قُبِلتْ للتو في الجامعة ثم إلتقتْ به أُستاذاً لها يكبرها بما يزيد عن السنوات العشر بعدة أعوام...

- لكن لماذا...

قالت بألم وتابعت...

- إذا ليكن مايكون، فهو الفراق ولتبقى أنتَ في صمتكَ...

وأفترقا كلٌ في طِريق عادت هي الى منزل أهلها وعاد هو الى منزل أهلِهِ بعد سَكنِهِ معها في مستأجر صغير.. أغرقتْ وسادتها بدموعها الحارقة وتمتمتْ في ألم « لو أنهُ يوضّح لي أو يعتذر ولو لمرة واحدة «

«ولكنهُ لايستحق دموعكِ أبداً «.. هتفت في قرارتها وكفكفت دموعها، وحاولت أن تنام دون أن تفكر فيه، ولكن كيف لها أن لاتفكر فيه وهو الذي كان في صمتهِ الرهيب يعضَّ أصابع الندم مفكرا فيها، وهو يستذكر كيف تسبب في مقتل طفلها الذي لم يرى النور بعد.. كانت ذكريات صفعتِهِ لها وتكورّها كقطةٍ صغيرةٍ أسفل السلم يقض مضجعهُ.. تقلب ذات اليمين وذات الشمال دونما هوادهُ.. لقد قتل كل شيء جميل بغبائِهِ، هكذا هتف في نفسهِ وتابع، « أنتَ لاتستحقها، دعها تنساكَ وتمضي الى حال سبيلها، دعها تعيش مع شاب من أقرانها، أنتَ، نعم أنتَ، من عرض الزواج عليها، أنتَ من ذهبتَ مباشرة الى منزل أبيها، وأنتَ الذي كنتَ تتابعها بنظراتكَ من بعيد دون أن تعلمَ أنَّها تدركُ ذلكَ وأنَّها قد تعلقتْ بكَ مثلما تعلقت بها، نظراتها الساحرة البريئة بين الفينة والاخرى وهي تنظر إليكَ في الدرسِ وأثناء المحاضرات أَسَرَتْ قلبكَ، وعرفتَ في ذاتك أنهّا هي من تريد، وأن تلكَ التجربة السابقة التي فرضها أهلكَ عليكَ من إبنة عمكَ، كانت مجرد تجربة فاشلةٍ رغم أنهّا ضيعتْ ((سنواتِ شبابك الأولى))، شبكَ ذراعيه فوق رأسهِ وهتف، ((كفى تفكيراً، كفى)).. ولكن كيف لهُ أن لايفكّرَ في زوجتهِ الصغيرة الجميلة أو أن يستذكر نظراتها المتوسلة، أو كلماتها الحانية التي لم تقابل منهُ إلا بالبرود.. ((أريدكِ أن تكرهيني، أريدكِ أن تدعيني، لا، لن أجعلكِ تعانين بسبب عقدي النفسية التي تسبب بها أهلي بزرعها فيَّ لما جعلوني أتزوج رغماً عني وأقنعوني أقناعاً، بنت عمكَ وإبن عمها، من أولى الناس ببعضٍ غيركما، فتزوجتُها، وماكانت سوى إمراة سليطة اللسان نمامة لاتمت الى الثقافة بصلةٍ، همها فقط القال والقلت، لاتبالي سوى بأظهارَ صورتها الحسنةِ للنساء عبر تنظيف وتلميع المنزل، لكنها أهملت تنظيفَ عقلها و روحها، وماهذا الذي كنتُ أنشدهُ في زوجتي المستقبلية)) وتنهد بألم وهو يستذكر، بينما تقلبَ ذات الشمال وأخذَ بين أناملهِ سيكارةٍ قديمة عثر عليها في دُرجه.. تنفسَ الصعداء بسعادةٍ، لمْ يكنْ يتصورُ أنهُ سيجدُ سيكارة تُسعِفُهُ في تلكَ اللحظات وهو الذي تركَ التدخين منذُ تزوج فتاتهُ الجميلة وقرر أن يترك كل عادةٍ سلبيةٍ، لديه ونفث دخان سيكارتهِ وهو يسترجع الذكريات.. « كنتُ كلما أدخل الى منزلي أجدها تتحدثَ مع أمها في الهاتف.. كلُّ أسرار منزلي يعرفها بيت عمي أكثر مما أعرفها أنا وكلما حدثتها يابنت العم، أنا لا أحب أن يعرف أحدٌ أي شيء عن أسراري كانت تضحك وتقول: أسرار البيت الأبيض ماذا هناكَ، إننا أقارب

وأهل، لماذا تعظم الأمور، وتذكر كيف بدأ أول مرة يفقد أعصابهُ فيها، معها ضرب هاتفها في الحائط فتهشم، وكان هو من إشتراهُ لها وبثمن باهظٍ، فهي لم تكن موظفةً ولم تكمل دراستها الثانوية، وأمسك بيدها بجنون وعيناهُ تستشيطان غضبا...

– ألم أقل لكِ أن لاتحكي عما يجري بيننا لأمكِ أو أخواتك.. لقد سمعتك تتحدثين عن كل تفاصيل ماجرى في مابيننا بالأمس، هل أنتِ صماء، ألم أحذركِ، ألم أقل لكِ...

– كيف تجرؤ على أمساك يدي هكذا سأكلم أخوتي وهم من سوف سيتحدثون معكَ وبطريقة أخرى تعلمكَ من أنا وتربيك...

– أذهبي الى الجحيم أنتِ وأهلكِ...

– أوَ تجرؤ أنتَ تهين أهلي وتهينني، وكذلكَ تضربني!؟

– أنا لم أضربكِ ولن أضربكِ...

– بل فعلت...

– أنتِ تدفعين بي الى الجنون...

– أنا صابرة على كل شيء معكَ على كتبكَ التي تقضي معظم وقتكَ معها أو مع أصدقائكَ في الجامعة من الأساتذة أو ذهابكَ في سفرات الكلية، لم أعترض ولم أقل شيئاً...

– دوماً ما كنتِ تحتجين...

– وصبرتُ رغم ذلكَ، وصبرتُ على راتبكَ الذي لا أحصل منهُ إلا على المأكل والملبس، متى يكون لنا بيت مثل الناسِ، هذه سنتي السادسة معكَ ولاشيء أحصل عليه منكَ، لامسكنَ أتباهى به أمام أهلي، ولا طفلَ أستطيعُ أن أملأ به حياتي...

وهنا تضرج الدم في وجههِ، لقد ذهب معها الى الأطباء، كل واحدٍ منهما حاول معرفة السبب لعدم أنجابهما طفلاً، قال لهُ الطبيب أنهُ مصاب بالضعف في الأنجاب وأنهُ مع العلاج المستمر من الممكن أن يحظى بطفل في المستقبل وتابعت وهي تصرخ بصوت عال لأنها كانت تعرفهُ

شخصاً هادئاً رابط الجأش صامتاً لا يتكلم إلا بوعي منهُ...

– لقد حطمتني وسَلبتَ سنوات شبابي مني أيها العقيم!! لقد لامستْ وترَ قلبهِ، لم يعرف كيف ومتى صفعها وكيف أنها أخذت تكيل السباب، لهُ ولأهلِهِ وتلعن اليوم الذي تزوجتهُ فيه، بينما كانت تلملم ثيابها وترحل بعيدا عنهُ، لم يُرجعها إليه رغم كل محاولات أهلِهِ وأهلها ووساطات الأقارب بالترغيب والترهيب.. لقد أخترقت بكلماتها نياط قلبهِ كرصاصةٍ أُطلقت من مسدس مذخر، وكانت تلكَ الطلقة سبب طلاقِهِ لها وقرر بعدها أن لا يتزوج أبداً حتى رآها، تلكَ الفتاة الجميلة الهادئة المهذبة بعد سنوات.. نفث دخان سيكارتِهِ اليتيمة في ألم وهو يستذكر كلماتها بينما كانت تحدثهُ فوق السلم وتتوسل إليه أن يقبل ذهابها الى منزل أهلها.. كانت قراراتهُ حاسمة معها فيما يتعلق بالأهل بسبب ماجرى مع زوجتِهِ الأولى...

– حبيبتي...

قال لها منذ الليلة الأولى...

– لكِ الحق في رؤية أهلكِ مرة كل شهر ولا أقبل بأي أتصال هاتفي بينكم هل هذا واضح صُعقت أول مرة ثم أستسلمت للأمر الواقع ظناً منها أنهُ سيلين مع مرور الوقت، كان الحاحها وأصرارها على الذهاب الى منزل أهلها سبباً في تلكَ المشاحنة...

– أرجوكَ، أنها أختي وأنا أريد أن أراها لقد عادت من الجامعة للمرة الأولى وأريد أن أجلس معها وأعرف ماذا فعلت في أسبوعها الأول وأعلمها عن جو ونظام الكلية ونقضي وقتاً جميلا أنا وهي لأنني أشتقتُ إليها...

– أرجوكَ، أو لا تسمع...

لماذا أنتَ هكذا عنيد ولاتسمع، أرجوكَ أنظر ألي، أنا سأذهب إن بقيتَ صامتاً...

– قلتُ لكِ لا...

– قالها بصفعتِهِ التي تخيل أنهُ يضربها لتلكَ الزوجة الأولى.. أُعتصر قلبهُ بألم شديد [أنا لا أنفع أن أكون زوجاً لكِ سوف أتركِكِ لتعيشي حياة هانئة بعيدا عن عقدي والآمي]...

لحن المطر

عَزَفتْ أنامل المطر على زجاج النافذة لحناً شجياً لامس أوتار قلبهِ بينما كانَ قرطاسهُ بين أناملهُ ويدهُ اليسرى تمسك بالقلم، شعرَ بأختلاج في روحهِ، شعرَ بقشعريرة الألهام تتسلل الى قلبهُ...

أخذت أناملهُ تعصر القلم بقوة فوق الصفحات وهي تخط كلماتٍ طالما أراد أن يخطها لكن الخجل والأرتباك والخوف كانوا جميعاً ضدهُ يتعاضدون، كتبَ بكل كيانهِ، بكل ذاكَ الحب الذي لم يستطع يوماً أن يفصح عنهُ...

إليكِ أكتبُ، رغم إنكِ لاتدركين مدى حبي لكِ رغم إنكِ لم تعرفي أني أراقبكِ كل يومٍ بينما تسقين الزرع في حديقة المنزل قربنا...

ياجارة الخير إني بحبكِ متيم، أخشى كلَّ شيء لستُ أعشق غير ألحان كماني، أعزفها لكِ قرب شباكي علَّكِ تسمعين عزفي على أوتار قلبي المستعر حباً لكِ دون أن أعرف متى وكيف، هلا لكِ أن تردي، أرسلُ لكِ خاطرتي في الفضاْ الواسع لهذا الكون رغم إنكِ لاتبعدين سوى خطواتٍ عن منزلي، إلا أنني أخشى البوح أخشى أنْ أراكِ وتريني، لأنني مقعدٌ فوق كرسي مدولب، لأنني سأظل في حزني وحبي مدفوناً هنا بين أربعة جدران صماء لاتفقه من حبي ولا من شعوري إلا تلكَ ألالحان، فأُحسّها تستجيب معي وتنتحب أحياناً وتبكي دموعاً من رطوبة أتلمسها بأناملي...

حبيبتي...

هل لكِ أن تعرفيني، أن ترفعي عينيك الجميلتين وتري أني هنا خلف الستارة أعزف لأجلكِ فوق الكمان، بينما تسقين الزهور؟؟

هل تعرفين أو تدركين بم يضطرم قلبي من نار تحرقهُ وتكويه كل آن وحين، أسعفيني ولو بنظرة منكِ إلي...

مولاتي...

سأكتبُ هذه الرسالة لكِ وأتجرأ أن أرميها فوق غصن الزيتون حيث أراكِ تجلسين أسفلهُ كل يوم تسقين الزهور الصغيرة خاصتكِ...

سأتجرأ...

رغم إني لا أستطيع النهوض فرصاصتان في عظمي الفخذين في حرب الخليج قد شلتا ساقي، ولم أعد أقدر أن آتي إليكِ لأراكِ وتريني كي أخبركِ، كم أحببتُ صمتكِ وتأملاتكِ الطويلة تحت غصن الزيتون هذا أسفل شرفتي...

كم أحببتكِ منذُ كنتِ طفلة تهرعين هنا، تبكين تارة وتتكلمين مع جذع الشجرة تارة، هلا تكرمتي بعد هذا...

أيا مولاتي أن تحبيني...

رفع القلم أخيراً من فوق قرطاسِهِ وتنهد بحسرةٍ وهو يستمع لنقرات قطرات المطر فوق زجاج نافذتِهِ، رفع الكمان واقترب بكرسيه المدولب قرب الشباك وبدأ يعزف لحناً حزيناً يسلي وحدتهُ وعذاباتهِ...

ردَ لي قلبي

(الجِزء الأَول)

كانت تلكَ هي منيتها وكل ماتطمح إليه فلقد حققَ الله لها ما أرادتهُ وأصبحت طبيبة القرية بلا منازع، الكل يلجأ إليها ولاتجد نفسها يوماً قد ارتاحت بدون أن يطرق بابها أو يتصل بها مريض أو أهل مريض ما ليلاً ونهاراً، منتصف ليلٍ أو أَوَّلهُ أو حتى عند تباشير الصباح.. كانت إبنة طبيبِ القرية وقد ورِثتْ منزلهُ ومكانتهُ العلمية منهُ وعنهُ بعد أن توفي عن عمر يناهز التسعين، وتعلمتْ معهُ كل نصيحة طبيةٍ ومعلومةٍ عمليةٍ نفعتها في مهنتها الأنسانية.. لم تكن تبحثُ عن الثراء مطلقاً، ففي أغلب الأحيان لم تكن تتقاضى أجوراً على معالجة مرضاها، بالأخص أولئكَ الذين يعيشون في فقر مدقع.. لم تكنْ ثريةً ولم تكن فقيرةً في آن واحد، لكنها كانت شديدة الحب لمهنتها حد النخاع، لاتتكاسل ولاتتهاهل وتخرج لعلاج مرضاها في الليل دون خوف بمفردها أو برفقة أهل ذلك المريض أو أنها تستقبل أحياناً في منزلها أولئك الذين ليس لهم أهل إذ كانَ والدها قد خصص غرفة جانبية كبيرة ليجعلها أشبه بعيادة طبية للمرضى، لم تكن هنالكَ مستشفى قدْ بنيت بعدُ في تلكَ القرية.. فقط عيادة شعبية لايعتمد أهل القرية على أطبائها القلائل لأجراء عملية جراحية أو علاج مرض عضالٍ، بل كانوا يلجؤون الى تلك الطبيبة في كل حالة مستعصية، واستمرت حياتها على تلك الوتيرة عقداً من الزمن حتى صارت في الثلاثين من عمرها، رفضت كل من تقدم لخطبتها من أثرياء القرية وتجارها، حتى عمالها وشبانها العاطلين والكسبة على السواء، فحبُّها لعملها كان أكبر من كل شيء بالنسبة لها، ولم تكنْ ترغبُ بأيَّ قيدٍ يَفرضُ عليها التقاعس عن واجبها الأنساني الذي عشقتهُ فأبدعتْ فيه، لم تكنْ جميلةً حقاً، بل كانت ملامحها أبعد ماتكون عن الجمال إلا أن سمعتها الطيبة، جعلتها محطَّ إعجاب الكل واحترامهم وبقيت ترفض كل من تقدم لها حتى أنها سميت في القرية بأسم

الطبيبةالعذراء...

لكن تلكَ الليلة كانت نقطة فاصلة في حياتها فلقد عادت للتو من عيادة مريض كسِرَتْ ساقهُ لما دلف عليها رجلان من أهالي القرية يحملان بين ذراعيهما شاباً قد جرفتهُ الأمواج الى الساحل إذ كانت ثيابهُ تقطر ماءاً ورأسهُ يتدلى فوق صدرِهِ بينما رفعهُ الرجلان وحملاهُ وهو يجود بنفسِهِ...

- حضرة الطبيبة، لقد وجدنا هذا الرجل ملقى على الساحل، عملنا لهُ تنفساً أصطناعياً، وقدِ أستطاع التنفس أخيراً، لكَّنهُ ليس بخير على الأطلاق ونعتقد أنهُ يجب أن تريه بنفسك...

- ضعاهُ على سرير المرضى بسرعة...

وجهت الطبيبة تعليماتها بحزم وارتدت قفازاتها الطبية بسرعة وتوجهت نحو المريض تعاين حالتهُ، لكنها شهقت فجأة بألم...

- رحماكَ يارب من ذلكَ الوحش الذي فعل هذا به؟؟

قالت بذهول ما أن رأت وجههُ، لم يكن هنالكَ وجه، لقد شوه وجههُ بالكامل!؟

لكنَّ عينيهِ الحزينتين نظرتا الى الطبيبة بألمٍ وتوسلٍ كي تنجدهُ وتساعدهُ...

آثار الحروق والسكين واضحة فوق وجنتيه لقد تعمد من آذاهُ تعذيبه أولاً بالسكين ثم تشويهه بحامض كيميائي حارق...

- من فعل هذا بكَ بحق السماء.. صاحت الطبيبة بدهشة فتمتم الشاب بذهول...

- أنا، أنا، لا أذكر أي شيء، أنا لا أعلم ماذا جرى...

حسناً، من أي بلد أتيت؟؟

قل لنا لنتصل بذويكَ، نظرَ الشاب إليها بدهشة وهو يفكر لثوان نظرةً ممزوجة بالألم وأردف...

- أو تصدقين!!

أنا لا أذكر أسمي ولااااا من أين أتيت!! رحماكَ ياألهي...

- حسناً، أنا بحاجة الى تخديركَ الآن لأقوم بتطبيب جراح وجهكَ، ساعداني رجاءاً على وضعِهِ بالشكل الصحيح على السرير.. يجب أن أقطب لهُ جراح وجهِهِ وأنفِهِ بعد ذلك بضماد طبي لكنني لا أستطيع إجراء عملية تجميلية لوجهكَ فذلكَ ليس من ضمن أختصاص عملي، هل ذلكَ واضح أيها السيد الغريب كائناً من كنت؟؟

- نعم، حضرة الطبيبة وأنا جداً شاكراً لكِ، أرجوكِ أسعفيني وأفعلي ماشئتِ.. فقط خلصيني من ألمي...

- حسناً، إذاً هلما وساعداني رجاءاً سأبدأ الآن...

ردَ لي قلبي

(الجزء الثاني)

كانت لفافة بيضاء تحيط وجههُ.. تلمَّس وجههُ بيديه وهو ينظر الى المرآة بتوجس.. حاول أن يرفع جزءاً من تلك اللفافة ليرى ماحصل لوجهِهِ، عندما سمع صوتاً آمراً من خلفِهِ يأمرهُ إلاّ يفعل، فأسرعَ الى سرير المرضى بوجل وهو يلتفت نحو مصدر الصوت، كانت تلكَ هي نفسها الطبيبة التي أنقذت حياتهُ...

دلفتُ الى غرفة المرضى ونظرتْ إليه بقلق، نظر إليها بأمتنان وهو ينهض بسرعة ليحييها...

- أنا عاجز عن شكركِ حضرة الطبيبة، لا أعرف كيف أكافؤكِ ولا أذكر عن نفسي شيئاً مطلقاً حتى أنني لا أستطيع تذكر أسمي، لكنني مستعد أن أكون طوع أمركِ وخادماً أأتمر بأمركِ ومساعداً وفياً في جميع شؤون مرضاكِ...

نظرتِ الطبيبة إليه باستغراب شديد.. فكرت لبرهة وهي تتأملُ لفافة رأسِهِ التي تحيط وجههُ بشكل كلي ولاتظهر منهُ سوى عينيه وفتحتي أنفِهِ وشفتيه..

- حسناً، أنا لا أعرف ماالعمل بالنسبة لذاكرتكَ، ولم أضع هذا في حسباني.. يعني أنتَ الآن بلا ماوى ولاتعرف أين منزلكَ، ولا كونكَ متزوجاً أم لا، لربما تكون لديكَ زوجة تنتظركَ في مكان ما من هذا العالم، أطفال ينتظرون عودتكَ!!

سوف أخذكَ في نهاية الأسبوع معي لزيارة صديقٍ من أصدقاء والدي القدامى، علهُ يفيدكَ في معالجة نسيان ذاكرتكَ، لكنني الآن أفكر في أمركَ، يجب أن تجد مسكناً...

- أو لا يمكنني أن أمكثُ هنا؟؟

هتفَ الشاب بأسى، رفعَ ناظريه الى الطبيبة بقاق وأردف قائلاً...

- يمكنني المكوث في عيادتكِ في الليل فقط وفي النهار، سأحرص على العمل طوال ساعاتِهِ حتى المساء لأستطيع كسب قوتي.. نظرت الطبيبة الى الشاب بتوجس وأردفت...

- يجب رفع اللفاف والضمادات عن وجهكَ بعد أيام قلائل، ولكن آثار الحرق ستظل في وجهكَ وستظلُّ مشوهاً كلياً، ولأصارحكَ بالحقيقة، لا أعتقد أنكَ ستجد وظيفةً في هذه القرية مع وجهٍ كهذا، أعتذرُ منكَ يمكنكَ المحاولة ولكنني شبه يائسة من هذا الأمر لأنَّ حروق وجهكَ جداً كبيرة وأنا عالجتُ وجهكَ كي يزول الألم فقط وقطبتُ جراح السكين التي عملت عملها في وجهكَ وذلكَ أقصى ما أمكنني فعلهُ...

- إذاً ما الحل؟؟

هل سأبقى عالة هكذا؟؟

كلا سأبحث عن عمل من الغد...

- بالتوفيق إذاً، عن إذنكَ وتصبح على خير، يمكنكَ المكوث مؤقتاً حتى العثور على عمل لكنني سأقفل الباب عليكَ لأنه جزء من منزل والدي فأستميحكَ عذراً لذلك...

-كلا، حضرة الطبيبة، أنا الذي أعتذرُ منكِ لتطفلي عليكِ وممتن لسماحكِ لي بالمبيت...

وتبادلا النظراتِ بسرعة قبل أن تغلق الباب بالقفل وتذهب نحو غرفتها لتنام في اليوم التالي بدء الشاب رحلة البحث عن عمل، كلما سأل شخصاً عن أحتياجِهِ مساعداً ما، كان يتفرس وجههُ بدهشة ويمطُّ شفتيه بنفس السؤال...

- أنتَ الغريب الذي حل على قريتنا أليس كذلكَ؟؟

وعندما يجيب بالإيجاب يتابع صاحب العمل قولهُ...

كلا، لستُ بحاجة لشخص غريب لا أعرف عنهُ شيئاً وأيضاً من المحتمل أن يكون هارباً من السجن أو مشتركاً بجريمة ما سببت حروقاً لوجههِ عادَ عند المساء خائر القوى لم يتناول

من الطعام شيئاً لعدم حملِهِ أية نقود.. كانت رائحة حساء لذيذة تفوح من منزل الطبيبة دفعتهُ للذهاب مباشرة نحو مطبخها...

– هاااا، إذاً لم تجد عملاً كما هو متوقع؟؟

– أنا جائع جداً لم أتناول شيئاً منذ البارحة عندما أعطيتيني رغيف الخبز ذاكَ...

– ياألهي، أو من المعقول، لماذا لم تقل؟؟

– خجلتُ منكِ قبل أن أخرج الى العمل ولم أشا أن أطلب نقوداً.. عارٌ علي فعل ذلكَ...

نظرت الطبيبة بدهشةٍ إليه.. شعرتُ بصدق نبراتهِ.. كان يتحدث متأثراً وكأنهُ يطلب شيئاً عظيماً لا طعاماً...

– صدقيني سأدفع لكِ ثمن كل لقمة مع المبيت عندما أحصل على عمل أيتها الطبيبة...

– تفضل بالجلوس الآن الى مائدة الطعام في صالتي هيا ساعدني على حمل الصحون...

حسناً إذاً، أنا جداً شاكراً لكِ حضرة الطبيبة وسأغسل الصحون بنفسي بعد الطعام...

نظرت الطبيبة الى مريضها بدهشة ممزوجة بالسعادة وابتسمت حتى بانت أسنانها المتراصة.. ظلت ترقبهُ وهو يأكل بنهم بسبب جوعِهِ الشديد، حتى أكمل أربعة صحون من الحساء مع ثلاثة أرغفة من الخبز ودجاجة كاملة كانت قد أعدتها احتياطاً لعلمها بوجودِهِ، لكنَّها لم تتوقع أن يأكلها بأكملها.. نظر إليها أخيراً بعد أنَّ أنهى طعامهُ ولاحظ أنَّ الطبيبة لم تضع دجاجةً أمام صحنها فشعر بالأحراج الشديد...

– حسناً.. هل أكلتُ كثيراً؟؟

– لا بأس!! هنيئاً مريئاً...

قالت وهي تبتسم بسعادة إذ شعرت أنها مسؤولة عن ذلكَ الشاب بشكل ما وكأنَّ طاقة من الحنان والعطف أحاطت قلبها تجاههُ، نظرتْ إليه وكأنها تكلم طفلاً صغيراً...

حسناً، إذهب للنوم الآن أنتَ متعب أنا سأغسل الصحون لاعليكَ، وغداً صباحاً إذهب للبحث عن عمل، فإن لم تجد حتى الظهيرة فعليكَ موافاتي الى منزل عائلة (...)، كي تنقل إبنهمُ المريض الى هنا لأنهم أستدعوني اليوم لجلسة علاج ولدهم المشلول الذي هو تحت رعايتي وكلا والديه عجوزان لايستطيعان حملهُ، ولذا كنتُ بحاجةٍ ماسة لكَ لو لا أنكَ ذهبت للبحث عن عمل...

- إذاً هل يمكنني أن أكون ذا فائدة لكِ هنا ياحضرة الطبيبة!! هتفَ الشاب بحماس، أغمضت الطبيبة عينيها لبرهة ثم نظرت الى الشاب الضخم مركزة نظراتها على عضلاتِهِ وضخامة قامتِهِ، رمشت بعينيها عدة مرات بإرتباك وقالت أخيراً...

- حسناً، يمكنني أن أجد لكَ عملاً في عيادتي كنقل المرضى وحملهم ومساعدتي على حمل أولئكَ الذين أعالجهم لأنني بمفردي غالباً ماأواجه صعوبة في الأمر وأضطر الى أستدعاء أولياء المرضى أو ذويهم كي يعينوني في حملهم...

وما أن قالت الطبيبة حتى إرتسمت إبتسامة عريضةٌ على شفتي الشاب اللتين كانتا بارزتين من تحت اللفافات البيضاء مع عينيه السوداوين فقط، أطرقتِ الطبيبةُ بخجلٍ مفاجئ وشعرت بإرتباك مباغت لم تفهم كُنْهَهُ، بينما تمتم الشاب بكلمات العرفان...

- لا أعرف كيف أردُّ معروفكِ سيدتي الطبيبة، لكنْ صدقيني سوف أردُّ لكِ معروفكِ يوماً ما ولو كانَ آخر عمل لي في حياتي...

رد لي قلبي

(الجزء الثالث)

رفعت اللفافة من فوق وجههُ ونظرت إليه بحزن.. كانَ وجهه مشوهاً بالكامل.. طلبَ منها إعطاءهُ المرآة.. رفضتْ في البدايةِ لكنها أذعنت للأمر بعد حين.. نظر الى وجهِهِ وهو غير مصدقٍ مايرى.. قروحٌ صفراء وفقاقيع في جميع أنحاء وجهِهِ...

– هل هكذا أبدو إذاً؟؟

– حسناً، نعم على مايبدو...

– لربما كانت اللفافة أفضل لي الآن!! من سيرضى أن ينظر الى وجهي وليس أن يعطيني عملاً، وأنا لا أزال أبحثُ عن عمل...

نظرت إليه بشفقةٍ وتداركت بسرعة...

أعتقد أنكَ بحثتَ كثيراً عن عمل فلم تجد وعملكَ معي في العيادة جداً نافع لي، ثم إن قيادتكَ سيارة الأسعاف الخاصة بي وجلب المرضى أو حمل المقعدين إليَّ هو عملٌ بحد ذاتهِ تتقاضى أَجْرَةُ بمبيتكَ في عيادة أبي التي ورثتها عنهُ وطعامكَ الذي تتناولهُ، فما رأيكَ؟؟

تبادلا النظرات.. كان يعلم أنها تخفّفُ عنهُ، ولذلكَ نظر إليها بعرفان كبير، أما هي فقد نظرت إليه بشفقة وحنان.. قطعت حبل الصمت بقولها فجأة...

– حسناً، لقد أتصلتُ هاتفياً بصديق والدي المتوفى.. إنهُ طبيبُ أعصابٍ وأنا على يقين أنه سوف يساعدكَ ولو قليلاً على إستعادة جزءٍ من ذاكرتك...

– والآن...

قالت بإرتباك وهي تناولهُ المضادات الحيوية مع كأس من الماء...

– عليكَ أن تواضب على هذه الأدوية بإنتظام، لأنَّ حروق وجهكَ يمكن أن تسبب التهاباً حاداً.. لقد عالجتُها لكَ وعقمتها الآن...

قالت ذلكَ وهي تمسح وجههُ بقطن طبي مع مادة السبرتو المعقمة.. كان يتألم بصمت...

–أعلم أنها تحرقكَ لابأس تحمل الألم قليلاً.. هل تريدني أن ألفَّ وجهكَ الآن أم أدعكَ ترتاح من اللفاف قليلاً؟؟

قالت الطبيبة بأسى، وهي تنظُرُ الى عيني مريضها الحزينتين.. رفع عينيه إليها وهو يضغط بأسنانهِ على شفتهِ السفلى، كي لا يصدر صوتَ تأوهٍ من شدةِ الألم...

دعيني أرتاح منها أرجوكِ...

– حسناً، سألفُّ وجهكَ في الصباح، يجب أن لاتتلوث هذه القروح...

– أعلم هذا لكنني تعبتُ من هذه اللفافة التي تشدُّ وجهي طيلة الوقت أشعر أني كمومياء من زمن الفراعنة...

– حسناً، لابأس عليكَ سأتركَكَ لترتاح الآن...

– شكراً لكِ حضرة الطبيبة...

قال ذلكَ وهو يمسك يدها التي كانت لاتزال فوق وجنتهِ تمسحُ قراحَ وجِههِ، أمسكَ يدها ولم يبعدها عن وجنتِهِ بل ضغط بها فوقها بقوةٍ...

– أنا ممتنٌ لكِ...

سحبتِ الطبيبة يدها بسرعةٍ، وتداركت متعلثمة...

– أنا أفعل هذا لجميع مرضاي فلا داعي للشكر، سعادتي هي في شفاء من حولي وإعادة البسمةِ الى حياتهم، بدون أجور في أغلب الأحيان.. لأنَّ أهل قريتي أناس بسطاء كما رأيت...

قالت ذلكَ وقد ولتْ ظهرها لهُ متظاهرةً بغسل يديها بماء الصنبور المتصل فوق مغسلة صغيرة خُصَّصَتْ لغسل وتعقيم الأدوات الطبية.. مضتْ نحو بابِ العيادة وخرجتْ بسرعةٍ لتقفلها خلفها وهتفتْ قبل ذلكَ دون أن تلتفت...

– تصبح على خير تنفست الصعداء وتأوهت بألم...

– ماذا يجري لي ياترى؟؟

قبيل فجر اليوم التالي فتحت الطبيبة باب العيادة فزعة وصرخت بالشاب كي ينهض ويجلب معها مريضاً تعرضَ لحادث سيارة في الطريق الرئيسي المؤدّي الى تلكَ القرية...

– أسرع هيا لقد أتصلَ أهلهُ هاتفياً بي يجب علينا أن نسرع، ركبت معهُ في سيارة والدها الخاصة لنقل المرضى.. كانت أشبه بسيارة إسعاف حقيقية إلا أنها لم تكن تابعة لأي جهة حكومية، كان هو من يسوق، وقد دهشت لبراعتهِ في القيادة في ذلكَ الظلام الحالك، ماخلا بعض الأنارة المنبعثة من أعمدةٍ متفرقةٍ على قارعة الطريق الجبلي ذاكَ المطل على البحر، كانت تنظر إليه من طرف خفي بدهشة وهي تتأمل قسماتِ وجهِهِ، لابدَّ وأَنَّهُ كان وسيماً فيما مضى، هكذا خاطبت نفسها لأنها لم تجرؤ على سؤالِهِ عن ماضيه مطلقاً بعدما أخبرها أنهُ لايذكر حتى أسمهُ، فقد أخذت القرية كلها تناديه بنفس الأسم الذي أطلقتهُ هي عليه فهي من سمتهُ بناءاً على طلب منهُ، ألتفتَ الشاب إليها أخيراً وهي لاتزال في أحلام يقظتها...

– هل وجهي مرعب الى هذا الحد حتى تتفرسي فيه طيلة الدرب؟! تأوهتْ بدهشة، وأشاحت بناظريها نحو النافذة القريبة لها.. لم تجبْ بشيء لم يتجرأ أن يعيد سؤالهُ.. شعرت بالشفقة عليه إذ أنهُ كما عللت الأمر بسرعةٍ لنفسها بسكوتها عن الجواب قد ظن فعلاً أنهُ بشعٌ للغاية فألتزم الصمت...

– في الواقع...

نظرت إليه متلعثمة...

– كنتُ أفكر في مدى وسامتكَ قبل أن تصيبكَ الحروق والجروح هذه...

- حقاً!؟

إلتفتَ نحوها وهو يسوق بسرعة فكاد أن يفلت المقود وينقلبا في الوادي لولا أنهُ تداركَ بمهارة سائقٍ متمرسٍ الأمر وأعادَ السيارة الى مسارها الصحيح.. شهقت الطبيبة بذعر...

- آسف جداً، لم أتقصد هذا...

- أعلم، أعلم، لاعليكَ...

يعني أنتِ تعتقدين أني لستُ بشعاً...

- بل أنا على شبه يقين أن هنالكَ زوجة تنتظرك في مكان ما.. ياليتني أعرف قصتكَ...

تأوه الشاب بألم...

- ليتني أذكر شيئاً، لكنني لا أتذكر وجود زوجة لي ولا أطفال.. كلُّ ما أراهُ في أحلامي كوابيس غير مفهومة أتمنى لمَّشعثها كي أربط خيوطها...

- أنظر إنهم هناكَ أهل ذلك الشاب، هيا بنا لنسرع...

ساعدَ الشاب في نقل المريض الذي أصيب بكسور عديدة الى عيادة طبيبتِهِ.. حاول والدا المصاب إعطاء نقود لهُ في خفية عن عيني الطبيبة، لكنهُ وبدون شعور رفض وبكبرياء شديدة، شعر أن صفتهُ تلكَ متأصلة فيه وتتساءَلَ في قرارة نفسهُ وهو ينظر الى طبيبتِهِ توجه تعليماتها لأولئكَ الأخوة الذين جاؤوا مع الشاب المصاب في الحادث بينما كانت تحضر جهاز الأشعة كي ترى مدى سوء كسورِهِ.. كان يفكر في سريرتِهِ...

«ياترى من أكون حقاً!! ولكنْ لماذا أجد نفسي منجذباً الى هذه الفتاة»؟؟..

«لم لا أغادر فحسب، أو لأنها أنقذتْ حياتي، ولكنْ هي تفعل ذلك لكل الناس وليس لي فحسب ولكنْ لمَ لمْ ينشر أحدٌ ما في الجرائد خبر فقدان شابٍ أو مقتلهُ، كنتُ حينها سأعرف من هم أهلي أو من المعقول أنهُ لا أحد لي في الدنيا»؟؟...

- هل تحتاجين مساعدتي؟؟

هتفَ فجأةً وهو يرى عيني الطبيبة متجهتين نحوهُ.. حركت يدها دلالة النفي فظل مسمراً في مكانِهِ...

- إذاً لم نظرت نحوي؟؟

«هل من المعقول أن تكون قد أرادت الأطمئنان على وجودي قربها»؟؟

جلسا عند الطاولة في غرفة الجلوس يتناولان طعام الأفطار.. لم يرفع أحدهما عينيه نحو الآخر، هتفتِ الطبيبة أخيراً وهي تناولهُ قدح الشاي، لقد هاتفتُ صديق والدي وهو في إنتظارنا اليوم قبل الغداء لكنني سألفُّ وجهك أولاً!!

كلا، أريدهُ هكذا، أريد أن يراني الناس بشعاً كما أنا بقروحي ودمامِلي الناتجة عن الحرق...

أطرقتِ الطبيبة بعينيها نحو قدح شايها ولم تجب بشيء، بعد مرور مدة من الصمت الثقيل بينما رفع الشاب الصحون والأقداح وشَّمر عن ساعديه ليغسلها.. هتفت الطبيبة وهي تناولهُ إبريق الشاي ليغسلهُ...

حسناً، لقد أصرّ والدا ذلكَ الشاب المسكين أن أُعطيكَ هذا المبلغ جزاء مافعلتهُ من حمل أبنهما بكل لطف وتحملك عناء الذهاب بي الى هناكَ.. لقد أمتدحاكَ كثيراً وكذلكَ فعل إخوةُ المصاب وأعربوا جميعاً عن أسفهم لما أصاب وجهكَ...

- آه، هل أنا موضع شفقة الناس الآن...

زفر الشاب بألم ولم يلتفتُ الى الطبيبة مطلقاً.. غسل الأبريق ووضعهُ بجوار الأقداح الزجاجية...

- لا أحتاج نقوداً من أحد خذيها أنتِ...

قالَ ذلكَ وأرجعَ كمَّ قميصِهِ الأيسر ثم الأيمن الى مكانهما قرب رسغي يديه، نفض يديه من الماء ونشَّفهما بالمنشفة الصغيرة قرب الطباخ.. إلتفتَ أخيراً نحو الطبيبة المندهشة...

- هلا ذهبنا للقاء طبيبكِ...

ردَ لي قلبي

(الجزء الرابع)

حسناً جداً...

قلتَ لي أنكَ لاتذكر من تكون ولا من أين أتيت لكنكَ تحلم بكوابيس مخيفة كسقوطكَ في الماء وتكتيفكَ أو محاولتكَ الخروج من عمق المياه بدون جدوى...

- نعم حضرة الطبيب...

- حسناً جداً، الذاكرة مخادعة جداً ربما تعود فجأة وربما بالتدريج وربما لاتعود أبداً يعتمد ذلكَ على الأمور التي تحفز الدماغ على التذكر، وأنا كوني طبيباً مختصاً ذاع باع طويل وخبرة كبيرة في هذا المجال أستطيع أن أقول لكَ أن أول حلقة في تذكركَ من تكون هي معرفتكَ شكل وجهكَ فلوجهكَ الأثر الكبير في تحفيز ذاكرتكَ لأن الطفل في أول محاولات تعرفِهٍ على ماحولهُ من محسوسات، يبدأ بتلمس وجههِ و رؤيةِ نفسِهِ في المرآة، فتراهُ يتكلم مع نفسهُ أو يتفرس بوجههُ طويلاً أمام المرآة في محاولة منهُ أكتشاف ماحولهُ.. عندما أكمل الطبيب كلامهُ تبادل الشاب والطبيبة النظرات الخائبةَ، لمّا نهض الطبيب وطلب رؤية الطبيبة في مكتبِهِ فوراً...

دلفت الى المكتب فصاح بسرعة...

- أغلقي الباب...

- مالأمر يادكتور؟؟

- مامدى علاقتكِ به والى أي حد تهتمين بشأنهُ؟؟

قال الطبيب العجوز مثبتاً نظراتِهِ على الفتاةِ.. ذعرتْ نظراتها وحارتْ جواباً، فصاح بلهفة

المراهقين...

أهااا، أنا أرى حباً خفياً.. هنا أنتِ معجبة جداً بهذا الغريب ياابنة صديقي القديم.. أطرقتِ الطبيبة بخجل بسرعة كبيرة، تلعثمتْ وحارت جواباً...

– إذا كنتِ مهتمة بشأن هذا الشاب فعليكِ أن تعالجي وجههُ بأي ثمن فأول خيوط اللغز ستنكشف عند ذاكَ...

– ولكن، ولكن ياعم من أينَ لي ذلكَ المبلغ الكبير يجب أن تجري لهُ عملية تجميل كبرى، ليس بإمكاني، ولا من ضمن قدراتي إجراؤها، وليس لدي المبلغ الكافي ولا لحد ربع قيمة العملية مع كل الأسف...

– آه، حسناً، ولكن من الأفضل لكِ أن لاتظلي برفقة هذا الرجل كثيراً فلسوف يتقولون عليكِ الأقاويل، أنا بمقام والدكِ ولا أريد أن يمسَّكِ أحدٌ بسوءٍ ياعزيزتي، وكُليّ يقينٌ أنَّ مجيئَكِ معهُ إليَّ اليوم سيسّببُ لكَ أزعاجاتٍ كثيرةٍ فأنتما لم تخرجا لعمل ولم تذهبا لعيادةِ أو معالجةِ مريض كما أعتقد أوَ ليس كذلك، وللناس أعين وألسنة حادة...

أطرقت الطبيبة بخجل...

– أنا أعلم بكل هذه المخاطر، لكن واجبي تجاههُ حتَّمَ علي خوض هذا الأمر، وجَلْبَهُ إليكَ مهما كلف الأمر...

تبادل الطبيبان النظرات الحازمة، كانت الطبيبة مصممة على مساعدة الشاب بأي ثمن، أما صديق والدها فقد قامَ بشرح بعض النقاط المهمة التي تساعد مريضها على أسترجاع ذاكرتهِ لها، والتي لايفهمها سوى طبيب مثلهُ.. شدَّ على يدها وهي تودعهُ، قبلتهُ فوق جبينِهِ إمتناناً.. تساقطت خصلاتُ شعرِهِ البيضاء بسرعة فوق عينيه...

– طفلتي الصغيرة.. إذهبي، إذهبي، كان والدكِ ليفخر بكِ الآن ياطبيبة القرية الرائعة الجمال...

أحمرت وجنتا الفتاة ولاحت منها التفاتة نحو الشاب، فوجدتهُ ينظرها بأمتنان وإعجاب.. هتفت في سرها «ليتني كنتُ جميلة حقاً كما تقول ياعماه«...

عندما عادا أدراجهما وجدت إبن عمها ينتظرها في منزل أبيها هتفت بسعادة وهي تصافحهُ بحرارة، حمداً لله على سلامتكَ متى عدتَ من سفركَ؟؟ سعيدة بزيارتكَ لي...

شدَّ إبن العمِّ على يديها امتناناً وشوقاً وقال لها بصوت خفيض وهو ينظر الشاب بغضب ممزوج ببعض الكراهية.. علينا التحدث على إنفراد...

– عن أذنكَ أنهُ أبن عمي...

لم تكمل جملتها التعريفية، عندما سحبها أبن العم بيدهِ نحو غرفة الجلوس.. جلسا متقابلين.. نظرتِ الطبيبة إليه بأستغراب...

– ما الأمر؟؟

– أنتِ تعرفين كم كانَ عمي أثيراً لدي، صحيحٌ أنني في سفرٍ للدراسة، لكنَّ أخباركِ كلها عندي يوماً بيوم...

– أو هل تتجسس علي ياأبن العم؟؟

– نعم، من حقي ذلكَ، يجب أن أخاف على سمعةِ العائلة، لقد رفضتيني من قبلُ، لا بأس!! أنا لستُ هنا لأخوض في هذا الأمر، لكنْ عليكِ أنَّ تعلمي أن أهل القرية مستاؤون من بقاء هذا الشاب هنا معكِ في منزل عمي حتى وإن كان مريضاً ولا يزال وجههُ بحاجة لرعايتكِ الطبية، وحتى وإن كان فاقداً لذاكرتِهِ كما يزعم، ولسنا على يقين من هذا إسمعيني ولا تقاطعي كلامي.. سيخرج هذا الرجل الليلة من هنا هل تفهمين؟؟

– لكن أين سيسكن؟؟

– هل أنتِ قلقة للغاية عليه؟؟

– أبن عمي اسمعني، أنا طبيبةٌ، ومن حقي رعايةُ مرضاي، وأنتَ تعلم مدى حرصي

عليهم...

- حسناً، لخاطركِ ولأجل عينيك فقط سأدعهُ يبيت فقط في منزلي هل تسمعين، حتى يستعيدذاكرتهُ...

أنتَ تعرف صديق والدي الطبيب (...) أو ليسَ كذلكَ.. لقد ذهبتُ به إليه وهو يصرُّ على معالجتِهِ وجهِهِ كأولى خطوات علاج ذاكرتهِ، لكنْ ليس لي مبلغُ علاج عمليتِهِ التجميلية...

تأوه إبن العم بألم وصاح بعصبية...

- وكذلكَ تريدين علاجهُ على نفقتكِ إذاً فكل ماسمعتهُ صحيح وأنتِ على علاقة به...

- كلا، إبنة عمكَ أشرف من الشرف نفسِهِ وأنا أعتذرُ عن أي أزعاج سببتهُ لكِ ياحضرة الطبيبة، سأرحل الآن من تلقاء نفسي، لابأس يمكنني تدبير أموري حتى وإن كنتُ لا أعرف حتى إسمي...

قالَ الشاب ذلكَ وهو يدلف غرفة الجلوس فجأة، انتفض أبن العم وأمسكَ به من تلابيبهُ...

- أسمع ياهذا لاتلعب هذا الدور عليَّ، أنتَ لستَ فاقداً للذاكرة أبداً.. مجردُ مدَّعٍ جبان...

- كنتُ لأرد عليكَ لولا احترامي للطبيبة كونكَ إبن عمها...

أسمع أنا راحل ولستُ كاذباً أبداً ولتذهب أنتَ وأهل القرية التي رَعَتْها وترعى أهلها، هذِهِ الملاك الطيبة جميعكم الى الجحيم لسوء ظنكم وتهمكم أنتم حمقى...

قال الشاب ذلكَ وهو يمسك بقبضِتِهِ يد إبن عم الطبيبة بغضب، وما أن أتم جملتهُ حتى رفع قبضتهُ من فوق عنقِهِ ولوى ذراعهُ ثم دفعهُ بقوة فوق الأريكة...

- كنتُ لأضربكَ على كل كلمة قلتها على الطبيبة وعلي، لكنْ لأجلها لن أمسَّكَ بسوء، وداعاً حضرة الطبيبة وشكراً لكِ على كل شيء من الأعماق، لن أنساكِ أبداً...

ردَ لي قلبي

(الجزء الخامس)

بكت الطبيبة في تلكَ الليلة حزناً على رحيل مريضها لم تعلم أين ذهب أو ماالذي حل به لم يذهب الى منزل إبن عمها طبعاً وتوقفت عن البحث عنهُ بسيارتها في الطرقات.. عندما تجاوزت العاشرة مساءاً وعادت أدراجها خائبة الآمال، لم تستطع النوم مطلقاً وظلت تتقلب يميناً وشمالاً وهي تفكر في مصير الشاب المجهول، كانت تصدقهُ بكل كيانها.. تذكرتْ كلماتِهِ التي قالها لها وهما يعودان الى منزلها من زيارة صديق والدها، لقد نظر إليها فجأةً وهي تقود بجوارهُ في طريق العودة، إذ أنهُ قاد سيارتها في طريق الذهاب...

- هل لي بطلب واحد حضرة الطبيبة وأرجو أن لاتردي طلبي...

نظرت إليه بدهشة وإبتسمتْ وهي تشعر بالبهجة كونها ساعدتهُ ولو قليلاً في رحلة شفائهِ، فلقد تعاطفت معهُ كلياً وهي تسمع صراخهُ في الليل ونهوضهُ المفاجئ أثر كابوس ما لعدة ليال متعاقبة وعلمتْ أنَّ من آذاهُ قد فعل فعلتهُ لسبب قوي دون شك، لكنْ ما لم تفهمهُ هو السبب نفسهُ، ومع ذلك فقد تعاطفت كلياً مع معاناتِهِ فأيُّ وحشٍ يمكن أن يفعل ذلك بأي بشر مهما كانت فظاعة أعمالهُ؟؟

ذلك ماكانت تحدث نفسها به ومع رؤيتها لتصرفاتِهِ الشجاعة وهِّمتهِ في مساعدة مرضاها وتفانيه في حمل المشلولين والعاجزين الى عيادتها، كلُّ ذلك جعلها تؤمن أنَّ هنالك قصة مؤثرةً خلف حروق وجههُ وأنه لا بدَّ وقد تعرض للأذى الشديد ظلماً دون ذنب.. كانت نسمات الهواء تداعب وجنتيها وهي تسوق السيارة في تلك الطرقات الجبلية الوعرة ذات المناظر الجميلة إبتسمت وهي تنظر نحوهُ.. قل ما تريد كلي آذان صاغية...

– حسناً، أعلم أنهُ ليس مكاناً ولا زماناً ملائماً لكنني فعلاً ومن كل قلبي ياطبيبتي أحببتكِ وأتمنى أن توافقي على الزواج مني...

أصفر وجه الطبيبة وامتقع بشدة وكادت تفلت مِقوَدَ السيارة، فتندفع بهما الى البحر من مسافة شاهقةٍ، لكنَّ الشاب أمسكَ المقود بسرعة وسيطر على اتجاه السيارة.. توقفتْ بها على قارعة الطريق، رفع رأسهُ نحو الطبيبة وكان قريباً منها بحيث سمع أنفاسها اللاهثة...

– أنا أعتذر إن تطاولتُ أو تعديتُ حدودي معكِ، لكنني صادق في كلَّ مشاعري تجاهكِ...

لم تتكلم بل بكت نزلت دموعها الحائرة مدراراً، فنظر إليها بألم...

– لم البكاء هل أنا سيء الى هذا الحد؟؟

– كلا (ومسحت دموعها)، على العكس أنتَ أنسان رائع.. روحكَ طيبة للغاية، وأنا أحببتُ روحكَ هذه ولا يهمني شكلكَ أبداً...

إذاً لم البكاء ياطبيبتي الغالية.. أشاحت بوجهها عنهُ...

– لقد بكيت لأني، لأني، تمنيت لو ألتقيتكَ في وقتٍ سابق أو أنكَ عرفتَ من تكون، ذاكَ لأني، لأني أحببتكَ من كل قلبي...

نظر الشاب إليها بدهشة...

– أو حقاً ياغاليتي!!

شهقَ بسعادةٍ لاتوصف، وحاول أن يقترب نحوها، لكنها إبتعدتْ بسرعة ودفعتهُ بقوة بيديها وقالت بألم...

– من المستحيل لي أن أبْنيَ سعادتي على تعاسة مخلوق ما في هذا الكون وأنا على يقين، صدقني، أنا شبه متيقنةٍ أنَّ أمثالكَ ليسوا بدون زوجات بل لابد أن هنالكَ إمراة ما تنتظر عودتكَ ولستُ أنا من ترتضي لنفسها أن تكون مجرد عشيقة ما تملهُّا في أحد الأيام، أو أنْ أبني سعادتي على إيذاء مخلوقةٍ أحبتكَ وأحببتها قبل أن تعرفني...

تنفست الصعداءَ أخيراً، إعتدَلَ الشاب في جلستِهِ ولم يعقبْ على كلماتها شيئاً، عادت أنامل الطبيبة تتلمس المقود بينما ضغطتْ بقدمها على ضاغطة البنزين أسفل منها وانطلقتْ بسيارتها نحو منزل والدها ولما لاحت تباشير الصباح إنتفضت الطبيبة وهي تقفز من فوق سريرها بفزع.. تخيلتْ أنَّ الشاب قد نامَ في العراء دون غطاء وتخيلت أنهُ ربما سقط اسفل الوادي أو أن مصاباً حل به.. أدارتْ المفتاح في قفل سيارتّها بعد أن أرتدت ثياب العمل بسرعة وسارت بالسيارة نحو قارعة الطريق عندما ناداها صوت من خلفها بإسمها كي تتوقف.. كانت هنالكَ آمرأةٌ عجوز تمسك بفتاةٍ صغيرة تتقدمان نحوها...

– حضرة الطبيبة لقد جئتكِ كي تعالجي حفيدتي...

التفتت الطبيبة بجزع.. كانت تشتهي أن تصرخ بأعلى صوتها كي يتركها أي شخص لوحدها، ولكن لا فائدة من ذلكَ فقد كانَ لزاماً عليها أن تتمالك نفسها...

– نعم، سيدتي.. حسناً أنا، آه لا بأس، آتيه نحوكِ، نعم أنا آتيه...

تركت السيارة وذهبت نحو مريضتها وقلبها يعتصر ألماً وعادت الطبيبة الى عيادتها.. سرتْ إشاعةٌ بعد يوم واحدٍ من مغادرة مريضها، أنَّ ذلكَ الشاب المشوه الوجه قد سَقطَ أسفل الوادي، وتحطمت عظامهُ، وتقولَ الناس عنها الأقاويل، وكانت تسمع بأذنيها أن السماء قد إنتقمتْ من ذلكَ الشاب فَرَمَتْهُ من فوق الجبل، وتركت الطبيبة وحيدة كما كانت لأنها تبقى طبيبة القرية العذراء، ولا يجوز المساس بنقائها.. لم تتألم من تلكَ الإشاعات قدر ألمها الشديد لرحيلهِ وفقدانهِ.. بكَتْهُ كثيراً وكانت تذهب كلَّ مساءٍ أسفلَ الجبل عند الساحل، تقفُ لساعةٍ أو أكثر.. تناجي الموج وتبكي طيف حبيبها الراحل.. مرت الأيام كل يوم عند مائدة الفطور أو الغداء أو العشاء.. كانت الطبيبةُ تتمنى أن تفتح الباب فترى وجههُ خلفها أو أن يجلبهُ أحد ما إليها مصاباً كما المرة الأولى فتعالجهُ ولكنْ كانت الأيام تتوالى بنفس النسق وكذلك الأشهر والسنون...

ردَ لي قلبي

(الجزء السادس)

هل من المعقول أن تتحطم قلاع حصون المرء بعد سنوات من التحصين والتشييد والبناء في غضون أيام أو شهور لاتعد، ولماذا لايعاد البناء بسرعة وكيف يبقى المرء في حالٍ منَ الدمار الشامل كأنهُ تلكَ القلعة التي دكَّتْ فصارت قاعاً صفصفاً، كانت تلكَ هي ملخصاً لمشاعِرِ ذلكَ الشاب الذي سقط فعلاً تلكَ الليلة في منحدر صخري أسفل الجبل فقد لحقهُ إبن العم مع ثلةٍ من أهالي القرية الذين ألبَّهم وكانوا يحملون مشاعلاً وهم ينادون بقتلةِ، إن لم يغادر قريتهم، كان فاقداً للوعي حتى الصباح وقبل أن تنادي العجوز على الطبيبةِ، لمْ يكن قد غادر شبه الجزيرة العربية حيث قرية الطبيبة.. لقدِ أستيقظ فزعاً وهو يرى نفسهُ في الحلم خارجاً من مدرسَتِهِ حيث كان يدرس فنون القتال.. ذَهَبَ في سيارتِهِ وكان الوقت يوشك إعلان غروب الشمس.. توقَّفِ فجأة لَمَّا رأى شخصاً عزيزاً.. عليه كان صديقهُ المقرب توقف ليقلَّهُ لكن شخصاً آخر ركب معهُ فأبدى الشاب تعجُّبهُ.. سأل صديقهُ عن السبب، لم يُجِبْهُ مباشرة بل أشار عليه أن يذهب بهما الى منزل الصديق قرب البحر.. وافق المدّرب وأخذ صديقهُ ليقلَّهُ حيثما أراد.. ألح الصديق عليه أن ينزل من سيارتِهِ كي يضيِّفهُ، بعد الأحراجات المتكررة.. قرر الخضوع لرغبة ذلك الصديق، ضحك الصديق بسعادة وهو يقدم للمدرب شراباً منعشاً برفقة أثنين لم يعرفهما ذلكَ الأخير أبداً...

– ألف مبارك لكَ، لقد أصبحتَ غنياً بين ليلة وضحاها فميراث عائلتكَ قد صارَ لكَ أخيراً بعد أن مات إبن زوجة والدكَ...

– شكراً لكَ ياصديقي...

هزَ الشاب رأسهُ بسعادة وتبادل النظرات مع الشاب حولهُ بفرح.. ركّزَ الصديق نظراتهِ فجأةً على صديقِهِ وقال لهُ بمكر...

- والآن أريد حصتي من تلك الأموال كما اتفقنا...

- لكنْ أنا لم أتفق معكَ على شيء...

- (هل ستنكر ذلكَ الآن ياصديقي)...

- حسناً، كنتُ أمزح معكَ كم تريد جزاء خدماتكَ؟؟

- أنتَ تعرف كم أريد...

- لقد جلبتُ لكَ هذا المبلغ...

رفعَ حقيبة صغيرة كانَ يحملها بيدِهِ نظرَ الصديق الى المبلغ بإزدراء، قطبّ ما بين حاجبيه...

- لقد علمتُ أنكَ سوف تنكرني نقودي ولذلكَ اتفقنا على أن لايعرف أحدٌ شكلكَ وأن نضيِّعَ ملامح وجهكَ كي نرثكَ نحن وذلكَ بعد أن أقتلكَ وأتزوج زوجتكَ التي سترثك، قيداهُ فوراً...

- كلا، أيها القذر!! ستدفع ثمن فعلتكَ أعدكَ بهذا...

- ماذا ستفعل ياصديقي العزيز هه...

أخرجَ من جيب بنطالهِ سكيناً حادة، لوح بها أمام وجه المدرب الذي قاتل بكل ماأوتي من قوة وصرع الرجلين مرتين قبل أن يضربهُ أحدهما من خلفِهِ على ظهرهِ ضربة أسقطهُ بها على الأرض وقام الأثنان بتقييدهُ الى الكرسي...

- أو تظن أنكَ قادر على قتل إبن زوجة والدكَ لأنهُ مريض بالسرطان وفي المشفى على يد ممرض متمرس مثلي، ثم تنجو بفعلتكَ.. لابدَّ وأنَّ السماء غضبت عليكَ، هل ستعطيني حصتي كاملة أم لا.. أريد نصف الثروة التي تركتها زوجة أبيك...

- أنتَ حيوان حقير...

صرخَ المدرب بغضب ولم يتمَّ جُملتهُ تلك حتى سالت الدماء من وجنتيه، حيث جرحت السكين الحادة بعمق بّشَرَتهُ.. صرخ بغضب عارم وصاحَ بصديقِهِ بألم...

- سوف تدفع ثمن هذا أعدكَ، أعدكَ أيها الخنزير...

ضَرَبهُ الرجلان في معدتِهِ وصفعهُ صديقهُ الذي فتح زجاجة حامض كيميائي حارق وقربها من وجه المدرب الذي يسيل دماً...

- هل سوف تعطيني حصتي أقولها لكَ للمرة الأخيرة؟؟

-كلا، أيها الجبان الوقح على جثتي...

نظرَ الشاب في حلمهِ نفسهُ وهو مقيد اليدين خلف ظهرِهِ يلقى في البحر.. نهض وهو يصرخ بأعلى صوتهِ، لقدْ عرف كل شيء دفعةً واحدةً بسقطتِهِ تلك على رأسِهِ، عادتْ ذاكرتهُ التي غابت قرابة نصف عامٍ عنهُ...

جاء ليودعها، نظر عبر النافذة إليها وهي ترعى الفتاة الصغيرة بعناية شديدة إغرورقت الدموع في عينيه وشدَّ على قبضة يدهِ وكاد يطرق الباب.. تردد للحظاتٍ، بكى بألم وأخيراً قرر الرحيل دون وداعٍ...

- أنا لا أستحقكِ ياملاكي...

تمتم بحزن وتراجع القهقري...

- سأعود الى وطني وسأرجع زوجتي وأنقذها من براثن ذلكَ الخائن الجبان، سامحيني ياحبيبتي لقد أحببتكِ فعلاً لم أعلم أني * قاتلٌ دنيء لكن أعدكِ أن أتطهر من كل آثامي السابقة لأجل حبكِ...

كانت الطبيبة جالسةً تنظر عبر نافذة صالة منزلها الى الطبيعة الجميلة، ومنظر البحر من بعيد، إذ كان منزلها في أعلى الجبل، عندما جاءتها برقيةٌ عاجلة، فتحتها على مهل بعد أن قرأت عنوان

المرسل فعلمت أنها من جهة المشفى الذي فتح مؤخراً في قريتها.. كانت دعوة للعمل ضمن كادر المشفى الطبي.. أغمضت عينيها وتركت جسدها يسترخي فوق الكرسي وتنفست الصعداء.. لم تعد طبيبة القرية التي يعتمد الكل عليها بعد فتح تلك المشفى بمعداتها الحديثة وأجور علاجها الرمزية.. أشعلتْ عود ثقاب من علبة الكبريت التي كانت ملقاة فوق المائدة أمامها، وضعت الرسالة تحت نار ذلك العود الصغير وثم رمتها فوق المنفضة الزجاجية وظلت ترقبها وهي تحترق.. تنهدتْ بألم.. لقد مرت خمس سنوات على تلك الأحداث خمس سنوات مرت ولم يخبو وهج حبها لذلكَ الغريب.. كانتْ تذكرهُ مع نفسها كل حين ليل نهار بشكل لا إرادي، كلما رأت مريضاً، كلما جلست الى مائدة الطعام، وكلمّا نظرتْ الى عيادة والدها حيث كان يبيت وحيث كان يرعى ويحمل مرضاها بعضلاتِهِ القوية وكأنهُ يحمل شيئاً خفيفاً، ولطالما تساءلتِ الطبيبة في سرَّها عن عمل الشاب فيما سبق فقدانهُ لذاكرتِهِ ولم تجد جواباً شافياً لذلكَ، تنفست الصعداء أخيراً وهي تخرج من درجها مبلغاً من المال إدخرتهُ لأيام الكهولة والعجز.. لقدْ عقدت العزم، وحسمت أمرها ولسوف تسافر في البلدان لتنسى ولتعيش بعيداً عن أي ضغوط نفسية تذكرها بما جرى لها فلقد تعبت من البكاء ورثاء الأطلال والحديث مع البحر دونما جدوى.. مرت عدة أيام قبل أن تُكمل إجراءات الحجز والسفر، نظرت حولها وودعت كلَّ ركن في منزلها وقلبها يعتصر ألماً.. تذكرتهُ وهو يجلس هنا وهناكَ وتذكرتْ كلماتِهِ الحانية وحركات يدِهِ وكأنَّهُ يجلسُ معها.. لطالما شعرتْ في سرَّها أنهُ كان شخصاً مهماً قبل أن يفقد ذاكرتهُ.. شخصاً يُعجَبُ به كلُّ من يراهُ فطريقة حديثِهِ وثقتهُ بذاتهُ تنعكس عبر نبرات صوتِهِ ونظراتِ عينيه الثاقبتين ولغةِ جسدهِ، وعندما خرجت من الدار ودموعها تترقرق في عينيها، أرادت التحقق من صندوق بريدها، رغم أنها تحققت منهُ بالأمس فقط.. وشعرت بنوع من الحماقة وهي تفعل ذلك رغم أنها تعلم في سرها بأنَّ كل ذلكَ محاولة يائسة منها كي لا تغادر منزل والدها الذي قضت فيه خمساً وثلاثين عاماً ولم تغادرهُ يوماً أبداً، مدت يدها داخل الصندوق ولدهشتها وجدت رسالة خاصة الى شخصها معنونة الى الطبيبة الفلانية وليس عنوان الدار، وكأنَّ المرسل لا يعلم عنوان المنزل أو صندوق بريدها لكنهُ يعرفها شخصياً، ولأنَّ ساعي البريد الخاص بقريتهم يعرفها حق المعرفة مثل كل أهالي القرية فقد أوصل الرسالة بأمانةٍ الى (صندوق بريدها)، أسرعت بوضع حقيبة

سفرها على الأرض ورفعت الحزام عن كتفها، وفتحت الرسالة بقلق.. كان فحوى الرسالة إستغاثة مريضٍ بها من مكان بعيد أُصيب بمرض عضال، وعولج من قبل أطباء كثر دونما جدوى، ولأنَّ لذلكَ الشخص صديقاً من تلكَ القرية التي تسكنها فقد ذكر لهُ إسمها كآخر وسيلةٍ أو كمحاولةٍ أخيرةٍ للنجاة.. كانت مع الرسالة تذكرة سفر وصكٌ مرفق.. قرأت المبلغ فذعرت، لأنَّ المبلغ كان كبيراً حقاً بالنسبة لها، نظرت الى السماء وتنهدتْ.. لم تعرف كيف تعقد عزمها.. شعرت بحنق شديد عارم وصرختْ بصوت عالٍ هذه المرة، بحيث تلفتت لها جارتها ذات البشرة الخمرية بنفس خمارٍ بشرتها هي.. كلمتْ نفسها بصوت عال...

- لماذا، لماذا.. أو لا يحق لي أن أعيش حياتي؟؟

لماذا يجب علي أن ألبّي نداء الواجب حتى وأنا في لحظاتٍ مصيريةٍ.. أُريد أن أعيش لذاتي.. سحقاًلي...

- آه...

تنهدت وتأوهت وهي تسحق الرسالة بحذائها ذي الكعب العالي.. فجأةً توقفت عن السباب واللعن ورفعت الرسالة لتخرج الصك والعنوان وتضع الرسالة في جيب ثوبها.. مسحتْ جبينها براحة يدها اليمنى ورفعت حقيبة سفرها من فوق الأرض وعقدت العزم على قرار واحد...

ردَ لي قلبي

(الجزء السابع)

كانت قد وضعت حقيبتها على أرضية تلكَ الدار عندما تركت سيارة الأجرة وأعطت السائق ثمن توصيلها.. أمعنتِ النَظَرَ في أنحاء وزوايا الدار.. كانَ منزلاً متواضعاً لا دليل للثراء فيه إلاّ مجموعة من أواني الخزف الفاخر قدْ وُضعت خلف زجاج نوافذ دولاب من الخشب قد صنع خصيصاً لوضع التحفيات والمقتنيات التي لايريد أحدٌ المساس بها، كانت هنالكَ خادمةٌ متوسطة العمر قد فتحت لها الباب.. آستفسرت منها مذهولة...

- لو سمحتِ هل هذا هو منزل (...) الذي أرسل في طلبي لأجل مريض؟؟ أم أنني أخطأت العنوان؟؟

نظرت الخادمة الى المتحدثة بوجل وأضطراب وهمست بقلق...

- ومن تكونين سيدتي هل أنتِ الطبيبة؟؟

- نعم ومن أكون غيرها ياترى؟؟

هل تنتظرون ضيفاً آخر؟؟

- آه، رحماكَ!! أستمحيكِ عذراً سيدتي نعم، نعم، سيدي ينتظركِ في غرفة مكتبِهِ، من هنا لو سمحتي...

قالت الخادمةُ بصوتٍ خفيضٍ ومشتْ أمام الطبيبة حتى وصلت بها الى بابٍ يطلُّ على غرفة الجلوس، نقرتِ الباب فردَّ صوتٌ من الداخل.. أجابتْ عليه بأنَّ الضيفة قد وصلتْ.. فتحتِ الباب وأنحنت قليلاً وهي تنظر الى الطبيبة من طرف خفي...

- تفضلي من هنا سيدتي...

دلفت الطبيبة الى الغرفة.. كانتْ غرفةً متواضعة وُضِعَ مكتبٌ صغيرٌ في نهايتها مع دولاب للكتب بجوارِهِ بمجموعة رفوف متساوية المسافات.. كانت هنالكَ أريكتان بلون فيروزي أمام المكتب على الجهة الأخرى بينما وُضع كرسي من الجلد أمام طاولة المكتب حيث جلس رجل قبالته، نهض بسرعة ليرحب بقدوم ضيفتِهِ، كانَ رجلاً في نهاية الثلاثينات يرتدي كنزة صوفية سوداء مع بنطال أزرق، طويل القامة، أسود الشعر نظراتهُ فيها بريق غريب...

- أنا لا أعرف كيف أعرّب عن شكري وإمتناني لحضرتكِ.. لقدْ تكبدتِ عناء طريقٍ طويل للمجيء الى مدينتي، لكنْ صدقيني حضرة الطبيبة لقد أُسقط مافي يدي ولم أترك طبيباً هنا أو في نواحي المدينة أو في مدن أخرى قريبة، لم أطرق بابَهُ أو أزورهُ كي أعالج مريضتي ولعلَّ الشفاء قد كُتِبَ لها على يديكِ...

- حسناً سيدي، أنا بخدمتكم.. هل يمكنني معاينة المريضة لو سمحتم!!

- لكن لم تتفضلي بالجلوس!!

- لا أعتقد أن الوقت يسمح بذلكَ ولا داعي للجلوس هنا، فلتْذهب بي حيث المريضة...

- تقدم الرجل أمامها وفتح باب غرفة المكتب.. سارت الطبيبة خلفهُ بإذعان، صعدَ السلم نحو غرفة كبيرة.. دلف إليها مع الطبيبة حيث أشار الى سريرٍ في نهايتها...

- هناكَ حضرة الطبيبة...

أشار بيدِهِ، لم تبال الطبيبة بنظراتِ الرجل الغريبة إليها، ولم تتفَّرس النظر إليه مطلقاً، فلمْ يكن يهمها أمرهُ أكثر من مريضتِهِ التي جاءت إليها تلبية لنداء الواجب وقسمها الطبي الذي قطعتهُ على نفسها يوم صارت طبيبة قبل ذلكَ أمام والدها، الطبيب نفسهِ وهو يقول لها أن لاتترك مريضاً يحتاج رعايتها أو يطلب علاجها أينما كان في أصقاع الأرض الواسعة، لأنَّ حاجة ذلكَ المريض لها رسالة من السماء كي تختبر جأشها وخبرتها وتكافأها على أفعالها يوماً ما، تقدمت الطبيبة نحو السرير بإشارة من يد الرجل دون أن يتحدث كي تعاينها، كان سريراً وافراً بأربعة

أعمدة وسقف من القماش المطرز، تحت تلكَ السقيفة مباشرة قبعت أمرأة متوسطة العمر ذات شعر أشقر وعينين عسليتين فتحتهما لما اقتربت الطبيبة منها، فتحتْ فمها ببطء وحركت شفتيها على مهل...

- هل أنتِ الطبيبة المنشودة؟؟

- ماذا؟؟

نظرت الطبيبة بدهشة الى المرأة المريضة وتبادلت النظرات بينها وبين الرجل الذي كان واقفاً بوجوم ينظر الى المريضة ببرود تام...

- نعم أظنني هي سيدتي...

- آه، حمداً لله.. شكراً لكِ، شكراً لأنكِ وافقتِ على المجيء لعلاجي...

- سيدتي هذا واجبي...

مدت المريضة يدها ببطء وأمسكت بيد الطبيبة وشدت عليها بأقصى ماتملك من قوة...

- لقد كلمني زوجي عنكِ مراراً وتكراراً...

نعم، نعم...

تلعثمت المرأة قليلاً وهي تنظر زوجها وتداركت...

- حسبما وصفكِ لهُ صديقهُ المقرب الذي عالجته مرة على يديكِ...

- هل يمكنكِ ذكر أسم المريض لي فأنا لا أنسى مرضاي وخصوصاً من جاءوا من مكان بعيد...

- آه، لا أعرف لقد نسيتُ الأسم.. يمكنكِ سؤال زوجي عنهُ فيما بعد لو أمكن.. آه (تنهدت بألم وهي تتململ تحت غطائها الوفير)...

تابعت بعد عناء...

– هلا كشفتِ علي رجاءاً حضرة الطبيبة...

– حسناً، لابد لي من رؤية تحاليلكِ وأشعتكِ ومعرفة تاريخ مرضكِ وكلَّ متعلقاتِ حالتكِ الصحية...

– كلها هنا بين يديكِ حضرة الطبيبة...

هتفَ الزوج فجأة بعد صمتهِ الطويل.. تناولت الطبيبة ملف التقارير والأشعة من بين يديه، ولاحت التفاتةٌ نحوهُ فوجدتهُ ينظر إليها بشكل غريب، وكأنَ في فمِهِ كلاماً يريد البوح به، لكنهُ لايستطيع.. تلكّأت برهة، ثم تلقفت الملف وأبعدتْ عينيها عنهُ.. أدار ظهرهُ لها بسرعة وخرج من الغرفة، فأستغربت الطبيبة تصرفهُ ذاكَ.. نظرتْ الى تلكَ المرأة المسكينة، كان وجهها شاحباً جداً.. جلست على الكرسي المجاور لسريرها وأخذت تقرأ تقاريرها.. كانت المرأة تنظر إليها بين الفينة والأخرى وهي تتأملها مطولاً.. إستغربت الطبيبة من نظراتها فتبسمت متسائلة...

– عفواً ولكنني أراكِ تطيلين النظر إلي...

– عذراً منكِ لكن، لكنَّ الذي على وشك الغرق ينتظر قشة كي يتعلق بها أملاً بالنجاة ولذلكَ بقيتُ أنظر الى منقذتي التي وصفوها لي...

تنهدت الطبيبة بألم.. كانتْ تقرأ حقائق علمية في تقارير المريضة، لكنَّها كأنسانةٍ أولاً وكطبيبة ثانياً لم تجد بداً في مسايرتها كي تحسن مزاجها النفسي...

– أنا رهن طوعكِ سيدتي ولن أتركك حتى تتحسني وسأبذل كل مجهودي في محاولة علاجكِ،كوني على يقين...

مدت الطبيبة يدها وشدَّت بها على يد المريضة البيضاء بقوة مشجعة إياها فانهمرت الدموع من عينيها...

– لقد وصفوكِ لي، وصفوكِ لي من قبل، لكنني لم أعتقد أنكِ طبيبة حقاً حتى رأيتكِ...

– شكراً لمجاملتكِ الرقيقة سيدتي الجميلة أنا أريدكِ أن تكوني قوية وأن تخرجي للحياة

وتتنفسي الهواء الطلق في الخارج وتتركي هذا السرير الذي تنامين فيه ليل نهار...

– أنا لا أصدق هل أنا على مايرام؟؟

– نعم، ستكونين إن شاء الله صدقيني، هيا الآن.. أنا سأكون طبيبتكِ وصديقتكِ، هل توافقين على ذلك؟؟

– حقاً هل تودين ذلك فعلاً؟؟

– طبعاً أود ذلك من كل قلبي وأنا أتمنى أن تقبلي بذلك...

– ياألهي!!

بكتِ المرأة، بحيث بللتْ دموعها وسادتها هابطة من وجنتيها، نظرت الطبيبة بدهشة وألمٍ إليها...

– لم هذه الدموع ياعزيزتي.. سيدتي الكريمة سأكون طبيبتكِ وصديقتكِ وخادمتكِ لو أحببتِ...

– حاشاكِ حضرة الطبيبة الطيبة شكراً لكِ من كل قلبي شكراً...

– حسناً سأتركُكِ لخادمتكِ كي تبدل ثيابكِ وتعدكِ للخروج معي... قالت الطبيبة ذلكَ، وأسرعت بالنهوض خارجة من الغرفة.. هبطت السلم وذهبتْ نحو مكتب الرجل الذي أرسل في طلبها.. نقرت الباب مرتين صاح صوت من الداخل.. (أدخلي)، فتحت الباب فنهض الزوج مذهولاً...

– ماذا إذاً!! هل هي في حالة ميؤوس منها؟؟

– مهلاً، مهلاً سيدي يجب أن لانتكلم هكذا عن مريض عضال، صحيحٌ أنَّ حالتها مستعصية الشفاء وقد وصلتِ المرحلة الرابعة، لكنَّ موتها وحياتها بيد خالقها، لربّما اليوم تموت، أو لربما بعد أعوام، لربما أموت أنا قبلها...

- معاذ الله!! لاسمحَ الرب بذلكَ أفديكِ أنا بحياتي...

قالَ الزوج بسرعة وهو ينظر الى الطبيبة بألم وما أن قال جملتهُ الأخيرة وهو يرى دهشتها تداركَ بسرعة قائلاً:

- حسناً، أقصد أفدي طبيبة زوجتي التي ستعالجها من مرضها بروحي، فقد أرسلتُ بطلبكِ عبر البحر الواسع من قريتكِ الى مدينتي الواسعة لأجل عيني زوجتي...

- فلتقرَّ عينكَ بها وتقرَّ عينها بكَ سيدي، حقاً إنها آمرأةٌ جميلة.. فليحفظكما الله ويسعدكما دوماً.. قالت الطبيبة وقد شعرت بالأرتياح لكلمات الزوج الأخيرة تلكَ...

- إذاً تفضلي بالجلوس لنتكلم عن وضعها الصحي وما سنفعلهُ...

- حسناً ياااا (...)...

نادى بأسم الخادمة التي ظهرت فجأة وهي تشبك أصابع يديها وتومئ برأسها خضوعاً...

- أمركَ سيدي...

- أرجوكِ إجلبي لحضرة الطبيبة شراباً دافئاً في هذا الطقس البارد...

- ماذا تحبين أن تشربي سيدتي؟؟

شعرت الطبيبة بشيء غريب تجاه ذلكَ الزوج ما أن التفتت نحو الخادمة واستمعتْ لكلامهِ وهو يأمرها، شعرت أن صوتهُ ليس غريباً عنها، أنَّ فيه شيئاً مألوفاً جداً لكنها لم تعلم ولم تفهم شيئاً...

أجابت بعد برهة...

- قليل من القهوة المحلاة مع الحليب سيكون رائعاً لو سمحتِ...

- ليكن ذلكَ إذاً...

قالَ الزوج ذلكَ مع حركة سريعة بيدهِ بينما نهض ليجلس قرب الطبيبة على كرسي جلدي منفصل آخر، إرتبكتِ الطبيبة قليلاً وهي تنظر الى عينيه اللتين كانتا تكادان أن تتكلما، أطرقت

بنظراتها الى الملف وأخذت تظهر تقاريرهُ وتشرح حالة الزوجة لهُ وهو يهز رأسهُ موافقاً إياها على كل كلمة تقولها، حتى أنتفض فجأة عندما قالت، ولأن الحالة النفسية للمريض مهمة جداً عندي فلذلك يتوجب عليَّ أن أخرج معها وبرفقتها بعيداً عن سجنها هذا...

-كل عنايتي هذه تدعى سجناً!!

أعذرني سيدي أنا لم أفهم كلامكَ، لكنْ منذُ متى لم تخرج معها وبرفقتها؟؟

تململ الزوج في جلستِهِ وبان الضيق على محياهُ، شعرت الطبيبة بالأرتباك...

- أعتذر سيدي ولكن إما أن تترك لي مهمة علاجها أو أن أعود من حيث أتيت...

- كلا، كلا، أنا أستمحيكِ عذراً، إفعلي ماشئتِ وسيكون لكِ ماأردتهِ.. الى أين تريدين أن نخرج أخبريني؟؟

- هل ذهبتَ معها الى مطعم، سينما، أي مكان عام كنتما تذهبان إليه من قبل؟؟

كلا، لم أفعل.. منذُ تدهور حالتها الصحية وقبل ذلكَ، قالَ الزوج بامتعاضٍ، فنظرت الطبيبة بغضب جزئي إليه وقالت بحزن...

- يجب أن تُخرج زوجتكَ كما قلتُ لكَ فوجهها باهت اللون وبشرتها لم تر الشمس منذُ فترةٍ طويلةٍ، كلُّ ذلكَ ينعكس سلباً على صحتها...

- سيكون لكِ ما أردتِ أيتها الطبيبة...

قالَ ذلكَ ونهض منتفضاً...

- إذاً سنذهب الى مركز المدينة اليوم، هيا يجب عليكِ تغيير ثيابكِ حضرة الطبيبة بينما تستعد زوجتي للخروج...

نهضت الطبيبة بسرعة لما رأتهُ واقفاً وكأنهُ يعلن موعد أنتهاء جلستها معهُ...

حسناً ليكن ذلكَ...

ردَ لي قلبي

(الجزء الثامن)

جلسوا سوية في مطعم فاخر.. تقدمَ النادل بتقديم قائمة الطعام مرحباً بادئ ذي بدء بزوج مريضة الطبيبة التي أرتدت ثوباً ثميناً أشترتهُ منذُ زمن بعيد لما كانت في العشرينات من عمرها كي ترتديه في المناسبات العامة وكم كانت قليلة هي تلكَ المناسبات العامة التي تحضرها لأنها لم تحب أبداً الذهاب الى حفلة زفاف أو مناسبة جماعية...

- مرحباً بكَ سيدي، لقد مرَ زمن طويل.. سمعنا بما جرى لكَ حمداً لله على سلامتكَ وإسترداد ثروتكَ...

شكراً، شكراً...

قالَ الزوج بقلق وإرتباكٍ بشكل سريع وكأنهُ يتدارك شيئاً ما...

- هل يعجبكِ ياعزيزتي هذا الطعام؟؟

تحدث مع زوجتهِ بسرعةٍ مغيراً موضوع الحديث، فنظرت الزوجة بعينيها الملونتين ببراءة الأطفال الى زوجها وتلألأت عيناها بفرح الطفولة...

- أشكركَ عزيزي، أطلب لي ماشئت أنتَ، أنا راضية به...

قالت ذلكَ وإبتسامةٌ واسعة قد ملأت وجهها الذابل الصغير، فجعلتهُ يزدان حُسناً وبهاءاً.. التمعت عينا الزوج المذهول وأطرق بعينيه نحو قائمة الطعام بينما إبتسمتِ الطبيبة إبتسامة الرضا، نظرَ بسرعة نحوها بقلق ثم رفع نظراتِ الطفولية البريئة نحو زوجتِهِ وكأنهما للتو يعرفان بعضهما، قالَ لها بصوت يشوبه الخجل...

– هل تحبين هذا ياعزيزتي مع المقبلات التي كنتُ أطلبها دوماً لكِ؟؟

– نعم، نعم، قالت بسعادة كبيرة...

– ماذا عن حضرة طبيبتنا؟؟

قالَ الزوج بعد برهة وقد امقتع وجههُ فجأة...

– حسناً أنا سأطلب حسائي المفضل...

– حسناً، إذاً أيها النادل...

صاحَ وهو يخرج صوتاً بحركة من أصبعي يدِهِ اليسرى.. رفعت الطبيبة عينيها ذهولاً.. تلعثمت، لمّا وقف النادل ليسجّل طلباتهم فما إن ذكرَ الزوج اسمها حتى ذكرَ إسم الحساء للنادل فظلت الطبيبة تحاول التذكر هل قد ذكرت لهُ إسم الحساء المفضل لديها أم لا؟؟

عندما عاد الجميع بتلكَ السيارة السوداء الفارهة كان كل شخص في عالم خاص به انحنت الزوجة فوق كتف زوجها لما وصلوا الى البيت وقبل أن يخرجوا من السيارة، وكانت طوال الطريق تنظر إليه بسعادة مفرطة.. قبلت كتفهُ بفرح وهمست في أذنيه كلماتٍ لم تستطع الطبيبة التي جلست في المقعد الخلفي أن تسمعها وهي تنظر قارعة الطريق عبر النافذة طيلة درب العودة سماعها كانت تلكَ هي الليلة الأولى لها...

الليلة الأولى التي تبيت فيها في منزلٍ غيرِ منزل أبيها العتيد.. لقد أعدت الخادمة لها غرفة جميلة بجوار غرفة الزوجين في الطابق العلوي، كانت على وشك أن تدلف غرفتها لما سمعت صوت ضحكات الزوجة التي ظهرت من أسفل السلم فجأة متأبطة ذراع زوجها وقد مالت برأسها فوق كتفِهِ.. عندما نظرت الطبيبة الى عيني الزوج وجدتهما تهربان منها.. كان مرتبكاً شعرت أنها تعرف تلكما العينين لكنها أبعدت تلكَ الأفكار عنها.. تلكما العينين الحائرتين المرتبكتين، لطالما أستنجدتا بها، لطالما كلمتاها بصمت، إنها تعرفهما حق المعرفة.. لكنْ من المستحيل أن تكونا هما نفس عينيه.. قالت في سرها وهي تتقلب فوق سريرها الجديد (رباه رحماكَ من هذا العذاب)...

لكنها إسترجعت ذلك الصوت وهي تدير مفتاح الباب في قفلِهِ عندما أدارت ظهرها للزوجين وألقت عليهما تحية ماقبل النوم.. لقد هَتَفَ بذلك الصوت المحبب الذي سمعتهُ دوماً قبل أن تغلق باب العيادة كل ليلة وتذهب الى غرفتها...

- تصبحين على خير حضرة الطبيبة...

لقد صُعِقتْ وكأنَّ تياراً كهربائياً مرَّ منْ أعلى رأسها مروراً بقلبها حتى أخمص قدميها...

- صباح الخير حضرة الطبيبة، لقد أمرتُ الخادمة بإعداد طعام الأفطار لكِ مبكراً فأنا أعلم أنكِ نشيطة جداً...

- ومن قالَ لكَ ذلكَ؟؟

قالت الطبيبة دون أن تنظر الى الزوج الذي ظل واقفاً أمام كرسيها الذي قد حركهُ من أمام مائدة الطعام كي تجلس عندهُ.. تدارك بعد برهة صمت...

- لقد حدثني صديقي القديم الذي عالجته عن عاداتكِ الصباحية.. كان يتعالج على يديكِ...

- حسناً أنا حقاً أريد أن أعرف إسم صديقكَ الذي عالجتهُ وأي مرض كان يشكو منهُ؟؟

قالت الطبيبة ذلك وهي تتقدم لتجلس فوق المقعد وقد كان الزوج لايزال ممسكاً بمسندهِ الخلفي.. تردد في الجواب لدقيقة عندما بدأ فجأة بشرح نوع المرض الذي كانَ مصاباً به ذلكَ الصديق،كانَ إذ ذاكَ قد جلس عند رأس المائدة وأخذ يُسهبُ بتفصيل المرض وكيف كانت تعالجهُ بحيث ظلت الطبيبة مندهشة واجمةً تنظر الى الزوج وهو يتحدث لدقة التفاصيل التي ذكرها ولأجل ذلكَ لم تستطع أن تكتم سؤالها...

- ماهو إسم ذلكَ المريض الذي بقيتُ أعالجهُ طيلة المدة؟؟

- حسناً...

رفعَ الزوج نظراتهِ بإرتباك نحوها وبينما هي تنظر إليه منتظرةً الجواب بكل جدية، إذا بصوت

الزوجة الرقيق يجيب تساؤلات الطبيبة الحائرة...

- أنهُ أخي.. وقد كان مصاباً بذلكَ المرض العضال الذي وصفهُ لكِ زوجي الحبيب.. هل أنضم إليكما يا حبيبي؟؟

نظرَ الزوج بدهشة رافعاً نظراتِهِ نحو زوجتِهِ التي كانت قد أسندت ذراعيها فوق كتفيه من الخلف، وما أن رأت نظراتِهِ الشاكرةَ حتى وضعتْ رأسها قرب رقبتِهِ وإبتسمت ضاحكةً وهي تقول...

- أنا أشعر بنشاط متجدد اليوم وكل الشكر في ذلك من بعد السماء لهذه الطبيبة الرائعة، أنا مدينة لكِ بالكثير...

- كم أنا سعيدة لتحسن حالتكَ النفسية تفضلي بالجلوس سيدتي...

قالت الطبيبة وهي تبتسم برضا...

- إذاً فقد أصبحت مبكرة النشاط عزيزتي.. قالَ الزوج هاتفاً بنوع من الأنزعاج فتبسمت الزوجة وهي تغير الموضوع قائلة...

- إذاً الى أين ستأخذنا اليوم يا حبيبي الغالي؟؟

ردَ لي قلبي

(الجزء التاسع)

طالَ مكوث الطبيبة عند ذنيك الزوجين قرابة ستة أشهرٍ، إستعادت الزوجة فيها صحتها وكأنَّ المرض غادرها دونما عودة وأصبحت الطبيبة مقربةً لها جداً بل أصبحت تحكي لها أسرارها بإستمرار والطبيبة تستمع بتعاطفٍ تام كل مرة إلا أنها لم تبُحْ لتلكَ الزوجة يوماً بمكنون قلبها رغم إلحاحها الدائم، وتلميحها المستمرَّ لها أنَّ في عدم زواجها حتى تلكَ السن سراً دفيناً، ولمّا أنصرمت تلكَ الأشهر، إستدعى الزوج الطبيبة يوماً في مكتبِهِ ليتحدثَ عن حالة زوجتهِ ويستعلم الطبيبة عنها، فأعلنت لهُ أمراً...

- حسناً، أنا لن أخفيكَ سراً.. زوجتك ليست بخير مطلقاً، إنها تحتضر...

رفعَ الزوج نظراتهِ بإرتباك نحوها وقال بصوت يشوبه الأسى:

- أو ليس هنالكَ أمل.. ظننتها أصبحت بخير حتى أن وجهها زاد بهاءاً ونشاطها زاد كثيراً، ألم تقولي أن الحالة النفسية للمريض مهمة جداً؟؟

- نعم قلتُ...

- إذاً ماذا حدثَ وماالذي أستجدَ؟؟

لم يحدث ولم يستجد شيء لكنَّ وجودي ليس لهُ معنى بعد اليوم ولا مكوثي معكما فأنتما الآن قد عرفتما طريق سعادتكما، أتمنى أن تضَعَ نصبَ عينيكَ كونها لن تعيش طويلاً ولذا يجب أن تعيش بسعادةٍ كما الآن في كنف عطفكَ وحنوكَ عليها ورعايتكَ الدائمة لها سيدي فأنتَ زوج رائع جداً ومتفان هنيئاً لكما ببعض...

قالت ذلكَ والتفتتْ بسرعة كي لا يرى تلكَ الدموع في مقلتيها ومسحتها بسرعة بأناملها كي لاتترك أثراً لها، كانت خلال تلكَ الفترة التي قضتها مع الزوجين قد تعلقت بكليهما، فالزوجة رقيقةٌ جداً طيبة للغاية في تعاملها معها، أما بالنسبة للزوج فقد كانت تنظر بالبداية بغبطة لزوجتِهِ وهو يرعاها ويطعمها أحياناً بيدِهِ ويحملها لمَّا تشعر بالتعب المفاجئ، ويخرج معها دوماً برفقتها بناءاً على تعليماتها هي كطبيبة.. في قرارة نفسها، وجدتا أن الأوراق قد أختلطتْ في قلبها، فهي كانت تنظر الى الزوج كمجرد مصدر للرزق يُغدق عليها النقود لقاء رعايتها المستمرة لزوجتهُ صباح مساء ومراقبتها الدائمة لها وقت غيابهِ الطويل في العمل في مدرستهِ الخاصة ببناء الأجسام واللياقة البدنية والتدريب على فنون القتال، لكنَّها وجدت نفسها فجأةً تتساءل عن سر نظراتِه لها ووجدتْ أنهَّا تسعَدُ عندما تراهُ وكأنها ترى ذلكَ الشاب الذي عرفتهُ قبل سنوات ولم تعرف عنهُ شيئاً في آن.. صوتهُ نفس الصوت، بنيتهُ الجسدية نفس تلكَ البنية، ولكنْ أوَ منَ المعقول أن يكون نفس الشخص ولايقول لها ذلكَ.. كانت تفكر كثيراً في تلكَ الأحتمالية الواهية فتعودُ تلعنُ نفسها وأفكارها الحمقاء لأنَّ قلبها أخذَ يدمج بين الشخصين، علمت أنها تحاول التعويض عن حبها الضائع بشخص ذلكَ الزوج.. واجهتْ نفسها بشجاعة ذات ليلة وهي تسأل زوجتهُ ذاتَ يوم كيف تعرفت به.. أجابتها الزوجة والسعادة قد إرتسمتْ على قسمات وجهها مستذكرةً تلكَ الأحداث.. لقد كانت زيجة والدتي زيجة الحظ بالنسبة لي فوالدتي الثرية أصبحت أرملة فجأة بعدَ أن كانت تعيش مع والدي قرابة عشرين عاماً.. مرَّت سنوات قبل أن تتعرف على شاب يبحث عن عمل كحارس شخصي، ولقد أعلنت والدتي مسبقاً في الصحف عن حاجتها الى ذلكَ ولم تذكر إسمها مطلقاً فأعداء أمي من قراباتها كثر، علاوة على أقارب زوجها الذين كانوا فقراء ويتمنون أن يمسها سوء كي يتزوجوا بي بحجة حمايتي ورعايتي ويرثوا أمي ويزوجوا أخي الأوحد من إحدى بناتهم ويرثوا ماكَتَبتْ أمي لهُ من أموال وعقارات وخصوصاً قبل وفاتها رحمها الله.. ذرفت الدموع ما إن استذكرت...

– دعي عنكِ هذه الذكريات الحزينة...

– لاتهتمي أكملي فيما بعد أن كنتِ لاتستطعين...

– كلا يجب أن أقصُ عليكِ أنا سعيدة لوجودكِ قربي فلولاكِ لما كان هنالكَ أحد أتسلى معهُ.. وأحكي لهُ أو أقصُ عليه مشاعري فزوجي مشغول دوماً رغم أنهُ أحنُّ وأطيب زوج في الوجود وبوجودكِ عاد يعاملني مثلما كنَّا من قبلُ فتأثيركِ عليه كبير.. (قالت ذلكَ وأبتسمت أبتسامة خاصةً وهي تنظر الى الطبيبة من طرف خفي).. إرتبكت الطبيبة، وحارت جواباً، لكنَّ الزوجة إسترسلت قائلة:

– إلا أن ماكان ينقصني وجود صديقة مخلصة مثلكِ تقف الى جواري وتساندني فأنتِ من قلتِ لهُ أنَّ وضعي الصحي يستوجب أن أخرج وأرى الدنيا وأنتِ من تصغين إلي دوماً وتكلمينني كأوفى صديقة وأعز أخت فما أسعدني بكون تلكَ الصديقة والأخت أيضاً طبيبتي التي تخشى عليَّ من كل أذى!!

– سيدتي الغالية، أنا أعتز بصداقتكِ حقاً ويشرفني هذا...

– إذاً لا تناديني بسيدتي...

– ناديني بأسمي هه مارأيكِ؟؟

– حسناً، لو قبلتِ أن تناديني باسمي...

نظرتا الى بعضهما البعض بسعادة وإبتسمتا...

– لقد قدرَ لوالد زوج هذا أن يتزوج والدتي.. أحبا بعضهما رغم معارضة أهل والدتي لكنهما تزوجا.. كان قويَّ البنية متمرساً في فنون القتال مثلما ترين زوجي الآن.. أحبَّت والدتي إخلاصهُ ووفاءهُ.. أحبَّت أخلاقهُ وطيبتهُ.. تعلقتْ به للغاية وكانَ ذلكَ نفس ماجرى لي ما أن وقعت عيناي على (...) الحبيب!!...

تزوجنا وعشنا بسعادة غامرة لكنْ لمْ نحظِ بأطفال مطلقاً، ذهبنا سوية الى الأطباء فعلمنا أنني مريضة عضال وكان لابد من إستئصال رحمي كي لاينتشر المرض.. تألمتُ كثيراً، أصبحت أخلاقي نزقة لاتطاق وتحملني هو بكل رحابة صدر.. كان يقول لوالدتي أنها قد عوَّضتهُ عن حنان الأم التي لم يرها لأنَّ والدتهُ توفيت عند ولادتِهِ، إنهُ عطوف جداً بسبب حرمانِهِ.. لقد

حُرمَ من أجمل عاطفةٍ في الكون وهي الأم وأنا حرمتهُ من أجمل شعور في الوجود، وهو الأبوة.. ألا ترين كم هو مسكين!!

قالت ذلكَ وأنهمرت الدموع من عينيها، أتمنى لهُ من كل قلبي أن يعيش سعيداً، أتمنّى أن تعوضهُ السماء عن صبرهِ معي كلَّ خيرٍ، أتمنى، ياعزيزتي...

- فعلاً أنا على يقين أنكما سترزقان يوماً بطفل ما حتى لو بالتبني أو شيء من ذلكَ القبيل...

قالت الطبيبة مشجعة كي تعيد الأمل الى قلب تلكَ الزوجة المسكينة.. نظرت الزوجة الى الطبيبة والدموع تتلألأ في عينيها...

- أنتِ تعلمين أن هذا لن يكون...

ركزت نظراتها الملونة على بشرة الطبيبة السمراء وهي تتفرس ملامحها وإلتمعت عيناها ببريق غامض أرعبَ الطبيبة...

- وأنتِ ألن تفضي لي بمكنون قلبكِ ولأجل من تركتِ الزواج وفضلتِ حياة العزوبية وتزوجتِ مهنتكِ؟؟

- أنا، حسناً أنا علي الذهاب الآن ياعزيزتي أستمحيكِ عذراً...

شعرت الطبيبة بالحماقة لجوابها المرتبك ذاكَ لكنها لم تستطع تحت تأثير نظرات الزوجة الغريبة الشكل وهي تتمعن في وجهها أن تجيب بشكل أفضل، كانت تستذكر اللحظات وهي في رحلة العودة في قريتها، تنظر قارعة الطريق وقلبها يخفق بألم، وجدتْ نفسها تبكي بدون شعور خصوصاً وهي تستذكر كلمات الزوج عندما كانت على وشك مغادرة المنزل...

- أنا أتمنى أن تغيري رأيكِ فقد أعتدنا وجودكِ عندنا وأصبحتِ فرداً في أسرتي.. وأنا وزوجتي نعتزُ جداً بكِ، أنت أثيرة جداً عندنا، رفعت عينيها بشكل لا أرادي نحوهُ فوجدتهُ ينظر إليها نظرات المحب المتيم.. تحيرتْ في أمرها وقفز قلبها ذعراً، لكنها علمت يقيناً بنظراتهِ تلكَ أنَّ عليها الرحيل الى الأبد...

ردَ لي قلبي

(الجزء العاشر)

عادت الى منزلها خالية الوفاض وبدل أن تنسى حبها أو تتناساهُ وجدت نفسها قد تعلقت بمن خافت من التعلق بأمثالهِ وبما رفضت ذلكَ الشاب قبل سنوات بسببِهِ، وأختلطت الأوراق في عقلها وقلبها ولم تعد تدري مالعمل؟؟

أخذت تفكر ليل نهار ولم يكن كافياً عدد مرضاها القلائل في عيادة والدها لشغلها عن التفكير ورثاء نفسها والبكاء عليها وذاتَ يوم قررت أن تنخرط في طاقم العمل الطبي في مستشفى القرية الذي فتح قبل مدة وأصبح قبلةً لأهلها وبالأخص أولئكَ المعوزين أو الذين لايملكون نقوداً أو مأوى وبالفعل أصبحت من ضمن طاقم المشفى ولم تعد تترك لنفسها مجالاً للتفكير حتى تضع رأسها فوق وسادتها فتغطَّ في نوم عميق من شدة التعب...

ظلت الطبيبة على ذاكَ الحال مدة سنة كاملة، حتى جاءَ ذلكَ المساء الذي تلقت فيه رسالةً من نفس ذلكَ الزوج الذي هربتْ منهُ ينعى فيها زوجتهُ ويدعوها لحضور مراسيم العزاء لأنَّ زوجتهُ أكدتْ على ذلك في وصيَّتها.. شعرت بأنَّ واجبها تجاه تلكَ المرأة وكونها طبيبتها الخاصة وثم تطور علاقتهما الى صداقة وإخاء كل تلكَ الأسباب حتمَّت عليها الذهاب وعدم أهمال الدعوة، رغم أنها لم تحبب حضور مراسيم عزاء ولا حفلات زفاف يوماً ما أبداً...

كانت تلكَ الأسباب كلها خارجية حسبما فكرتْ مع ذاتها وهي تعنف نفسها وتجلدها عدة مرات في قرارتها، لأن نشوةً من السعادة انتابتْ صدرها، ظلت تفكر وهي تسافر فوق الباخرة ذاتها التي جاءت عبرها الى قريتها عائدة من منزل الزوجين وعيناها تبصران دون وعي منها تتابع الأمواج المتلاطمة على مد البصر...

«حسناً، إذاً فأنتِ الآن في إختبار كبير وهذا هو السبب الحقيقي الذي دفعني للذهاب إن كان قلبكِ صادقاً ومخلصاً فلسوف يرفض أن يحب سوى ذاكَ الذي أحبهُ أول مرة وإلا فأنتِ ستكونين مجرد كاذبة مدعية تسعى خلف مصلحتها فحسب ولسوف نرى» عندما كانت تحدث نفسها بذلك الكلام كانت تشعر بقلبها يعُتصر بألم.. تتذكر ذاكَ الشاب المسكين فتتنهدُ بحسرةٍ وتناديه في سرها، « أين أنتَ الآن ياترى «؟؟

وعندما تتذكر ذلكَ الزوج، يخفق قلبها أيضاً فتتألم لأنها خلال عام كامل لم تستطع حسم الأمر أو الوصول الى قرار حاسم، أيهّما أحبَّتْ.. هل ذلكَ الشخص المجهول، أم الزوج الحاني الطيب المخذول؟؟

كانَ هناكَ جالساً عند مكتبهِ كما رأتهُ للمرة الأولى.. تعلقت نظراتهُ بها لمَّا نهض يحييها بحرارة ووجهه يعكس مشاعر الألم والخسران...

– حقاً أنا آسفة لخسارتكَ...

– شكراً لكِ حضرة الطبيبة تفضلي بالجلوس...

– حسناً أنا جئتُ بناءاً على طلب رسالتكَ وقد ذكرت فيها أن الراحلة قد إشترطت في وصيتها حضوري للعزاء...

– نعم، وإنَّ ذلكَ موجودٌ وموثق عند محامي الوصية الذي سترينهُ بعد انصراف المدعوين...

– ماذا ولم علي رؤية محامي الوصية الخاص بزوجتكَ، سيدي لقد اسأتَ فهمي أنا لن أبقى أكثر من حضور العزاء ليوم واحد فحسب، عليَّ العودة مباشرة الى عملي في المشفى وثم أنيَّ لم أطلب إجازة رسمية منهم...

– لكن ماذا جرى بحق السماء؟؟

لم أنتِ متعجلة هكذا؟؟

– سيدي سأذهب للعزاء الآن عن إذنكَ...

– أرجوكِ أنتظري!! وأنا الذي كنتُ أنتظر مجيئكِ لتواسيني أو لستِ صديقة لنا أنا وزوجتي الراحلة؟؟

– سيدي!!

وأسقط مافي يدها نظرت إليه فوجدتهُ ينظر بنفس نظرات ذلكَ الشاب يوم توسل لها كي تبقيه في عيادتها.. شعرتْ بقشعريرةٍ تسري في أنحاء جسدها لم تعد تعرف ماالصواب؟؟

تقدم الزوج نحوها وهو يركز نظراتهُ بشكل غريب عليها...

– حضرة الطبيبة لقد أنتظرت سنواتٍ وسنواتٍ كأنها الدهر كلهُ.. أرجوكِ، أريد أن تبيتي هنا الليلة عندي لأكلمكِ عن أمر مهم جداً، مكانكِ بعيدٌ جداً وليس من الصواب أن تحّملي جسدكِ عناءاً مضاعفاً بالسفر مرتين في يوم واحد...

– لكن إجازتي!!

أنتظري لحظة تقصدين أنكِ تعملين في تلكَ المشفى التي فُتِحَتْ قبل سنوات في قريتكِ؟؟

– نعم سيدي!!

– أها أذاً، إجلسي، إجلسي لحظات فقط، لاتبالي أنا سأتصل بمدير المشفى...

– أو تعرفهُ؟؟

نظرَ إليها نظرة خاصة وإبتسم بنفس تلكَ الأبتسامة التي أحبتها دوماً وهي ترتسم فوق شفتي الشاب المشَّوه الذي لم يك ظاهراً من وجههِ سوى عينيه وتلكما الشفتين، فحارتْ في مشاعرها.. فكرتْ لثوانٍ لماذا يتشابهان.. كانت تفكر عندما سمعت صوتهُ وهو يكلم عبر الهاتف مدير مشفاها...

نعم، نعم، إنها لن تستطيع القدوم لعدة أيام نعم هل هذا مفهوم حسناً إذاً وداعاً، نظرت الطبيبة إليه بدهشة، فبادلها بنظرات ساخرة وقال وهو يشير لها بحركة آمرة من يدهِ أن تجلس على الكرسي ذي الغطاء الجلدي...

– أنا الذي فتحت هذه المشفى أنا الممول الرئيسي والوحيد أو لم أخبركِ من قبل قال ذلكَ وهو يبتسم بمكر، شهقت الطبيبة وحارت جواباً...

– هل تعلمين.. لقد أشتقتُ إليكِ كثيراً.. لمْ أظنَّ أني سأتحدث هكذا بسرعة، لكنَّ رؤياكِ جعلتني لا أحتمل الصبر أكثر.. هلا قبلتِ بي زوجاً؟؟

أنا أحبكِ وأنتِ تعلمين ذلكَ ولعلمكِ فزوجتي أيضاً كانت على علم...

قال الزوج ذلكَ وهو يركز نظراتهِ على عيني الطبيبة بحيث لم تستطع إبعاد نظراتها عنهُ...

– أعلم ذلكَ وأشعر به شهقت الطبيبة بألم، أبعدت نظراتها عنهُ فشعرت أنها قد تحررت من سجنهِ ولو للحظات أصبحت الساحة خالية كي يتكلم عقلها وقلبها في آن معاً.. تركت لهما العنان، تكلمت دون أن تنظر إليه لأَّن النظر إليه كان يربكها جداً...

– كيف لكَ أن تعلم بحبي لكَ وأنا نفسي لا أعلم، ومن قال لكَ أني موافقة عليكَ...

كلا، أنا لا أستطيع مستحيل أن أخون ذكراهُ، نعم، نعم...

الآن وضحت لي الرؤيا كنتُ أحبُ فيكَ مارأيتهُ فيه، أنتَ مجرَّدُ أنعكاسٍ خارجي لهُ، لكنَّكَ لن تصل طيبتهُ، لن تصل روحهُ العالية وهو ينتشل المرضى وأولئكَ الذين دفنوا تحت الثلوج.. أنتَ لن تصل مع كبريائكَ وعلو مقامكَ ربع تواضعهِ وروحهِ العالية وهو يغسل أقدامهم وأجسادهم حتى أنهُ ماكانَ يتورع عن تنظيفهم وتغيير ثيابهم وأوساخهم.. كان ولايزال لأنهُ حيٌّ في خيالي.. أروع أنسان لم أجد لهُ مثيلاً.. متواضعاً، طيب القلب، يرميه أطفال القرية بالخضراوات وهم ينادونهُ بالمسخ، فيحمل الخضراوات ويجمعها ليذهب بها الى أمهاتهم وهو يعتذر قائلاً إنهُ قوت يومهم ومن التبذير أن يرمى ذلكَ عليه...

كانت تتحدث والدموع تسيل من فوق وجنتيها...

–لربما خدعت نفسي بظني أني أحببتكَ وأنا أعتذرُ أن أوحيتُ لكَ ذلكَ بنظرة مني أو لغة جسد غير مقصودة لأنني كنتُ طيلة تلكَ الفترة وكل السنوات التي مرت وحتى نهاية عمري صدقني...

وإنخرطت في بكاء هستيري.. رفعت رأسها بعد دقائق...

- ماأحببتُ ولم أحب ولن أحب سواهُ أعتذرُ منكَ سيدي، سأظلُ أبحثُ عنهُ، حتى مع يأسي أني سوف أجدهُ، حتى لو كانَ روحاً في عالمِ آخر الآن، سأظلّ في خيالي أكلمهُ وأناجيه، لا أريدُ شيئاً وأشكركَ جداً لدعوتكَ، فقد حسمتُ أمري وذهبتْ حيرتي.. علمتُ الآن وأنا أراكَ الآن بدون زوجة وأنتَ تعرض عليَّ الزواج.. تعرض عليَّ كل ماتحلم به عانسٌ مثلي...

قالت ذلكَ وضحكتْ بصوت خفيض سخريةً وأتمت قائلةً...

- علمتُ أني لايهمني كلُّ ذلكَ وأني كنتُ طيلة تلكَ الفترة أبحث عنهُ فيكَ أبحثُ عن صفاتهُ فيكَ، أبحثُ عن شبهِهِ عندكَ، لكن هيهات.. لن يوجد شخص مثلهُ ولا أريدُ سواهُ وسأظلُ مخلصةً لهُ حتى ألتقي به هناكَ لما أموت في عالمِ آخر...

رفعت رأسها بعد برهة وهي تكفكف دموعها فوجدت ذلكَ الزوج (الأرمل) واقفاً بوجوم لايلوي علي شيء...

- أعتذرُ منكَ إني عائدة الآن لم لاتقول شيئاً؟؟

نظرَ إليها بحزن وقالَ بألم...

- وهل تركتِ لي كلاماً بعدَ كلامكِ هذا؟؟

أذهبي أنتِ حرة الأرادة في تقرير مصيركِ، شكراً لمجيئكِ على أية حال.. سأحضر العزاء لأجل زوجتكَ مريضتي وصديقتي وأرحلُ بعد ذاكَ لو كانَ ذلكَ ممكناً ولو كنتَ تسمح لي...

رفع نظراتهُ المتيمة نحوها وتأوهّ بألم...

- أنا ومنزلي تحت أمركِ حضرة الطبيبة، تفضلي...

وبالفعل رحلت حتى دون كلمة وداع لذلكَ الرجل الأرمل بل أنها تحاشت نظراته وتجنبت خوض أيَّ حديثٍ معهُ بعدَ ذلكَ الحديث، عادت الى وحدتها ودموعها لكنها هذه المرة عادت سعيدةً بهما ومعهما لأنها علمت جوهر شعورها ولم تعد في حيرة من أمرها، وكذلكَ تركت

العمل في المشفى لتعود كل مساء تجلس تحتَ ذلكَ المنحدر الصخري (حيث وصف أهالي القرية سقوط الشاب منهُ تلكَ الليلة)، جالبة معها ورداً تنثرهُ فوق موج البحر وهي تكلم طيف الشاب وتناجي روحهُ *** مرت عدة أشهر وهي على ذلكَ الحال حتى كانت إحدى الأمسيات.. كانت قد عادت للتو من رثاء طيف حبيبها وقد جلست تحتسي قدحاً من القهوة لما سمعت صوت طرقٍ شديد على باب عيادة أبيها، أسرعت تاركة قدح القهوة على الطاولة لأنها علمت بخبرة الطبيبة أنها حالة طارئة وتستدعي الأهتمام الفوري، فتحت باب العيادة فإذا برجلين مفتولي العضلات يحملان بينهما رجلاً ورأسهُ مطأطأ فوق صدرِهِ، أسرعا بإدخالهِ العيادة وهما يرددان...

حضرة الطبيبة، لقد وجدنا هذا ملقى على الساحل لا بدَّ وأنهُ قد قطع شوطاً كبيراً في السباحة عبر البحر لأنهُ مبلل بالكامل، عملنا تنفساً أصطناعياً لهُ لأنَّ الأمواج قد سحبتهُ حتى أغرقت رئتيه بالماء هلا شاهدتِ ماخطبهُ؟؟

حسناً، نعم بالتأكيد قالت ذلكَ بسرعة وما أن تقدمت نحو الرجل الذي وضعهُ المسعفان فوق سرير العيادة حتى أطلقت صرخة مكتومة...

- من أنتَ؟؟

هل أنتَ (...) نفسهُ؟؟

قولا لي من هو هذا الرجل؟؟

إلتفتت فلم تجد أحداً، فقد غادرَ الرجلان بسرعة ووجدت نفسها مع ذلك الرجل بنفس لفافة وجههُ وهو ينظر إليها بنفس تلكما العينين...

- نعم، أنهُ أنا (...) الخاص بكِ...

- رحماكَ يارب، قالت ذلكَ والدموع تنهمر من عينيها...

لكن، لكن ألم تعالج وجهكَ؟؟

لمَ، لمْ تأتِ طيلة تلكَ الأعوام؟؟

لكنْ...

وأختنقت بدموعها فشهقت وهي تسقط على الأرض جاثية عند قدمي الشاب الذي جلسَ على الأرض قبالتها وأمسك يديها، أو لن تفكي لفافتي لتعالجي وجهي وتري الى أي مدى بقيت آثار الحرق؟؟

قالَ ذلكَ وهو يرفع يديها ليعضهما فوق لفافة وجهِهِ فأخذتْ تتلمَّس بأناملها ذلكَ الوجه غير مصدقة وهي تبكي بجنون...

– لماذا تركتني طيلة تلكَ الأعوام، ظننتكَ متَ فعلاً، كلَّ أهالي القرية أجمعوا على سقوطكَ من قمة المنحدر...

– نعم، لقد سقطتُ فعلاً في نفس تلكَ الليلة، أتذكرين عندما طلبتُ يدكِ ورفضتيني.. عندما أخذتيني الى طبيب عتيقٍ من أصدقاء والدكِ المتوفي فوجدنا ابن عمكِ ينتظرنا هنا، هل إستذكرتِ الحادثة عزيزتي؟؟

– آه، لا أصدق نفسي لا أصدق...

قالت ذلكَ وهي تمرر أناملها فوق اللفافة لتتعرف على قسمات وجه الشاب ذاتها لأنها كانت تحفظ تضاريس وجهِهِ كلها فهنا جبين عال وهنا تهبط وجنتهُ وجههِ المربّعِ الشكل وذقنهُ الكبير مدور أسفل شفتيه...

– نعم، أذكر...

تمتمت وكأنها تحدث طيفاً أو روحاً ما لابشراً سوياً...

– لقد قامَ أبن عمكِ بتأليب أهل القرية ضدي وما كانَ أحدٌ ليجرؤ من قبل على ملاحقتي وإتهامي بجريمة شرف لم أرتكبها...

– سامحني ياأيها الغالي كل ذلكَ بسببي...

– بل أنا من أطلبُ منكِ المغفرة، فأنا لم أستطع القدومَ إليكِ بناءاً على رغبتكِ، لأنكِ

رفضتيني خوفاً من وجود زوجة لي ولم تكوني تريدين بناء سعادتكِ على حساب شخص آخر أو ليست تلكَ كلماتكِ؟؟

– نعم، نعم...

قالت الطبيبة بوجوم وهي لاتزال ممسكة بوجه الشاب عندما أعلن فجأة...

– لقد ماتت زوجتي قبل أشهر فقط وبهذا جئتُ إليكِ حراً كما جئتكِ أول مرة ورفضتيني أرجو أن لاترفضيني مرة ثالثة لأني قد عرضتُ عليكِ الزواج قبل هذا من قريب...

– رحماكَ يارب...

شهقت الطبيبة بألم.. أبعدت يديها لثوان ثم عقدت العزم، بدأت تفك الرباط رويداً رويداً.. كان الجبين أبيض ناصعاً لايشوبه أي تشوه حتى وصلتْ لتلك العينين.. بقيا ينظران بعضهما لثوانٍ ثم أنفهُ ووجنتيه.. فجأة صرخت وارتدت الى الوراء متراجعةً فوق الأرض بخطوات عكسية...

– رحماكَ!!

– حسناً، نعم أنهُ أنا...

سالت الدموع منهما.. حارت الكلمات، وماتت عند شفتيهما.. بقيا ينظران بعضهما ويبكيان.. إقتربَ منها وكانت لاتزال جالسة على الأرض...

– أنا أنسان والإنسان خّطاء.. ماعرفتِهِ مني كان شخصاً بريئاً نقياً لم تلوثهُ الحياة، لأني كنتُ فاقداً لذاكرتي فعدتُ الى فطرتي، لكنني ملوث وآثم ولا أستحقكِ غاليتي.. لقد أستذكرتُ بسقوطي تلكَ الليلة كل شيء، وعلمتُ أني قد شُوِّه وجهي بسبب مافعلتهُ لأخ زوجتي وإبن زوجةِ أبي كي أحظى بثروتهِ فالنفس أمارة بالسوء الإ ما رحم الرب...

رفعَ يديها وقبلهّما والدموع تنهمر من عينيه...

– لكنني لما عدتُ ياحبيبتي كنتُ قد قررتُ أن أكفر عن خطيئتي فلم ألمس نقود أخ زوجتي مطلقاً.. حولتُ أكثر ثروتهِ الى مؤسسة للأيتام وبنيتُ بما تبقى منها هذه المشفى وسميتها باسمهِ

أما زوجتي التي كانت تنتظرني على أحرَّ من الجمر فعندما عدتُ، وجدتُ ذلكَ الصديق الخائن الذي شوه وجهي يحاول إقناعها بالزواج منهُ ورغم قلقها علي وانتظارها لي فقد كادَ ذلكَ الثعلب أن ينفذ خطتهُ إلا أن مشيئة السماء جعلتني أنجو على يديكِ كي أنقذها من براثنِهِ فقمتُ برميه بالسجن ولقد شرحتُ لزوجتي كل شيء وتعرفَّتْ علي رغم تشوه وجهي لأني زوجها، ولكنني كنتُ جباناً فلم أخبرها بكوني الرأس المدبر في مقتل أخيها المسكين ويالحقارتي فقد عالجتُ وجهي بنقودها دونما مقابل تحت يدي أمهر الجراحين حتى عادت لي وسامتي، وكانَ لزاماً علي وبحكم مافعلت بها أن أرعاها طيلة مرضها الذي كانت مصابة به قبل الحادثة المشؤومة، فلم أجد بداً في عرضها على كل إختصاصي وكل طبيب يمكن أن نجد علاجها على يديه وسافرت بها البلدان لكن لم يجدي ذلكَ نفعاً حتى أتصلتُ بكِ وجئتِ إلينا، كنتُ قد اعترفُت لها بحبي للكِ قبل مجيئكِ بفترة طويلة لأنني لم أستطع أن أحبها مثلما كنتُ فعَلِمتْ بحدس الأنثى أن هنالكَ أنثى أخرى قد شغلت قلبي وعقلي.. كرِهَتكِ كثيراً وكانت تشتمنا كلانا كلما تمنَّعتُ عنها أو رأت مني فتوراً أو عدم أهتمام بها كالسابق، ولم يكن الأمر بيدي رغم أني حاولتُ وحاولتُ لأنني كنتُ أردِّد إسمكِ حتى في منامي، وهي من أخبرتني بذلكَ لكنها لَمَّا رأتكِ أحبتكِ بصدق، كما أنكِ جعلتيني أعاملها بحب وجعلتيني لأجلكِ أرعاها بكل حنان وأهتمام لكنْ، لكن أنتِ لم تحضري وصيتها، لقد تبرعت بكل أملاكها لعيادتكِ هذه، رغم أنها لم ترها.. لم أعد أملك سوى منزل والدي الذي جئتِ ضيفة عندنا فيه.. أنا شخص عادي الآن، مجرد مدرب لياقة بدنية وفنون قتال بلا كبرياء ولا ثروة...

أعرضُ عليكِ الزواج مني فهلا قبلتِ الزواج من المشوه المجنون (...) خاصتكِ؟؟

كانت يداها لاتزالان بين يديه لكنهما كانتا ترتعشان بقوة وعنفوان ودموعها لاتزال تنهمر من عينيها عندما أعلنَ سؤالهُ الأخير فهتفت وهي تكفكف دموعها وتضحك...

- نعم، أقبل بكَ يامسخي الوسيم...

- وعاشَ الحبيبان في منزل والد الطبيبة كأسعد زوجين بينما كبرت عيادة الطبيبة وكبر أسمها حتى أصبحت ممن يشار لهم بالبنان كأكفئ وأمهر طبيبة وكأروع طبيبة وأنسانة في آن معاً...

تحت قطرات المطر

كانت السماء ملبدة بالغيوم وكلما كانت تلكَ الفتاة ذات الخمس وثلاثين عاماً تخرج الى حديقة منزلها أو الى دوامها كأستاذة جامعية للأدب الأنجليزي في أحدى جامعات المدن الوسطى في تلكَ البلاد العربية المسماة ب (عراق) أقول كلما خرجت الفتاة في ذلكَ الجو كان قلبها ينقبض بشكل كبير فتلكَ الأجواء الملبدة بالغيم ولون السماء الرمادي المكفهر كانت جميعاً عوامل جديدة تضيف لتأملاتها المتشائمة وصراعها الداخلي ومونولوجها الداخلي لوناً جديداً، فلقد أصبحت بشكل رسمي في ضمن مجتمعها (عانساً) مع سبق الأصرار والترصد وباءت كل محاولات أهلها بالفشل لتزويجها من أحد الأقارب أو المعارف والأصدقاء فجميعهم لم يكونوا مثلما رسمت في مخيلتها صورة لذلك (البطل) الذي سيخطف قلبها يوماً، شاهدت صديقاتها يتزوَّجْنَ الواحدة تلو الأخرى وكانت والدتها تحثها على الزواج دوماً وتقول لها ستكون عانساً ولن يرغب أحد في الزواج منها بعد ذلكَ، ولكنها لم تكن تهتم بكلام الناس أبداً فشخصيتها القوية ومكانتها الأجتماعية كأستاذة جامعية وكونها الأبنة الصغيرة في عائلتها والمدللة جعلها غير محتاجة لذلكَ الظل الذي تبحث عنهُ الفتيات الأخريات (ظل رجل ولا ظل حائط) ويجب عليكِ أن تتزوجي قبل فوات الآوان وأن تركبي القطار قبل رحيلهِ كل تلكَ الكلمات لم تؤثر بها كثيراً إلا حينما زارت صديقتها المقربة لتبارك لها مولودتها الأولى ورأت في عينيها تلكَ النظرات الحنونة الناعمة وهي ترضع طفلتها فشعرت بفراغ كبير في جوفها جعلها تفكر وتفكر وتعيد التفكير كثيراً في كل حياتها السابقة والقادمة وتلوم نفسها كثيراً، «كانَ لابد لي من القبول بذلكَ الخاطب رغم أنهُ لم يكمل دراستهُ الجامعية ولم يحصل على شهادتِه العليا حاولت أمي إقناعي وكذلكَ أخواتي لكن كيف لي أن أتزوج بشخص أقل مستوى ثقافي مني لن يفهمني ولن أفهمهُ حتى وأن كانت حالتهُ ميسورة.. هل النقود كل شي...

ياألهي، أم أنهُ كانَ لزاماً علي أن أوافق على ذلكَ الرجل المتزوج الذي خطبني بحجة أن زوجتهُ لاتقوم برعاية منزلِهِ بشكل جيد وأمهُ مريضة وأنهُ بحاجةٍ لمن يرعاها ((رحماكَ ياربي!!)) وتنهدت بألم وهي تجلس فوق مقعدها في الإستراحة القصيرة بين محاضرتين قبل أن يدلف القاعة فوج من طلاب مرحلة أخرى لتبدأ محاضرة جديدة، شعرتْ بالضيق وبألم في صدرها قررت أن تذهب الى مقهى الأساتذة لارتشاف كوب من القهوة علها تنسى ضيقها، بعد آنتهائها من محاضرتها الأخيرة، وحقاً أصدقها حدسها، فلحظة جلوسها في المقهى حيث أعتادت أن تجلس وحدها وحيث أعتادَ الأساتذة وحدتها واحترموا عدم اختلاطها بالجنس الأخر وحجابها والتزامها الديني ذاكَ الذي كانت تلوم نفسها حيناً أنها بسببِهِ فقدتْ كثيراً من الفرص التي لربما أُتيحت لغيرها في التعرف على شاب أحلامها أو زوجها المستقبلي ولطالما شعرت أن حجابها مجرد قيد منذُ أن دلفت الى تلكَ الكلية وشاهدت كيف تكلم الأخريات زملاءهن دون تورّعٍ عن الضحك وإلقاء النكات، لكنَّها لم تستطع أبداً أن تكسر ذلكَ الحاجز لأنها تعلمت منذُ الصغر أن ذلكَ حرام وخطأ يحاسبها الله عليه وعاشت تناقضاً وصراعاً داخلياً طويلاً في تلكَ اللحظات وهي تنظر زميلتها وصديقتها تجلس الى طاولة أستاذ زميل وبجوارهما أستاذ وأستاذة أخريان لاتعرفهما.. كانت تشعر بالندم حينما تقف عند الصلاة تناجي ربها وتستغفرهُ لأفكارها تلكَ، «لكنكَ علمتني التوكل عليكَ.. لماذا؟؟ وأنا لا أسالكَ يارب إعتراضاً.. عفواً منكَ يارب ولكنْ، لماذا من لاتلتزمُ بما أمرتَ تحصلُ على ما تريد وأنا لا»...

« يارب!! أنا لا أريد الحرام بل أريد شرعكَ وحلالكَ وأريد أن أعيش كأيةِ أمرأةٍ في هذا العالم، لها زوجٌ وأطفال!! رباه!! دلني على دربي،((أرجوكَ يارب))، في تلكَ اللحظات وبينما كانت تستذكر تناقضاتها في الصلاة وتستغفر ربها من أية فكرة تحيدها عما تعلمتهُ وتربت عليه وهي ترتشف قهوتها وعيناها مصوبتان نحو صديقتها وزميلتها وهما تجلسان مع زميلها وأستاذ آخر لم تعرفهُ حينما رفع عينيه ولاحت منهُ إلتفاتةٌ إليها.. لم تعرف كيف ولا متى سرت تلكَ القشعريرة كتيار كهربائي في كل جسدها.. أطرقت نظراتها بسرعة ولكنَّ الأرتباك تملكّها بشكل ملفت للنظر، ولم تعرف كيف رفعت عينيها مرة أخرى من طرف خفي وباستيحاء نحو ذلكَ

الأستاذ لترى أنهُ كانَ ينظر إليها وكأنهُ لم يرفع عينيه عنها قط.. نهضت بسرعة ويداها ترتجفان إرتباكاً وغادرت مقررةً عدم القدوم الى ذلكَ المكان مرة أخرى، وتحدثت مع نفسها وهي تصعد السلم نحو قاعة المحاضرات « ماالذي جرى لي»؟؟

«ليس أول رجل في الكون ينظر لي ولا آخر رجل فلماذا الأرتباك، ماذا بكِ حمقاء غبية أنتِ»؟؟

هتفت في سريرتها، عندما ظهرت صديقتها أمامها وبجوارها ذلكَ الأستاذ الجديد حاولت تغيير اتجاهها ولكنَّ الأوان كانَ قد فات إذ نادتها صاحبتها أن تأتي إليها...

- حسنا، سأتاخر عن محاضرتي...

قالت ذلكَ وهي تنظُرُ الى قطرات المطر تنهمر بعد يوم مكفهر ملبَّدٍ بالغيوم عبر نافذة قسم اللغة الأنكليزية، حيث وقفت أمام ذلكَ الأستاذ وأختِهِ فشعرت بمشاعر تدغدغ أحاسيسها الأنثوية وهي تشعر بنظراتِهِ المعجبة بها بشكل خفي، أردتُ أن أعرفكِ بأخي، إنهُ أستاذ أدب أنكليزي مثلكِ، لقد تعين هنا معنا أنظري كم أنا سعيدة بهذا...

أخي هذه صديقتي الخجولة التي حدثتكَ عنها؟؟

- مرحباً!! لطالما حدثتني أختي عنكِ، تشرفت ياأستاذة...

- حدثتكَ!!

ورمقَتهْا بنظرة شزراً...

- ماذا حدثتكَ؟؟

- حسناً!!

قال متلعثماً قليلاً وتابع، أنها لاتفتؤ تذكركِ حتى عرفكِ كل أهلي، إنها تتكلم طوال اليوم عنكِ وعن أخلاقكِ العالية ومدى أدبكِ وأيضاً تمكنكِ من اللغة حقاً!!

وأطرقتْ بخجل وحارت جواباً، شعرت صديقتها بارتباكها فتداركت الموقف...

– ألم أقل لكَ أنها خجولة، إذهبي الى محاضرتكَ كي لاتتأخري عن طلابكَ وأنتَ أيضاً أذهب الى عميد القسم، تشرفتُ أنا بمعرفتكما...

قالتها تلكَ الصديقة وقهقهت بتعمد فنظرت صديقتها إليها بإمتنان لأنها أنقذتها من ذلكَ الموقف وإبتسمت بخجل وكذلكَ فعل الأخ الذي كانَ لايزال ينظر الى تلكَ الصديقة بنظرات الأعجاب، مرت الأيام وكانَ ذلكَ الأستاذ الجديد يتعمد عدم الأقتراب من تلكَ الصديقة أو أزعاجها بالكلام بل متابعتها بنظراتِهِ فحسب وكانت هي تعلم وتدرك جيداً ذلكَ وتشعر بسعادة خفية في سريرتها، « ولكن لماذا هو فقط سامحني يارب، سامحني ياإلهي، كانَ من الواجب علي أن لا أفرح بذلكَ، إنني لستُ نقية من الداخل، لاتعاقبني أرجوكَ يارب، أرجوكَ «...

في أحد الأيام جاءتها صديقتها لتحدثها على أنفراد...

– حسناً، هل يمكنني أن أحدثكِ بموضوع خاص وجدي؟؟

– حسناً، تكلمي...

– أنتِ تعرفين أخي سأدخل في الموضوع بدون مقدمات، حسناً أنهُ أخي...

– مابه؟؟

– حسناً، إنهُ معجب بكِ، من النهاية أنهُ يريد الزواج منكِ...

– شعرت بسعادة خفية وشعرتْ أنَّ دعواتها قد أُجيبت وأنَّ القطار لم يفتها ولايزال الأمل ينتظرها وأنها جميلة حقاًلرغبةِ ذلكَ الأستاذ في الأقتران بها، ولكنَّ الصديقة كانت مكفهرة الوجه وعبست وهي تضيف بينما كانت ترى تورّد وجنتي صديقتها وسعادتها بعرض الزواج...

– لكنَّ أخي، ويجب أن تعرفي وقد قالَ لي أن أخبركِ كل شيء...

– ماذا!!

– إنَّ أخي متزوج!!

- ماذا؟؟

- نعم...

قالت وعيناها مسمَّرتان على عيَنْي صديقتها المرعوبين المتفاجأتين.. وأضافت وهي تنظرها شزراً...

- أنهُ متزوج من أقاربنا وهي لاتنجب الأطفال، وشرطهُ الوحيد للزواج أن يكون سراً، إنهُ لايريد أن تعلم زوجتهُ الأولى بذلكَ...

- شرطهُ!!

تَمْتَمتْ بألم، وتقافرت الدموع من عينيها دون سيطرة منها على إيقافها...

- حسناً أنا متزوجة وعندي طفلة، حبيبتي أنتِ ستصبحين في الأربعين ولاتزالين باكراً وليس هناكَ فرصة أفضل من هذه ليس لأنهُ أخي بل لأنكِ صديقتي المقربة وأنا لحبي لكِ أنصحكِ، لن تجدي أفضل من أخي أو ليس جميع من تقدم لكِ أما أستاذ جامعي في الخمسين من عمرهُ ومتزوج وأولادهُ بسنكِ أو شبان لم يكملوا دراستهم أو مطلقون لديهم أطفال يريدون منكِ رعايتهم أو ليس ذلكَ ماجرى معكِ وكلهُ حصل على علم مني...

حبيبتي لم الدموع أنهُ يحبكِ...

رفعت الصديقةُ رأسها نحو تلكَ الأخت الخاطبة أو الصديقة الناصحة، نظرت إليها بعتاب...

لو عرضتُ عليكِ نفس المواصفات هل كنتِ لتوافقي؟؟

إرتبكت نظراتها لثوانٍ، ثم أحكمت توازن ذاتها، ونظرت بثبات نحو صديقتها لتقول لها...

- أنهُ فرصتكِ الأخيرة، زوجة لاتحمل أنتِ لاتؤذين أحداً، لكنني لا أتزوج سراً، زواج على سنة الله ورسولهُ...

وإن يكن...

فكري عزيزتي، فكري، أو ليس هذا أفضل بكثير من كونكِ عانساً...

قالت ذلكَ وإنتفضت لتقوم تاركة ذلكَ السهم في صدر صديقتها ينغرز عميقاً وبقوة حاولت أن تردها بكلمات تدافع بها عن نفسها لكن الكلام إنتفى وذاب عند الوصول لشفتيها نظرت الى الطلاب حولها وهي تجلس على المقعد الخشبي في حديقة الجامعة حيث كانت صديقتها التي شعرت أنها لمْ تعدْ صديقة لها تجالسها قبل قليل، نزلتْ دمعةٌ أخيرة من عينيها، تخيلتْ نفسها بعد سنة من زواجها بذلكَ الأستاذ وهما في نفس الجامعة ونفس القسم لاتستطيع أن تكلمهُ كلاماً خاصاً ولا أن تبين للأخرين أنها زوجتهُ.. تخيلت نفسها وهي تعيش في شقة صغيرة مستأجرة أو بيت صغير يمر عليها كل فترة ويتركها بمفردها في الأيام والليالي الأخرى، وماذا عن أهلها، سيعلمون طبعاً وسيفرح أهلها ويقيمون حفلاً لها وسيقول الجيران تزوجت فلانة العانس أخيراً لكن أهلهُ لن يعلموا ولن يكون لها الحق أن تسمى بإسمهِ أمام أهلهِ أو أقربائهِ ولربما، وقفزت دمعة أخرى وهي تتخيل نفسها مع طفلٍ صغير بين ذراعيها، ولربما أخذَ طفلكِ منكِ ما أن تتمردي أو تعترضي على حياتكِ ((تلكَ وطلقّكِ))، وتخيلت نفسها خالية الوفاض وهي تعود الى منزل أهلها بعد أقل من عامين ليقول الناس أنها مطلقة، وأنهمرت الدموع من عينيها وهي تنظر الى صديقتها خارجة من بوابة القسم وبجوارها ذلكَ الأستاذ ولربما يرقُّ قلبهُ ويحبني ويفضلني على زوجتِهِ الأولى، ولربمّا يعلنُ زواجنا أمام الدنيا وأعيش معهُ بسعادة ((مع أطفالنا))، ولم تشعر كيف إرتسمتْ أبتسامة رضا على شفتيها وهو ينظر إليها من طرف خفي وكأنَّ في نظراتِهِ سحراً يأسرها، وما أن رأى إبتسامتها حتى رفع رأسهُ ليبتسم لها وعيناهُ تلتمعان ببريق عجيب، هو خليطٌ من نشوة نصرٍ وحبٍ وأعجابٍ خفيَّين.. ذبلت تلكَ الإبتسامة على شفتيها وهي تسمعهُ يرفع سماعة الهاتف الخلوي ويجيب...

- نعم، حبيبتي أنا قادم الآن للتو أكملتُ محاضراتي...

رفع عينيه باحثاً عنها لكنها كانت قد غادرت مقعدها فظلَّ في حيرة يتلفت يميناً ويساراً ثم عادَ ليلحق بأختِهِ التي كانت صديقتها في تلكَ اللحظات تبكي إمام مِقودِ سيارتها في طريق العودة الى منزل أهلها وهي في حيرة ليس لها حدود...

قصر أحلامي

الجزء الأول

كانت تجلس في ظل شجرة زيتون وأرفة، تتأمل وبين يديها كراس رسمها الذي كانت تحب الرسم فيه كلما جلست في أحضان الطبيعة في تلكَ البقعة الواسعة من العشب الأخضر...

حيث إعتادت أن تركض منذُ طفولتها، هاربة من منزلها، لتجلس بين الأشجار وترسم ماحولها من مكونات الطبيعة، لكنها في أحد الأيام، ركضت بعيداً خلف فراشة تبعتها وتوغلت في أعماق الطبيعة، بعيداً عن منزلها حتى لم تعد تدرك أين طريق العودة في تلكَ البقعة البعيدة، كانت الأساطير تتناقل عن وجود الجان...

وهي إذ وصلت طريقاً مسدوداً، جلست الى أحدى الأشجار وتكورت حول نفسها وهي تجلس القرفصاء وإنخرطت بالبكاء، كانت فتاة لم تتجاوز الأربعة عشر عاماً ولطالما حذرتها أمها، أن لاتتوغل في أعماق الغابة، كانت كراسة الرسم بين يديها، وقلمها الفحمي قد لوث خدها الوردي بلونِهِ الأسود، علاوة على أنامل يدها اليسرى،كانَ الرعب قد تملكها، وهي تستعيد بسرعة مذهلة تلكَ القصص عن العفاريت والجان وكيف أن كل من دخلَ تلكَ الغابة لم ولن يخرج منها أبداً وفكرت والخوف يشل حركتها...

«ماذا أفعل»؟؟

«كانَ عليَّ أن لا أبتعد، ياالهي»!! فجأة لاح لها طيف لشئ ما خطف أمامها بسرعة فانتفضت والرعب يكاد يخرج من عينيها...

«ياربي، ياربي أنها ستظلم ياربي ساعدني»، ودبَ شئ ما على العشب تحت قدميها فقفزت عدة مرات، مرعوبة...

آه، آه، إبتعد كائناً من كنت، وركضت بعيداً مذعورة والأغصان تضرب وجهها حتى سقطت على الأرض، ورفعت رأسها باكية، كانت يداها تدميان ودفترها قد ضاع منها وقلمها أيضاً وبين دموعها التي انهمرت بغزارة كالمطر لاح لها بصيص ضوء بعيد فمسحت دموعها بيديها، ونظرت أمامها، كانَ هناك ضوء بالفعل، يلوح من خلف الأغصان الوارفة المتشابكة فتبعتهُ ناهضة من مكانها وأخذت تسير بحذر وصوت أنفاسها وكائنات الغابة المستتره وتكسر الأوراق اليابسة تحت قدميها مع صوت الأغصان التي تبعدها بيديها هو كل ما كان يسمع.. كانت أنفاسها متسارعة خائفة لاهثة ولمّا وصلتْ الى مصدر الضوء بإبعادها آخر أغصان مؤدية إليه، كانت دهشتها كبيرة فقد كانَ ذلكَ الضوء منبعثاً من شئ مكور يميل بضيائِهِ الى الزرقة، شعرت بالفضول ينتابها بعد قطعها كل تلكَ المسافة، ذهبت نحو ذلكَ الشئ المكور مدَّت يدها إليه وما أن حاولت لمسهُ حتى أمسكت بيدها يد بيضاء تميل الى الزرقة ليس فيها أي حرارة بل كانت باردة وظهر وجه حاد الملامح ملتفتاً إليها بعينين زرقاوين تحدقان بها.. سحبت يدها بذعر مطلقة صرخة صغيرة، ضاع صداها في ظلمة الليل بين أغصان الشجر...

- ولكن من أنتَ؟؟

- تمتمت بفزع...

- حسناً!! أو لا ترين أني جريح...

ورفع يدهُ الأخرى عن جرح عميق في كتفِه.. كان لونهُ أزرق قاتماً...

- أنني أموت وحدي هلاّ بقيتِ قربي حتى أموت...

- لكن، أو لا أستطيع أن أساعدكَ، يجب أن أساعدكَ.. هلاّ توهجت زرقة عينيه إثر كلامها ذاكَ وأقتربَ بوجهِهِ...

- منها لماذا تساعدينني؟؟ أنتِ تعلمين أني لستُ انساناً...

- ولِمَ لا أساعدكَ...

قالت ذلكَ رغم سريان قشعريرة خوف هائلة في كل جسدها، إرتد المخلوق الى الوراء وهو يتألم بصمت...

- سأموت قبيل شروق الشمس.. أيتها الأنسية...

قالها بتجهم...

- ولكن لن أدعكَ تموت، أو لا يمكنني أن أفعل شيئاً، أو لا يمكنني أن أساعدكَ، لكن أين أهلكَ؟؟

- إنها منطقتي...

رد الكائن، وقال وهو يمسك جرحهُ...

- لم تريدين مساعدتي...

- لمَ؟!! ردّت بدهشة...

- أنا لا أستطيع أن أتركك تموت وأمضي إن كانَ هناكَ أمر أستطيع فعلهُ لأجلكَ سأفعلهُ مهما كلفني الأمر، أو تريد أن أمضي في سبيلي وأنا أعلم أنني كان من الممكن أن أنقذ حياتكَ، كيف لي أن أعيش بعدها مع هذا الذنب...

أنا لن أكون أنسانة إذاً والموت أفضل لي من العيش مع تأنيب الضمير...

نظرَ المخلوق إليها...

- مهما كلفكِ الأمر ستفعلين...

- نعم...

قالت بثقة...

- حتى لو كلفكِ حياتكِ؟؟

قالها بصوت خافت وسمعتها فإر تجفت أعضاء جسدها جميعاً، إبتلعت ريقها قبل أن تتكلم

مستجمعة شتات شجاعتها...

– حسناً، هل سأموت كي تعيش أنتَ؟؟

– ربما!! إحتمال كبير...

قال المخلوق بلا مبالاة، نظرت الفتاة الى جرحِهِ وهو يتكور على نفسهَ من شدة الألم ورفعت عينيها الى سقف الغابة المتكاثف بأغصان وأوراق الشجر لترى من خلال تلكَ النوافذ القليلة بين الأغصان أن الليل قد مضى معظمهُ وأن الفجر قريب، فكرت لوهلة ثم قالت...

– سأفعل لأنقاذ حياتكَ إن كانت حياتي وقفاً على أن تعيش أنتَ فعش أنتَ وإذكرني طوال عمركَ، ذلكَ أفضل لي من أن أعيش بذنب تركك َتموت طيلة عمري...

– أنتِ مجنونة

ردّ الكائن، أذهبي، أخرجي، عودي الى أهلكِ فهم يبحثون عنكِ...

أهلي ما أدراك قالت بذهول، رفع رأسهُ من فوق العشب حيث أرتمى، وقال لها...

– أنا جني، أو لا تعلمين هذا...

صرخت بخوف...

– بسم الله...

وإبتعدتْ خطوات عنهُ، إرتسمتْ إبتسامة مريرة على شفتيه...

– أنتِ تكلمينني، وثم خفتِ مني لمّا عرفتِ أني جان!! أنتم معشر بني الأنس حقاً مثيرون للشفقة، إذهبي الأن، سأدلكِ عليهم، لو كنتُ بخير لسرتُ مع النسمات كما كنتُ أفعل وأنا أراقبكِ ترسمين أو تختبئين تحت الأشجار، إمضي لهم، سأكون دليلكِ وسأريكِ الطريق عبر الأغصان...

ترددت للحظات، ثم إستدارتْ مبتعدة وسرعان مافتحت الأغصان ذراعيها لتفسح لها

الطريق وكأنها تفهم، وتحس وتدرك مثل البشر، وما أن مضت في الطريق الذي رسمهُ الجني لها عبر الأغصان وبعد مسافةٍ، وكانَ الفجر على وشك أن ينقضي، لتشرق الشمس وسمعت أصواتاً تنادي بإسمها من بعيد، لكنَّ قلبها إنقبض فجأة وهي تتخيل فرحة لقائها بأهلها، وبدون تفكير، رفعت ثوبها الطويل بإحدى يديها وإستدارت وتوجهت عائدة وهي تهرول من نفس الطريق إذ كانت الأغصان لاتزال ترسم لها الدرب وكأنها أذرع مرفوعة مرحبة بها، وتسارعت نبضات قلبها وهي تركض...

- لا أرجوكَ لاتمت، إن ضوء الشمس على وشك الظهور، فكل أجزاء الغابة تبلغ عن هذا بتغير ألوانها القاتمة الداكنة وعودة ألوانها الخضراء إليها شيئاً، فشيئاً، أرجوكَ، لا تمت...

وصلت إليه، كان مكوراً على أرضية الغابة كما تركتهُ أول مرة...

- أرجوكَ كلمتهُ بصوت لاهث متقطع...

- قل لي كيف أساعدكَ؟؟ ستشرق الشمس لاوقت هناك قل لي ماذا أفعل؟؟

رفعَ رأسهُ بصعوبة...

- لا أصدق أنكِ قد عدتي...

- هيا أنا أقول لكَ، قل لي ماذا أفعل.. قالت لهُ بصوت حازم وهي تمسك رأسهُ بيديها...

- يجب أن تجرحي نفسكِ بنفس المكان الذي جُرحت فيه...

قال لها وهو يتكلم بصعوبة...

- كيف أجرح نفسي، لاتوجد سكين، لاتوجد آلة حادة...

فتح عينيه الزرقاوين وأشار بيدهِ الى الأغصان، ثم أغمضهما بسرعة وهو يجودُ بنفسهُ، وضعتْ رأسهُ برفق على العشب، ثم نظرت الى تلكَ الأغصان التي أشار إليها تمعنت النظر فإذا بها تراها مليئة برؤوس حادة كالأبر ولكنها أطول وأكثر حدة فرفعت يديها لتكسر الغصن وبصعوبة بالغة كسرتهُ والدماء تسيل من يديها رفعت حاشية ثوبها كاشفة عن جزء من كتفها

وبعد لحظة تردد جرحت كتفها بسل الغصن الحاد وهي تصرخ، ثم كررت الأمر فوق الجرح حتى سالت الدماء على ثوبها ولم تعد قدماها قادرتين على حملها فإفترشت الأرض بثوبها وهي تبكي، وكانت الشمس قد أشرقت وسالت دماؤها على العشب قرب الجني...

- أرجوكَ لا تمت رددت وهي تبكي...

- ياربي، لمْ أساعدهُ، لقد ماتَ.. كلهُ خطئي، أنهُ خطئي سامحني ياربي...

وأجهشت بالبكاء، ودفنت وجهها بيديها وشعرت بالدوار، نظرت الى كتفها المليء دماً وثيابها، وثم شعرت بغثيان وفقدت وعيها، لما فتحت عينيها.. وجدت نفسها في مكان جميل، جميل جداً كان هناكَ نهر يجري وزهور على ضفتيه وكانت الجدران حولها كلها بيضاء كالثلج، وكانت هناكَ مقاعد بلورية تتدلى فوقها أغصان الشجر بمختلف الثمر همست لنفسها...

لقد متُ، أنا في الجنة الآن...

نهضت من فوق الأرض المرمرية، وتلمست كتفها.. كان كما هو لاجرح فيه، نظرت الى ثوبها.. كان ثوباً رائعاً أبيض اللون جميلاً جداً...

- شكراً لكِ...

فجأة وجدت أمامها إمرأة طويلة كانت تتوهج في زرقة سنان النار الذي يعلو فوق اللهب إقتربت منها وجلست فوق أحدى المقاعد البلورية وأشارت لها أن تجلس بقربها...

- لقد أنقذتِ ولدي...

قالت لها وعيناها الزرقاوان تتوهجان، بينما قسمات وجهها الناصع بياضهُ توحي لها بالإمتنان الشديد، وتابعت...

- أنا لم أصدق أن هناك بشراً يساعد جاناً، أنتم معشر البشر تقتلون بعضكم البعض بل تسول لكم أنفسكم بوسوسة بسيطة من أي جني يمر في الهواء، أن تفعلوا الأعاجيب وتؤذوا بعضكم بعضاً، وتقطعّوا وتقتلوا بعضكم البعض فكيف؟! كيف ضحيتِ بنفسكِ لأجل

ولدي، أريد أن أعرف السبب...

نظرت الفتاة إليها وقالت...

– لم أستطع تركهُ بكل بساطة يموت وحدهُ وبيدي أن أنقذهُ.. ألتمعت عينا الأم بوهج أزرق ما إن سمعت ردَّ الفتاة وقالت لها بدهشة...

– كانَ أهلكِ على بعد خطوات، وكنتِ تعلمين ومع ذلكَ عدتِ...

– ولكن ما أدراكِ؟؟

قالت الفتاة متسائلة، ردَ صوت من خلفها...

– أنا حكيتُ لها...

ألتفتت الإنسية لترى نفسها أمام ذلكَ الجني بكامل لهبِهِ الأزرق سالماً معافى، فإبتسمت بسعادة...

– أحمدُ ربي أنتَ بخير...

– دماؤك الأنسية سالت فوق دمائي، وأنقذني اخلاصكِ وطيبكِ، أو تقبلين أن تمكثي عندنا لعدة أيام، سأعرفكِ بعالمنا، لاتخافي...

لن يؤذيكِ أحد هنا، نحن جان طيبون نؤمن بالله ولانؤذي بني البشر.. أمكثي في قصري هذا، ورفعت الفتاة رأسها متأملة القصر...

– لقد رأيتهُ من قبل في مكان ما...

– في رسوماتكِ كنتُ أرى رسمكِ...

نظرت الفتاة بعجب إليه...

– انه حقاً يشبه قصر أحلامي...

– أرجوكِ أن تبقي.. قال لها بصوت رقيق، نظرت إليه بحنان...

– شكراً لكَ أيها الجني الطيب، عليَّ أن أعود الى أهلي، فأمي وأبي سيقلقان عليَّ أطرق الجني برأسِهِ خائب الأمل...

– حسناً، قال للأنسية...

فلتحملكِ الريح الى بيتكِ مسرعة وستستيقظين من نومكِ فتنسين كيف عدتِ ولتْعلمي أني لمْ أُكافئكِ على مافعلتِ لي، لكني سأكون بقربكِ دوماً مع كل نسمة تداعب وجهكِ، تمنيتُ أن تبقي بقربي، قالها بحزن شديد، ثم أشاحَ بوجههُ، وما أن أغمضت الفتاة عينيها للحظة حتى وجدت نفسها حين فتحتهما في بيتها فوق سريرها وهبَّت ريحٌ فتحت مصراعي شباك غرفتها، ثم أُغلقَ الشباك لترى كراسة رسمها وقلمها الفحمي فوق منضدة كتابتها، قفزت نحو المنضدة وفتحت الكراسة لترى وجههُ مرسوماً فوق صفحتها الأولى وهو يبتسم لها، ثم إختفى الرسم الى الأبد، نظرتْ الى الأفق تحمل الكراسة خارجة من بيتها وهي تقف قربهُ وضمَّت الكراسة الى صدرها وهي تتأمل الغابة من بعيد ممتدة بعد مساحة كبيرة من العشب الأخضر تفصل بيتها عن ذلكَ المكان السحري، وهبَّتْ نسمةٌ داعبت خدَّها فضحكتْ وهي تعود الى المنزل منادية...

– أماه، أبتاه، أنا هنا، لقد عدتُ...

قصر أحلامي

(الجزء الثاني)

نهضت من نومها مبتسمة وهرعت نحو غرفة والديها.. طرقتها بهدوء ودخلت...

- أمي أبي ماهو هذا اليوم؟؟

نظرَ الوالدان لبعضهما بدهشة وثم إليها باستنكارٍ، قالَ الأب ماهو اليوم؟؟

ذبلت الأبتسامة على شفتيها وخرجت من الغرفة دون أن تتكلم، وبينما كانت تمضي الى غرفتها وارتطم بها أخواها اللذان يصغرانها سناً، تتبعهما أختهما الصغيرة وهما يلعبان معها لعبة الغميضة، صاحت بجزع:

- لم لا تريان أمامكما، أنظرا أين تركضان أيها الشقيان؟؟

قالت بتبرم ومضت بينما سمعت صوت أخويها يعتذران من بعيد صفقت باب غرفتها خلفها، ومضت نحو سريرها...

طرقَ باب غرفتها...

- من؟؟

- أنا أملكِ أجاب الصوت...

- أدخلي يا أماه...

قالت ذلكَ وأسرعت بالأستلقاء فوق سريرها وهي تغطي رأسها بالغطاء...

- حبيبتي، أعذريني، كان عليَّ أن لا أنسى...

مدت الأم يدها نحو الغطاء فوق رأس إبنتها فأحسَّت بأنفاس أبنتها المتسارعة...

– حسناً، أنا لم أنسى، ولن أنسى أنَّ في مثل هذا اليوم قبل ستة عشر عاماً رزقني الله بإبنتي البكر، كل عام وأنتِ بخير ياحبيبتي...

رفعت الأبنة رأسها من تحت الغطاء...

– أمي، هل حضّرتِ لي فطيرة ميلادي المحلاة...

آه.. حبيبتي، سأحضرها لكِ طبعاً، لكن عليكِ الآن، أن تتناولي فطوركِ هيا...

– حسناً.. شكراً لكِ يا أمي...

قفزت من فوق سريرها وأسرعت نحو مائدة الطعام حيث وضعت لها أمها صحناً من الجبن، وقدحاً بجوار أبريق الشاي...

– امي.. لقد سئمت من الجبن أريد بيضاً...

قالت لأمها بتبرم وأحتجاج...

– حسنا، قالت الأم دعيني اوضح لكِ أمراً، إجلسي...

وضعت كرسياً بجوارها وأشارت لأبنتها نحوها، جلست الفتاة...

– إني أسمعكِ يا أماه...

– أنتِ تعرفين جيداً أن أباكِ، لايعمل الآن، لقد جُرحت ساقهُ وهو جليس الدار منذُ مدة طويلة مع حلول ميلادكِ، أظنُّ أنهُ قد حال حول على وضع أبيكِ هذا ومادمتِ، قد كبرتِ ياحبيبتي، فعليكِ أن تدركي أننا لا نستطيع توفير كل هذه الأمور الثانوية..أستطيع بعملي المتواضع في الخياطة أن أوفر الأساسيات وبشق، الأنفس ولربما لا تدركين أن رب عمل والدكِ، لم يعوضهُ أي نقود عن كل ماجرى لهُ ولم يعطهُ أجرة عملهُ الأخير معهُ إلا شيئاً زهيداً، أنا أعتذرُ منكِ حبيبتي، لكنْ، عليكِ أن تقدّري وضعنا وتتفهمي، أنتِ إبنتي الكبيرة، أعرف أنكِ في العام

الماضي فرحتِ بهدية والدكِ من الاقلام الفحمية ودفاتر الرسم وهديتي التي أشتريت فيها سواراً ذهبياً لكِ جمعتُ لهُ نقوداً من أبيكِ لفترة طويلة، لكن أنا أريد هذا السوار حقاً لأني أريد أن أعرض أباكِ على الطبيب، آسفة حقاً أني أضطررت لقول كل هذا في يوم ميلادكِ...

وانهمرت الدموع من عيني الأم، نظرت الفتاة بدهشة الى أمها ولدقيقة كاملة ظلت مسمرة في مكانها تحاول إستيعاب كل ماقصّتهُ أمها على مسمعها، كفكفت الأمُّ دموعها، ونظرت الى إبنتها بألم...

– أنتِ لستِ حزينة على ابيكِ؟؟

– أماه نظرت الفتاة بذهول ولم تجب، بل نهضت من فوق الكرسي وأسرعت نحو غرفتها لتخرج سوارها الذهبي من درجها.. قالت لنفسها لم أكن أرتديه اصلاً وذهبت به نحو أمها ووضعتهُ على الطاولة أمامها وكانت الأم غارقة في حلم يقظه وهي تنظر الى جدار المطبخ وما إن وضعت إبنتها السوار أمامها حتى نظرت بدهشه إليها، لم تتكلم الفتاة، ولم تقل الأم شيئاً...

أسرعت الأبنة نحو غرفتها مجدداً ولكنها حملت دفتر رسمها وقلمها معها هذه المرة وفتحت باب المنزل المطل على المرعى الشاسع، وضعت الكرّاس تحت إبطها وعضَّت على القلم بأسنانها وعدلت وشاحها الأرجواني جيداً فوق رأسها ثم أطلقت العنان لساقيها بمسابقة الريح، ركضت فوق العشب مبتعدة عن منزلها كما إعتادت أن تفعل دوماً، وعندما وصلت الى شجرتها التي إعتادت أن تجلس تحتها، تلكَ الشجرة العملاقة التي يمتد عمرها طويلاً، ولابد أنها قد ضمت تحت أغصانها العديد من بني البشر على مر الزمن، وقفت الفتاة قليلاً لتستعيد أنفاسها، إذ كانت تلهث أثر ركضها الطويل، ونظرت الى الغابة التي لم تعد بعيدة كثيراً عن تلكَ الشجرة وإستذكرت ماجرى لها وتذكرت كلمات والديها ووعدها لهما بأن لا تعود الى هناك أبداً، تنفست الصعداء وهي تضع كراسها في حضنها وقد إفترشتْ العشب، وأخذت القلم من بين شفتيها لترسم به، فكرت قليلاً، لقد رسمت النهر الذي يمر بجوار شجرتها متجهاً الى الغابة السحرية ورسمت شجرتها ورسمت المرعى الواسع ورسمت الغابة من بعيد وبدون تفكير تحركت أناملها لتخط فوق الورق شكل سوار جميل يشبه ذاكَ الذي لم يعد ملكاً لها، ووضعت فوقهُ

أحجاراً كريمة رصعتهُ بها، لم تكن توجد اصلاً في سوارها، وتنهدت، نظرت الى النهر القريب، كان نهراً عريضاً وتلكَ الأشجار الجميلة والأزهار على ضفتيه تنتصب بقوام رشيق معلنة عن جمالها الآخاذ، وفجأة هبت نسمة عليلة داعبت خدها وتذكرت ما جرى لها.. لم تصدَّقها أمها وهي تقصُّ عليها ماحدث لما عادت من تلكَ الغابة بأعجوبة وإعتبرها أهل القرية الجبلية، ذات مكانةٍ أو شأن عظيم، لأنهّا عادت بعد قضائها ليلة كاملة في تلكَ الغابة لوحدها وإنتشرت قصتها بسرعة، ولم تكن هي تدرك أبداً، أنها قد أصبحت مهيبة الشأن عندَ أهالي القرية، حتى قالت أمها لأبيها ذات يوم وهما يتناولان الطعام مع بقية العائلة، أنَّ معاملة الأهالي لها باتت جداً مختلفة، وأنهم أصبحوا يحترمونها بشكل مبالغ فيه ويسلمون عليها أينما مرت في السوق أو على قارعة الطرقات...

كانَ ذلكَ قبل عامين ولم تصدقني أمي...

قالت الفتاة لنفسها، ونهضت منتفضة لأن معدتها أخذت تصدر صوتاً يعلن عن أنها فارغة...

– حسناً، ماذا سآكل ؟؟

فكرت الفتاة وهي تنظر الى الأفق، حيث إختفى منزلها من بعيد...

– لا أقوى على العودة الآن وإلتفتت نحو الغابة...

– هناكَ ثمار لذيذة قبل أن أدخلها، أنا أذكر.. وترددت تركت كراس رسمها تحت الشجرة، وإلتفتت الى شجرتها وإحتضنتها بكلتي ذراعيها، لكنها لم تستطع أن تصل بيديها الى نهايتي الجذع السميك...

– أيتها الشجرة الحبيبة، يامن حملتِ أسراري سنيناً، كم أحبكِ، إحفظي لي كراسة رسمي بينما أذهب، لكن يا ترى هل ضممتِ تحتكِ غيري على مدى السنين، سأترك قلمي أيضاً هنا، إنهما أمانة عندكِ، هه...

وتركت كراسها وقلمها ثم ذهبت تمشي على ضفة النهر بمحاذاة الأزهار والعشب البري

وهي تتأمل جمال الطبيعة الباهر، ولما وصلت قرب الغابة توقفت، وسرت قشعريرة في جسدها لكنَّ نداء الجوع كان أقوى من خوفها، فقطفت الثمار وأخذت تأكل بشهيه، لأنَّ الجوع قد أخذ منها مأخذاً وإستمرت تقطف الثمر وتلتقط الثمار المتساقطة على الأرض حتى شبعت، فجلست على الأرض لترتاح، وهي تصغي الى خرير الماء المذهل، وكانت أصوات العصافير والطير تزين تلكَ الموسيقى الطبيعية بزينة ملكوتية...

– شعرتُ بسعادة عارمة معكِ أيتها الطبيعة، أنا أسعد مخلوقة...

قالت تحدّثُ نفسها وإرتمت مستلقية على العشب الأخضر الى الوراء لتنظر الى زرقة السماء الواسعة، لم تدري متى أخذتها غفوة صغيرة، لتستيقظ فزعة...

– ياربي سيقلق والداي نهضت...

وأسرعت بنفض ثوبها، ونظرت الى الغابة القريبة جداً منها وملت عينيها للحظات قبل أن تستدير لتعود أدراجها لكنها شعرت بالعطش فجأة فاتجهت نحو النهر الذي كانت تمشي بمحاذاتهُ وإنحنتْ باتجاههِ وهي تمد يدها لتغترف منهُ، شربت عدة مرات ووقفت تلفظ أنفاسها، نظرت الى النهر وقد لاح منهُ وميض ما، مدت رأسها فرأت وجهها البيضوي وتأملت عينيها السوداوين ووشاحها قبل أن تتحول عيناها الى عينين زرقاوين ووجهها المكور الأبيض الى وجه طويل فاقع.. أطلقت صرخة رعب وإرتدت الى الخلف، نظرت أمامها...

– مرحباً كيف انتِ؟؟

قالَ لها وهو يقف على الضفة الثانية من النهر، مر عامان ولم تأتي ولو مرة لزيارتي...

– ياربي لقد اخفتني...

– هل تخافين مني؟؟

كيف وقد ضحيتِ بنفسكِ لأجلي، لولاكِ لما كنتُ على قيد الحياة الآن...

نظرت إليه وقلبها يخفق سريعاً...

- لا، أنا لا أخافُ منكَ، لقد أصبحتَ حلماً طيلة ذينك العامين حتى أني أصبحتُ أشك أني كنتُ أحلم فعلاً وأني لم الأقيكَ قط، لكنني، كلما أنتابتني شكوكي كنتُ أنظر الى أثر الجرح في كتفي، صحيح أنه التأم، لكنَّ أثرهُ لم يختفِ أبداً، لم يصدقني أحد، فقررتُ أن لا أحكي لأحد أبداً إلا لنفسي...

- عيد ميلاد سعيد...

قال لها مبتسماً.. تلألأ وجهها بسعادة لا مثيل لها...

- الف شكر لكَ...

- هل أتجرأ بأن أطلب طلباً منكِ مادامت هذه الابتسامة الجميلة قد إرتسمتْ على محياكِ؟؟

- ما الأمر ياجني...

قالت بتوجس...

- هلا قضيتِ معي يوماً واحداً يوم ميلادكِ هذا لأجعلهُ أجمل يوم تذكرينهُ دائماً...

-ولكني لا أستطيع ردت بحزم، أريد أن أعود الى أهلي سوف يقلقون، وأبي مريض، ليكن الغدإتفقنا...

أطرق الجني لوهلة ثم رفعَ رأسهُ بحزن...

- كما تشائين، لكنني أستطيع أن أشغلهم عنكِ، كي نمضي الوقت سوية، أنا لا أطلب الكثير، منذُ عامين وأنا انتظر أن تأتي الى منطقتي...

أمر بجواركِ مع النسمات كلما جلستِ تحت شجرتكِ، وأُراقبكِ من بعيد وأنتِ لاتعلمين، إن لكِ ديناً علي، ويجب أن أرد ولو جزءاً منهُ...

- لقد أعفيتكَ من كل دين، حقاً لا أستطيع أيها الجني، فقد عاهدتُ والديَّ أن لا أدخل هذه الغابة أبداً، أرجوكَ لا تحزن دعني أذهب...

– كما تشائين قالَ لها وأشاح بوجهِهِ المشتعل غضباً وحزناً عنها كي لا تراهُ، شعرت بحزنهِ...

– أرجوكَ لا تحزن...

قالت لهُ...

– كلا سأحزن...

ردَ عليها بصوت كئيب...

– أذهبي...

الله وحدهُ يعلم متى سأراكِ، بعد عامين، أم ثلاثة، أو لربما لن نرى بعضنا أبداً.. ردَّ عليها نظرت إليه بتعاطف..

– حسناً أرجعني لأهلي لأقول لهم أني سأتأخر، ثم أعود، أعدكَ...

– ولماذا ترجعين، أنتِ لن تتأخري، ستدخلين غابتي وستعودين بسرعة...

ألتفتت الفتاة نحو الغابة بذعر...

– أنا أخاف من الغابة...

قالت بقلق، فردَّ عليها...

– ليس وأنتِ معي...

– وماذا أن تأخرتُ...

قالت بتوجس...

– حسناً.. أنتِ تثقين بي أم لا، هذا السؤال سيحدد ما إذا سأظلُ هنا على الضفة الأخرى أم أني ساكون على نفس ضفتكِ...

نظرت الفتاة مباشرةً في عينيه فشعرت بذهول ورهبة شديدة وأحست أنها واثقة تماماً من

تلكَ النظرات المليئة ثقة وهي تقابل نظراتِهِ...

- نعم، أنا أثقُ بكَ...

تمتمت بدون تفكير إشتعلت عيناهُ بلهب أزرق واختفى من أمامها، نظرت حولها لم تجدهُ، لكنَّ الأغصان أمامها إنفرجتْ ميسرة لها الدرب لتدخل الغابة وكأنها ترحّب بها أو ترسم لها الطريق كما حصل معها في المرة السابقة، لمّا خَطَت قدمها أول خطوة داخل الغابة شعرت بشئ غريب قد حصل وكأن شيئاً ما قد لامس يدها نظرت الى معصمها فإذا بها تفاجأ بسوار ماسي يتلألأ حوله، قربتهُ من عينيها لترى أنهُ مرصع بالألماس إبتسمت فرحة...

- أهلاً بكِ إنهُ هديتي الأولى لكِ...

قال لها الجني وقد ظهر فجأة بجوارها فصاحت مذعورة...

- ستميتني خوفاً أرجوكَ كفَ عن الإختفاء والظهور فجأه...

- لكنني ذهبتُ مسافة بعيدة لأجلبهُ لكِ وعدت على الفور، أنا آسف، نسيتُ طباع البشر، أنا لستُ معتاداً على التحدث معهم، لا أكلم أحداً سواكِ، تعالي معي...

سارا سوية في الغابة السحرية وهي تجيل طرفها ناظرةَ الى تلكَ الأشجار والنباتات الجميلة فيها...

- هل حياتكم جميلة سألت الفتاة الجني وهما يسيران فالتفت إليها حزيناً...

- كنتُ سعيداً لكنني لست كذلكَ...

- لماذا؟؟

قالت بقلق، فوجدت بين يديها مجموعة من الفواكه اللذيذة...

- كلي قال، لها...

- سترين حياتنا لاتعجلي، كان منظر الفواكه شهياً رغم أنها قد تناولت الكثير فبل دخول

الغابة، لكنها أخذت تأكل من تلكَ الفواكه التي شعرت أنَّ لها طعماً أخر ألذ، وفجأة ظهر أمامها قصر جميل في قمة الجبل خلف الأشجار، صاحت من فرط الدهشة، وكان قصراً بلورياً آخاذاً...

- ما أجمل هذا...

- هل أعجبكِ؟؟

سألها الجني..

- هل تمزح؟؟ طبعاً أنهُ كقصرِ أحلامي...

ردت الفتاة بدهشة...

- دعينا ندخلهُ...

- أخشى أن أكون قد تأخرت قالت مستذكرة أهلها...

- كلا، أنظري لا يزال الوقت عصراً، أنظري الى السماء...

رفعت رأسها الى فوق فرأت أنهُ على حق إلتفتت إليه...

- سأدخل، ولكن عليكَ أن تعدني أنكَ ستعيدني الى أهلي...

نظر إليها بنظرات آسرة تكاد تنطق حباً لها...

- كما تأمرين كلامكِ أمر بالنسبة لي، لكن قبل أن أعدكِ هذا، عديني أن تزوريني كل يوم في غابتي.. عديني أتوسل إليكِ...

- كل يوم، ردت بإرتباك، لا لا أعتقد أني قادرة...

- كلا، تقدرين، أنتِ تخرجين كل يوم لترسمي، قال لها بنظرات واثقة...

- لكن المسافة بعيدة الى الغابة، ردت معتذرة...

- لاتقلقي أنتِ فقط فكري فيّ، وسوف تجدين نفسكِ هنا...

– حسناً، أعدكَ...

إرتسمت إبتسامة فرح شديدة على وجههِ الطويل، وفجأة وجدتِ الفتاة نفسها في القصر، كيف دخلت ومتى لم تذكر، لكنها في القصر وجدت العديد من بني جنسه، الذين إلتفتوا إليها مرحبين وكانوا إما جالسين فوق مقاعد بلورية، أو مشغولين بقطف الثمر المتدلي على ضفة النهر الذي يخترق القصر كلهُ، أو يقومون بالعزف على الآلات الموسيقية الجميلة...

– من هؤلاء، سألت صديقها برهبة...

– لا تخافي أنهم أهلي...

– كلهم، ردت بذعر...

– أجل قال بسخرية، وصلَ بها الى قاعة واسعة، كانَ هناكَ كرسيان في نهايتها، صعد السلم الصغير المؤدي إليهما وجلسَ على إحدهما وأشار بيدهِ لها أن تجلس على الكرسي الذي بجوارهِ، فارتعدتْ فرائصها...

– لماذا تجلسني على كرسي الملوكية، أرجوكَ أعفني، فأنا لستُ ملكة هذا القصر.. نظر إليها ببرود وقال...

– أنتِ ضيفتي و أنا أدعوكِ للجلوس بجواري لتشاهدي الأحتفال...

– ماذا؟؟

ردت بذعر...

– أنتِ تثقين بي، قلتِها بنفسكِ إجلسي، لا تخافي...

هدأت نفسها وسكنت سريرتها، وتقدمت نحو الكرسي وإستدارت فجلست فوقه، فجأة علت أصوات الهتاف أسفل منها، نظرت فإذا بها ترى القاعة مكتظة بإنواع مختلفة من أولئك المخلوقات وتقدمت جنية صغيرة لها أذنان طويلتان أدخلتا الخوف في قلب الفتاة بادئ الأمر، لكنَّ عزفها على القيثارة أسعد جميع الموجودين وإرتسمت إبتسامة إعجاب على شفتي الفتاة

وصاحت من فرط سعادتها...

- مذهل، رائع...

إنحنت الجنية الصغيرة وتقدم بعدها فريق كامل من العازفين ومعهم آلات عجيبة لم ترها الفتاة في عالم البشر، وعزفوا لها أجمل الألحان التي يمكن لها أن تسمعها يوماً، شعرت أنها في قمة السعادة...

- هل لي بطلب مادمتِ سعيدة بألحان مملكتي وخدمي؟؟

- أطلب ماشئتَ فقد أسعدتني في يوم ميلادي أيها الصديق الرائع...

- أمنحيني رقصة واحدة أتوسل إليكِ، ومد يدهُ نحوها، ترددت لثانية واحدة، أنا لا أعرف كيف أرقص مع أحد مطلقاً...

- لا تخافي معي ستجدين نفسكِ تعرفين كل شيء.. ووجدت نفسها في وسط القاعة معهُ وقد أخذ بيدها ولف ذراعهُ الأخرى على خصرها، وجدتْ أنها بارعة في الرقص معهُ وكأنها قد تمرنت منذُ سنوات طفولتها، وفجأة وجدت إنها وسط الغابة بعيداً عن كل أولئكَ المخلوقات الغريبة عنها، فجأة، وهو لا يفارق النظر في عينيها صاحت...

- كفى، كفى، أرجوكَ...

توقفت وسقطت على العشب، نظرت حولها كان الظلام حالكاً رفعت رأسها إليه...

- لكنِكَ وعدتني، نظرَ إليها بحزن...

- لقد مرَ الوقت سريعاً، إذهبي الآن، ولكنْ لا تنسي وعدكِ...

- نهضت فجأة لترى شعاع الشمس وهو ينفذ من فتحات ستارة غرفتها ليسقط على وسادتها.. رفعت رأسها بتثاقل...

- ياربي كيف وصلتُ هنا؟؟

وتذكرت وكأنها كانت تحلم ما مر بها بالأمس، ونهضت من فوق السرير وهي تحدث نفسها أنا كنتُ أحلم هذه كراستي فوق طاولتي وأقلامي أيضاً، فتحت باب غرفتها ذهبت نحو المطبخ لتجد أمها تحضر الفطور إلتفتت الأم سعيدة نحوها...

– آه حبيبتي عيد ميلاد سعيد ومشت نحو إبنتها لتقبلها على خدها آه أدعو الله أن يحفظكِ

أمي...هل اليوم ميلادي؟؟

نظرت الأم الى إبنتها مذهولة...

– حبيبتي لابد وأنهُ تأثير نومكِ الطويل، فالبارحة عدتِ عند العصر متعبة جداً وكأنكِ قد قطعتِ مسافة طويلة وذهبتِ مباشرة الى سريركِ.. كلا، أنهُ بالأمس.. إنظري ألا تذكرين أيضاً سواركِ وتضحيتكِ لأجل أبيكِ لقد بعتهُ بسعر مرتفع وذهبتُ الى الطبيب وإتفقتُ معهُ أن يأتي لعلاج والدكِ.. إنه طبيب مشهور وقدير لم يتردد وجاء أمس وأنتِ مع طبيعتك ترسمين وعاين جرح ساق أبيكِ وبشّرني أنهُ يمكنهُ أن يعود الى المشي بإذن الله إأن التزم بالعلاج وبالجلسات التي سيقررها الطبيب... حبيبتي أنتِ لن تنقذي أباكِ فحسب بل ستنقذيننا كلنا و أول شخص هو أنا، قالت الأم ذلكَ ثم إنخرطتْ بالبكاء...

– حسناً، يا آماه...

قالت البنت مواسية...

– الحمد للرب وإلتفتت، نظرتْ الى الجبل البعيد عبر نافذة المطبخ الصغيرة، بينما صبَّت الأم الشاي لها...

– هيا تعالي حبيبتي، كانت تتكئ على مغسلة الصحون، عندما شعرت بشئ في يدها اليسرى رفعت كم ثوبها لتجد السوار الماسي فارتبكتْ وأسرعت تغطيه بثوبها وسارعت بالجلوس الى مائدة الطعام مذهولة وكلمت نفسها وهي تحتسي الشاي...

– ماذا يحدث لي ألم يكن حلماً؟؟

لم تذهب الى مكانها الذي ترسم فيه، ذلكَ اليوم ولزمت غرفتها وهي ترتعد خوفاً ونزعت السوار ووضعتهُ في درجها، عندما سألت أمها عنها إدعت المرض، لكنها شعرت بضيق شديد كلما راقبت الشمس وهي تميل الى الغروب...

فتحت باب غرفتها وتسللت خارجة من بيتها وقفت أمام البيت وأغمضت عينيها وتمنت أن تراهُ، فتحت عينيها لتجد نفسها أمامهُ وهو في قصرهُ البلوري جالس على كرسيه، كان حزيناً...

- لم تأتي؟؟

لقد وعدتني أيتها الأنسية، هل تكذبين علي...

قال بغضب...

-كلا!!... أجابت بارتباكٍ...

- لكنني خائفة...

- مني...

قالَ وقد أصبح بقربها فجأة...

- نعم، هزت رأسها موافقة...

- ليتني أتحول الى إنسيّ تافه كي أُرضيكِ فلا تخشينني، أرجوكِ لاتخافي مني...

- أنا لا أستطيع أستيعاب كل هذا...

ردت بحزن...

- أتركني بحالي أرجوكَ، نظرت إليه بتوسل فبادلها بنظرة دهشة كبيرة...

- أهذا ماتريدين حقاً.. أريد لكِ السعادة أنا لا أستطيع تركِكِ، سأموت، لا أطلب منكِ سوى المجئ كل يوم لأراكِ فقط هل أطلبُ الكثير وسأفعل كل شئ لأجلكِ...

- هل أنتَ حلمٌ؟!! ضحكَ عند كلامها ضحكة عالية...

- أنظري الى يدكِ ماذا تركتِ في درجكِ نظرت فإذا بها تجد سوارها نفسهُ...

- ألسنا أصدقاء؟؟

لم تخافينني عودي الآن وتعالي غداً...

ألتفتت لتجد نفسها في بيتها مرة أخرى، ذهبت الى غرفتها وأخذت تبكي لوحدها، وثم أرتمت على وسادتها وهي تفكر فيما مرت به فابتسمت بشكل لا أرادي عندما تذكرت تلكَ الحفلة الجميلة وتذكرت عينيه وسألت نفسها...

- لكن هل أحبهُ؟؟

ونهضت جالسة فوق سريرها مذعورة وهي تجد قلبها يجيبها بنعم فضمَّت وجهها بيديها ثم رفعت رأسها وأغمضت عينيها وتذكرتهُ وتخيلت نظراتهِ...

-لكن أو يحبني!! معقول؟؟

لكن، كيف، نحن، مختلفان ياربي، وانخرطت بالبكاء مجدداً...

- ليتني لم أرهُ فهذه السعادة حارقة مؤلمة محزنة، ووضعت رأسها فوق وسادتها وهي تبكي ونامت وهي على حالها ذاكَ في الصباح الباكر نهضت على صوت تغريد العصافير قرب شباك غرفتها فتحت النافذة ونظرت الى الغابة وخلفها الجبل يلوحان من بعيد، فشعرت بحنين طاغ وحزن أليم، بعد الظهيرة ولما إنتهتْ من معاونة أمها في المطبخ وأنهت غسل الصحون أطلقت لساقيهاالعنان...

وركضت عبر الفلا حتى وصلت شجرتها، وهناكَ وقفت وأغمضت عينيها وتمنت رؤيتهُ فكانت أمنيتها مجابة وسرعان ما وجدت نفسها أمامهُ في وسط الغابة وهذه المرة قدم لها حصاناً أبيض رائع الجمال وقال لها أينما أردتِ الذهاب والتجوال في أنحاء غابتي ما عليكِ سوى أن تمتطي هذا الحصان...

- لكني لم أركب حصاناً من قبل نظرت إليه بدهشة، فقال لها هيا أذهبي وسترين هنا كل شئ

سهلاً عليكِ أمسكت برقبتِهِ بعدما أقتربت منهُ بوجل بادئ الأمر لكنها ولما رأتهُ لا يبدي إستنفاراً أو إستهجاناً منها شعرت بالأمان وامتطتهُ بسرعة وشعرت بسعادة عارمة وهو يجوب بها أنحاء الغابة الخضراء وقُرْبَ النهر الذي يخترق الغابة السحرية.. نزلتْ من على ظهرِهِ وجلستْ على حافة النهر ودفعت بقدميها في مياهِهِ وهي تشعر بسعادة مطلقة...

–هل أنتِ سعيدة قال لها...

– نعم أجابت وهي تنظر إليه بإمتنان...

– مهما فعلتُ لن أرد دينك علي.. ونظرت الفتاة الى معصمها والسوار الماسي يتلالؤ حولهُ ونظرت الى صديقها مرة أخرى...

– قل لي هل هناك جن أشرار؟؟

– لم تسألين...

قال بفتور فأجابت...

– حسناً، فضول...

– أفضل لكِ ألا تسألي ولا تعرفي ياصديقتي...

– لماذا، لكنكم تعرفون كل شئ عنا...

إلتفتَ إليها وهو يجلس القرفصاء بجوارها...

– ألا تخافين أن أخبرتكِ...

– حسناً، سأجرب حظي إن خفتُ أم لا...

نظرتْ إليه بجديه ففزعت نظراتهُ...

– كلا أنتِ لستِ جادة...

لا، لا، لن اخذكِ هناك...

- أحكي لي إذاً...

- أو تعلمين كلما فكرتِ بفكرة شريرة سيكون هناكَ جني شرير بقربكِ دون أن تريه يحثكِ على فعل الأشياء التي لا يجب أن تعمل وهم يسكنون الجهة الأخرى من الغابة وإذا ذهبتِ إليهم سترين مخلوقات ترقص وتغني وتفجر على طول الخط دون رادع، ثم إنهم ليستمدون قوتهم من البشر كلَّما عملوا المعاصي أوَ فهمتِ، ثم أنكِ...

وسكتْ قليلاً...

- ماذا، قالت لهُ...

- لما وجدتني على وشك الموت، كنتُ قد تصارعت مع أحدهم، فغلبني وكدتُ أموت لو لا أنَّ الله بعثكِ لي، لا أدري كيف وصلتِ دون أن يتعرضوا لكِ...

- لكن لم تقاتلتَ معهم سألت الفتاة بدهشة...

- كانوا يريدون منطقتي ليضموها الى مملكتهم...

- حسناً، سأعود الآن لقد تأخرت...

قالت وقد أخذ الخوف منها مأخذهُ أمسكَ بذراعها، وسارَ بسرعة الريح لتجد نفسها في البيت، وقف أمام منزلها، أمام شباك غرفتها ونظر إليها فقالت لهُ...

- هل سنظل أصدقاء الى الأبد؟؟

رد عليها مبتسماً...

- هل عندكِ شكِ؟؟

- وهل سألقاكَ عندما أطلبكَ دوماً؟؟

رد عليها وأسنانهُ الصفراء تلتمع في إنعكاسِ ضوء القمر عليها...

- أنا سأظلُ وفياً لكِ الى الأبد وهل جزاء الأحسان إلا الأحسان؟؟

هل تعتقدين أنّي مثل بعض البشر، ثقي بي فأنا قرينكِ الطيب، لن أتركك مطلقاً.. إبتسمت و إلتفتت بعدما إختفى لتنظر الى نفسها في مرآة غرفتها...

- حسناً...

قالت لنفسها فارتسمت صورتهُ على المرآة مبتسماً لها...

- والآن مارأيكِ؟؟

قالت الفتاة لهُ وهي تستلم نسخة قصتها التي أعطتها للناشر، قال لها وهو ينظر إليها بدهشة...

- سؤال واحد أو لم تخافي ولو قليلاً وأنتِ تكتبين هذه القصة؟؟

ردَّتْ عليه مبتسمة باتزانٍ...

- كلا، وهل يخشى أحدٌ الشجر أو الغابة خاصة وأنا أكتب صفحاتي تحت شجرتي ونسمات الهواء تداعب وجنتي ومنظر الغابة الجميل يمتد أمامي بلا نهاية...

قصر أحلامي

(الجزء الثالث)

حسناً، قالَ لها الناشر وهو يسلمها نسخة القصة التي كتبتها وأكمل...

- أنتِ كاتبة قديرة ولكِ شأنكِ، ولكنني لا أريد قصة كهذه لا أعرف نهايةً لها أعتذرُ منكِ، ولكني أنصحكِ بوضع نهاية مقنعة، أو على الأقل نهاية يعرف القارئ منها أنهُ لم يقرأ شيئاً لاينفعهُ، لقد عودتِ قرآءكِ على نهايةٍ لكلِّ قصة، ولا أعتقد أني وصلت الى نهاية قصتكِ وأنا أقرؤها سأراكِ عندما تتمينها، إنتهى وقتي، أعتذرُ منكِ فهناكَ إجتماعٌ عليَّ حضورهُ...

نهضَ الناشر الذي إعتادت الكاتبة أن تنشر قصصها عبر دارِ نشرِهِ وهي تجُّر أذيالَ الخيبة، لكنّها ولمّا جلست مع زوجها وأطفالها في المنزل عند الغداء وهي تفكر فيما قالهُ لها دون توقف أدركت أنها في قرارة نفسها تأيِدّهُ...

- أقولُ لكَ ياعزيزي...

إلتفتَ نحوها زوجها...

- هل يمكنني أن أطلب منكَ طلباً...

- ماألامر...

ردَ زوجها بإستغراب...

- أريدُ أن أذهب الى منزل خالي عند الجبل، أريدُ أن أسافر هناكَ وبمفردي...

نظر إليها زوجها بريبة...

– ماذا جرى هل للأمر علاقة بمهنتكِ؟؟

إبتسمتِ الزوجةُ الكاتبةُ بحّبٍ وهي تُثني على زوجها...

– لطالما عرفتُ فيكَ الذكاء المتَّقد وفهمكَ لأفكاري دون أن أنطق...

– والأطفال...

رد عليها بضجر...

– أرجوووكِ...

قالت متوسلة...

– أنتَ تعلم أني لم أتركهم يوماً وأسافر بمفردي، لكني بحاجة ماسةٍ لأن أبحث عن نهاية لقصتي هذه...

– ولِمَ منزل خالكِ بالذات...

قالَ الزوج متسائلاً...

– لأني هذه المرة كتبتُ قصة من وحي خيالي وضمَّنتها أُسطورة الغابة التي لطالما سمعتها منذُ صغري وأنا أترعرع في منزل أبي الريفي...

– وكم تريدين البقاء هناكَ؟؟

قالَ الزوج متعجباً فأجابت...

– يومين وإن أطلتُ تعال مع أطفالي الى منزل خالي...

– كلا، كلا خذيهم معكِ وأمكثي ماشئتِ حتى تكملي قصتكِ، الله معكِ.. إبتسمت الزوجة بحنانٍ ونهضت لتقَّبل رأس زوجها تقديراً...

–لن أغيب أكثر من أسبوع، أعدكَ!!...

وأخذتَ تعدّ حقيبتها مع حقيبة أطفالها ومايحتاجون إليه من مستلزمات أساسية من ثياب وغير ذلكَ من أغراض وأهمّ غرضٍ بالنسبة لها والذي وضعتهُ فوق أغراضها في حقيبتها كانت نسخة القصة مع مسودات كثيرة لتكتب تكملة قصتها، لم تكن الرحلة طويلة جداً بل كانت لاتتجاوز الساعة بالطائرة التي إستقلتَّها مع أطفالها لتنقلها من المدينة الى الريف حيث ترعرعت وحيث يسكن أحد خاليها في منزله، مع أطفالهِ وزوجتهِ، كانَ الترحيب حاراً بها وبأطفالها لما وصلت الى منزِلهِ بسيارتِهِ التي إستقلتَّها لَمَّا قدمَ خالها ليستقبلها من المطار، عندما جلسوا جميعاً على مائدة العشاء، قصَّت أبنة الأخت على خالها حكايتها مع قصتها الأخيرة وأردفت وهي تضع يديها تحت ذقنها...

- أنا بحاجة ماسة لأن أذهب هناكَ...

نظرَ إليها خالها بغضب...

- أنتِ تحلمين...

أبداً لن تذهبي الى منزل أهلي، إنَّهُ مهجور منذُ سنين طويلة، ثم هل تركتِ قصص العالم كلِهِ لتعودي الى قصةٍ قديمةٍ لا أريد أن أذكرها ولا أن أتطرق إليها...

- خالي، أرجوكَ، هل بإمكانكَ مساعدتي!؟ أنا أريد أن أسمع منكَ القصة، أنتَ الذي عشتَ معها سنين طويلة...

- أبداً لن أتكلم، (وهل تكلمت أمكِ)...

- أمي...

نظرت أبنة الأخت بعيداً وتنهدت...

- رحمها الله لولا ذاكَ الحادث...

وسكتت بينما أكمل الخال...

- لكانت بيننا خاصة وأنها أصغرنا سناً، كم أحببتها كانت تنسينا ألم فراق أختنا الكبيرة

وقفزت دمعة من عين خالها فنهضت الكاتبة من فوق كرسيها الذي جلست عليه مقابلهُ، وجلست قربهُ لتمسح دمعتهُ، في تلكَ الأثناء جلبت زوجة خالها الشاي ووضعتهُ على المنضدة الصغيرة أمامهما.. نظرت إليها فقرأت الخوف في عينيها ولذلك سارعت الى التبرير...

- تذكرنا والدتي رحمها الله...

قالت زوجة خالها وهي تجلس مقابلهما، وهنا كانَ الأطفال قد إنطلقوا للعّبِ مع بعضهم، أطفالها مع أطفال خالها الصغار وأخذوا يدورون حول مقاعدهم فصاحَ خالها بعصبية...

- أذهبوا وإلعبوا في غرفكم!!

التفتت الكاتبة لّما ذهبَ الأطفال مبتعدين عن غرفة الجلوس، نحو خالها وقالت بتأكيد، ألن تحكي لي عن أسطورة خالتي التي ذهبت الى الغابة ولم تعدْ؟؟ إلتفتَ إليها الخال بغضب...

- قلتُ لكِ، أني لا أريد أن أتكلم بهذا الأمر...

نهضَ غاضباً وغادرَ غرفة المعيشة الى غرفتهُ، تبادلت النظرات المذهولة مع زوجة خالها، ثم نهضت لتعتذر من خالها، طرقت باب غرفتهِ...

إدخل، ردَّ صوتُ خالها فدلفتْ، ووجدتهُ جالساً أمام النافذة ينظر إلى النجوم عبر الشباك، أو كان ينظر الى اللاّشيء، لم تستطع أن تحدَّدْ فتقدمتْ نحوهُ، وقربّت شفتيها من شعرهِ الأبيض لتقبل رأسهُ...

- أعتذرُ منكَ ياخال، سأعود غداً وسأنسى أمر هذه القصة، فما كانَ لي أن أخوض فيها وأفتح الجراح، صدقني أنا لم أرد ذلكَ، لكن الناشر أشار إليَّ بإكمالها سأنساها كلها ولسوف أُحرقها إكراماً لكً...

- أنا جداً أسف، كانت بجمال هذا القمر...

قال الخال وهو يحدث نفسهُ ناظراً الى السماء عبر نافذتِهِ المطلة على الفلا...

- لها وجهٌ أبيض كالقطن وعينان سوداوتان كالليل، وشعر طويل أسود ناعم تعودتُ أن

أحضنهُ لّما كنت صغيراً عندما كنتُ أخاف في الليالي الرعدية الماطرة، فتدعني أنام في غرفتها، لكنني كنتُ أراها في بعض الأحيان عندما تفتح نافذة غرفتها دون سابق إنذار، وكأنها تكلم شبحاً، وتقول لهُ كلاماً ليس بلغتنا ولا أفهم منهُ شيئاً، فكنت أظنُّ أني أحلم أو أنني أتوهم، لكنْ...

وأطرق الخال بينما جلست أبنة أخِتهِ على سريرِهِ مأخوذة بكلامه، رفع رأسه وهو ينظر الى النافذة مولياً ظهره لقريبته وإستمرّ بالكلام...

- عندما كانت تذهب لترسم كل يوم قرب الغابة التي حذرها والديّ من الأقتراب منها، كانت تعود وكأنها مسَّيرة، وكأنها ليست هي، إذ أنها تذهب مباشرة الى غرفتها دون أن تردَّ على أمي أو أبي عندما كانا يكلمانها، أو كأنهَّا منومة مغناطيسياً، لا أدري وتذهب لتنام مباشرة دون أن نستطيع إيقاظها وكأنها قد قطعت مسافة كبيرة لأنها كانت تبدو جداً متعبة.. كنا أنا وخالك الثاني نريد ان نلعب معها فنظل نهزَّها ونصيح دون جدوى، فنتركها...

وفي اليوم الثاني كانت تعمل مع أمي في البيت حتى تحين ساعة محددة تترك البيت فيها وكأنها في موعد لايخلف أبداً، فبدأت أمي تقلق وكلمت أبي ذات مساء لما عاد من عمله لأن ساقهُ شفيت بفضل الله وذاك السوار...

- أيّ سوار سألت أبنة الأخت بتعجب فأستمر الخال بسرده، كان سوارها الذي ضحت به لأجل والدي ولأجلنا كلنا، سوار إشترته أمي لها في عيد مولدها الخامس عشر وأعطته لها معيدةً إياه في يوم مولدها السادس عشر كما حكت لي جدتكِ وعندما قصت على أبي الأمر، من ارتيابها لأمر أختي الكبرى قرر منعها من الذهاب الى الرسم قرب الغابة، وهنا كانت الطامة الكبرى لأنها...

وعند جملته هذه أغرورقت عيناه بالدموع...

- ماذا حصل، جثت الكاتبة عند ركبتي خالها...

- قل لي ماذا حصل؟؟

نظر إليها والدموع تملأ لحيتهُ البيضاء، آه ياحبيبتي، لقد إختفت خالتك في اليوم الثاني الى الأبد، لم نراها ولم نعرف أين هي، وكيف خرجت، لكنَّ كل ماعرفناه، أن قوة خارقة أو قوة أكبر من قدراتنا البشرية قد خطفتها لذا قرر أبي أن يهجر بيته، لم نعد نستطيع البقاء هناك ونحن نتخيل خالتكِ كل حين ونرى أمي تبكيها كل عصر...

يا إلهي!!

صاحت إبنة الأخت بدهشة...

- إذاً هي ليست إسطورة حقاً!! فخالتي قد إختفت في الغابة...

نظرَ الخال إليها شزراً، إياكِ ثم اياكِ أن تقتربي من الغابة أو من منزل والدي، أنا أحذركِ...

ونهض منتفضاً من فوق كرسيه، ووضع يديه خلف ظهرِهِ وهو ينظر الى القمر مولياً ظهره لها وقال...

- هل أكتفيتِ من المعرفة الآن...

- ولكن، كيف تشرح ماجرى!! قوى فوق الطبيعة، إنتحار من قبل خالتي، هروب أبدي، أي لربما هي حية ترزق، ولكن ليس هنا إلتفتَ الخال إليها غاضباً...

- إنتحار!! هه...

- آخر إنسانة تفكر فيه كانت أختي الكبرى وهي تنبض بالحياة في سنواتها الثمانية عشر، كأجمل وأرق فتاة رأيت وأرى في حياتي كلها، مستحيل...

إذاً بم تفسرين الأمر هربت، ليست أختي من هذا النوع وأبد لمْ تكن لتفعل بنا ذلك رغم أن الناس حاكوا الأعاجيب حولها...

- إذاً ماذا ياخال قوى ما وراء الطبيعة...

نظرَ هنا عند كلماتها تلكَ وهي جاثية على الأرض نظرات لاهبة حزينة جزعه...

- أو تعلمين، إنَّ لكِ عينيها وبياض وجهها تذكرينني بها دوماً...

- أو لذلكَ كنتَ تفضلني على أختي الأثنتين؟؟

لربما ياعزيزتي لا أدري...

وتجهم وجههُ والتفتَ الى النافذة مرة أخرى...

- لطالما سألتُ نفسي أين ذهبتْ، وكيف، لكني كنتُ أتذكر شبحاً يمر أمام سريرها وأفزع منهُ فتضمني أختي بقوة وتبدأ بتكليمه بلغتهِ، أنا أذكر جيداً، لم يصدقني أحدٌ لكّني على يقين أنهُ هو الذي أخذها بعيداً...

تسمرت الكاتبة في مكانها عند تلكَ الكلمات المرعبة، ورانت لحظات صمت ثقيلة، لم يُنهها سوى صوت زوجةِ خالها وهي تدخل الغرفة لتجدهما واجمين...

- حسناً، هل أنتما بخير؟؟

قالت بريبه وهي تنظر إليهما فالتفتا إليها بوجهين مذهولين، كانت الكاتبة قد قررت مع نفسها أمراً وهي تحتسي الشاي مع خالها، أن تزور منزل جديها مهما كلفها الامر وتذرعت أمام الخال بحجج واهيه، أنَّ عليها أن تذهب لشراء مستلزمات لها من سوق القرية رغم أن خالها ألحّ عليها أن يذهب بنفسِهِ فاعترضت بحجة أنها لا تقبل بشئ إلا أذا أشترتهُ بنفسها، وأخيراً اختلتْ بنفسها وأخذت طريقاً يؤدي بها الى منزل جديها ورغم أنها لا تذكر المكان جيداً ً أن ذكريات طفولتها الأولى عادت لها وهي تسير بين الطرقات الجبلية المؤدية الى الوادي الأخضر حيث يقبع منزل الأشباح كما كانَ يسميه أطفال القرية، عندما كانوا يأخذونها ليلعبوا معهم، وهم لا يدركون ولا حتى هي كانت تدرك، أنَّهُ منزلُ جدها، إلا يوم أخذها أبوها إليه وهو يبكي وكأنهُ يزور قبراً أو ضريحاً وأخذ يطوف حولهُ، ويبكي، وتمتم بكلمات لم تسمعها إذ كانت طفلة.. كل تلكَ الذكريات عادت الى ذهنها وهي تقف أمام المنزل ببابِهِ الخشبية المتهرئه ونوافذِهِ الصدئه، ترددت للحظات قبل أن تخطو نحو عتبة الدار.. تقدمت والأخشاب تئز أسفل منها وتحت قدميها، كانت الباب مفتوحة فدلفت وجالت الطرف، لم يكن هناكَ أي أثاث، مجرَّد جدرانٍ

من خشبٍ قديم، تقدمتْ نحو الغرف، فتحت باب كل غرفة.. لا شيء، لا أثاث، لا صورة، مجرد أرضية وجدر، حتى فتحت باب إحدى الغرف، تفاجأت « ياربي »، كانت الغرفة كما هي، بسريرها، بمنضدة كتابتها، بصورها المعلقة على الجدران كما وصفتها أمها بالضبط لها، سرت قشعريرة في كل جسدها وتقدمت نحو السرير، كان مليئاً بالتراب لكنهُ كما هو بغطائِهِ ووسادتِهِ وبجوارِهِ درجها الصغير، فتحت الدرج، وجدت كتاباً يعلوهُ التراب، أخرجتهُ، نفضت ترابهُ، وفتحت غلافهُ، قلبت صفحاتِهِ بين أناملها، كانت مذكرات خالتها، وضعت أنفها بين الصفحات لتشمها، وكانت تلكَ عادتها في القراءة دوماً، أن تتنسَّم عبق الصفحات كلمّا قرأت، وقد قرأت إذ ذاكَ صفحة وجدت فيها (لا أدري، كيف أصف شعوري أهي الجنة أم النار، أهي السعادة أم العذاب، مالذي أقحمتُ نفسي فيه، أنا لا أستطيع أن أعيش يوماً دون أن أذهب الى..) وكانت الصفحة متآكلةً في نهايتها بفعل الزمن، وقلبت الصفحات، وجدت كلماتٍ قرأتها بلهفة، (لم أعد أستطيع الأحتمال، عذابي طالَ ستة أعوام، لا أحد يصدقني، لا أحد يمكنهُ أن يفهمني إلا هو)، قلبت الصفحة لتعرف من هو فوجدت فراغاً، أغلقت الكتاب ووضعتهُ فوق الدرج حيث علا الغبار فأبعدتهُ بيدها وأجالت طرفها في اللوحات المعلقة على الجدران كانت رسماً، رسماً بديعاً، حملتْ إحداها بين يديها وتأملتْ، كانت منظر شجرةٍ ضخمة، وخلفها غابة غنّاء، خفق قلبها بمشاعر مختلفة خليط من شوق ورهبة وحنين ورغبة للمعرفة لا حدود لها.. جلست على السرير مرة أخرى، ّوأخذت تحدث نفسها وهي تمرر أنامل يدها فوق غطائِهِ...

– خالتي هنا كنتِ تنامين، هنا كنتِ تحلمين، تمنيتُ لو عرفتكِ تمنيتُ لو ترينني...

وما أن قالت كلمتها الأخيرة، حتى هبت ريح فتحت شباك غرفة خالتها المهترئ على مصراعية، فجفلت، ملتفتة نحو النافذة...

– معقول أن يكون خيالي القصصي واقعاً، كل ما أضفيتهُ على قصة خالتي لا أدري.. قالت تكلم نفسها وهي تنظر عبر النافذة الى الغابة وهي تلوح من بعيد أمام الجبل، تنهدت...

– أين كراسة رسمكِ إذاً ياخالة؟؟

هبت نسمة ريح فتحت صفحات الكتاب وتحركتْ صفحاتٌ أخرى أسفل قدميها، نظرتْ الى الأسفل تحت المنضدةِ وجدت الكراسة، وبلهفة طفل أخذت تتصفحها باحثة عن رسم السوار الذي لطالما قصَّت حكايتهُ والدتها حتى أصبح حلماً واقعاً، أو قصة حقيقة، ووجدتهُ فأرتجفت أعضاء جسمها كلُّهُ وخفق قلبها بقوة، تأملت الرسم ملياً، كما وصفتهُ أمها بالضبط مرصَّعاًبالألماس...

- أنا خائفة الآن حقاً...

قالت تحدث نفسها بصوت عالٍ...

- عليّ أن أهرب، قالت ذلكَ وحملت الكراسة مع الكتاب تحت أبطيها إلتفتت نّحو الرسوم وقلبها يخفق برعب...

- تشجعي قليلاً أريد هذه الرسومات المذهلة،

رفعت الأوراق من فوق الجدر وهي ترتجف...

- لستُ أدري ياخالة، كيف كنتِ بتلك الشجاعة إنْ كانت قصتكِ حقيقة...

وهنا، وعند كلماتها تلكَ وهي تجمع رسومات خالتها تدحرج شئٌ على أرضية الغرفة، إلتفتت فزعة،كانَ شيئاً لامعاً، مدّت يدها، تلقَّفتهُ، وهنا صرخت ورمتهُ على الأرض مرة أخرى، كان السوار نفسهُ بلونهُ الفيروزي، وفصوصهُ الألماسية...

- ياربي...

وضعت الكراس والكتاب تحت أبطها الأيمن والرسومات تحت أبطها الأيسر ولاذت بالفرار وهي تغلق الباب خلفها على غرفة خالتها، ناظرة الى السوار الذي ظل على الأرض قرب السرير، ترددت لثانية وهي تغلق الباب...

- لكن لم لا أرتديه.. لا لا، كلا، مستحيل، لن ألبسهُ، وأستدارت هاربة...

خرجت من البيت، تنهدتْ وهي تتفس الصعداء، لكنها سرعان ما صرخت برعب وهي

تقف أمام منزل جدها.. كانَ السوار تحت قدميها...

- ياربي، هل أنا في حلم؟؟

مدت يدها نحوهُ وترددت فتركتهُ وأخذت تركض خائفة، حتى وصلت مفترق طرق بعيداً عن منزل جدّهَا، كانت السيارات تمر من هناكَ وأخذت تهزُّ بيدها لسيارة أجرة مرت أمامها، توقفت السيارة، كان الوقت عصراً قبيل الغروب وقد دبَ الخوف في أوصالها قال لها السائق...

- الى أين؟؟

فأعلمتهُ عن وجهتها أعلى الجبل هناكَ...

- ليس هناكَ طبعاً خلف الغابة...

قالَ السائق ساخراً فابتسمت شاكرة الله أنَّ هناكَ من أخرجها من حالة الرعب التي عاشتها، ركبت السيارة ووضعت الرسوم مع الكراس والكتاب فوق المقعد الخلفي بجوارها...

- حسناً أنتِ جديدة هنا...

قال السائق مبتدئاً الحديث، نظرت إليه عبر مرآة السائق الأمامية، كان يرتدي خوذة زرقاء ويضع نظارات سوداء على عينيه، لكنها إستطاعتْ أن ترى خلالها نظراتِهِ تجاهها، شعرت بالإنزعاج قليلاً، لكنها أوضحت لهُ أنها تريد الوصول بسرعة قال لها: لما وصلت الى بيت خالها...

- أنا مستعد للخدمة أن أردتِ أن اوصلكِ الى مكان ما...

قالَ ذلكَ وهو ينظر إليها عبر المرآة...

- حسناً قالت بإنزعاج وهي تنظر الى القمر بدراً في أولى لياليه البيض...

- لقد تأخرت حقاً في العودة، ليتكَ تأتي غداً عند الرابعة عصراً في نفس هذا المكان، أريد أن أذهب الى مكان معين...

– أنا بخدمتكِ قال مبتسماً بمَكر فأحسَّت بريبةٍ منهُ ونزلت مسرعة وهي قلقة على أطفالها وفي نفس الوقت كانت محرجة من خالها تذكرت فجأة فنقرت زجاج سيارتِهِ حيث يجلس، فتح النافذة الزجاجية نسيتَ أُجرتكَ إبتسمَ نفس أبتسامتهِ وقال لها...

– غداً سآتي لأخذ حسابي كاملاً...

– كلا ياسيدي أرجوكَ أنا أصرُ، رفعَ نظارتهُ عن عينه فأطلقت صرخةً صغيرة لأنها لم تر عينين كعينيه من قبل كانتا كسنان نار أزرق اللهب قال لها وهو ينظر مباشرة في عينيها...

– أذهبي لا أريد أجرةً الآن، تسمرت في مكانها ولم تستطع جواباً وألتفتَ هو مبتعداً بسيارتهِ بينما إستدارت هي عائدة الى منزل خالها وكأن فوق رأسها الطير والبدر يطلُّ عليها وقد شهد ما جرى معها، في اليوم التالي كذبتْ على خالها مجدداً، لتخرج في مهمتها متذرعةً بحّجة أنها تريد الذهاب الى مكتبة القرية العامة لمراجعة بعض المصادر من الكتب وخرجت قبل موعدها مع السائق الغريب لأنها شعرت بالرعب وفسَّرت الأمر لنفسها أنّهُ من فرط تعبها، وتأثرها بأحداث قصتها، بدأت تتخيل أشياء كتبتها في القصة من وحي خيالها وبدأت تهزّ بيدها على الشارع العام أمام منزل خالها فوقفت سيارة أجرة قالت للسائق أريد الذهاب الى الغابة الكبيرة في الجهة الأخرى من الجبل، نظرَ إليها السائق مرعوباً هل أنا مجنون لن أذهب ولو أعطيتيني كنوز الدنيا، ذُهلت لجوابِهِ، وإنتظرت سيارة أخرى أشرت لها بيدها فكان جوابهُ نفس جواب الأول، وقفت حائرةً وإنتظرت سيارة أخرى، فصاحَ بها لمَّا طلبت منهُ الذهاب الى الغابة:

– أنتِ مجنونة، وذهب مبتعداً، فشعرت بإنزعاجٍ شديد وأوقفت سيارة رابعة فقال لها السائق بعد أن أخبرتهُ...

– أعلم أني مجنونة، ولكني أريدُ الذهاب الى الغابة فهلا أخذتني هناكَ؟؟

– أنتِ لستِ مجنونة، لكنكِ لا تريدين أن تعيشي إنتحري في مكان آخر، أنا لديَّ أطفال، أرجوكِ أبتعدي...

وهربَ مبتعداً، وقفت الكاتبة متأثرةً بما جرى وقررتِ الرجوع لولا وقوف سيارة أجرة

ليطلَّ سائقها برأسهِ مكلماً إياها من خلف نظارتِهِ السوداء...

- هل تريدين توصيلة؟؟

رفعت رأسها بذهول وأخرجت يديها من جيبي سترتها السوداء...

- حقاً أريد وركبت معهُ متناسية خوفها...

- لقد جئتَ بوقتكَ ومنضبطاً بموعدكَ...

قالت بإرتياح وهي تنظر الى المناظر الجميلة عبر زجاج النافذة إلتفتت نحوهُ وكان واجماً لايتكلم:-

- لماذا يخاف السائقون الذهاب الى الغابة هنا خوفاً شديداً...

لم يجبها، شعرت بحزن وقالت لهُ...

- لم لا تتكلم...

لم يجب فالتفتت نحو نافذتها بإنزعاج لأنها رأت نظراتِهِ لها عبر المرآة وهي تكلمهُ، فلم يجبها.. تحوَّل الطريق فجأة إلى منعطفٍ حولهُ الأشجار والمناظر الطبيعية الخلابه، بعيداً عن المنازل والدور، شعرت ببهجةٍ في سريرتها وتبسَّمت وهي تنظر الزهور على قارعة الطريق على طول الدرب، تنشر السعادة دون مقابل، لكنَّ بسمتها سرعان ماذبلت وهي ترى الشمس تكاد تغيب...

- لما الطريق طويل هكذا؟؟

لم يجب، بكلمة، فصاحت بغضب...

- أن كنت تأخذني الى مكان آخر فأنزلني الآن، من أنتَ، لم لا تتكلم؟؟

حاولت فتح الباب، لكنها كانت مغلقة...

- لقد وصلنا لا تجزعي...

قالَ بحزم وكانت أشعة الشمس حمراء في الأفق، حيثُ وصلت السيارة الى حقل واسع يمتد على طول البصر وفي نهايتِهِ كانت الغابة تلوح من بعيد، تنفست الصعداء...

– حسناً أنا أعتذرُ، لكنكَ لا تكلمني...

– لأنكِ لم تريدي أن أوصلكِ قال لها رافعاً نظارتهُ والشمس على وشك المغيب فخفق قلبها خوفاً...

– رباه، أُنسٌ أم جان كلاهما ردَ عليها مبتسماً بمكر وهو يمد يدهُ الفاقعة ليعطيها سوار خالتها الماسي...

– عليكِ إرتداؤه قبل دخول الغابة.. خفق قلبها بقوة وهي تتناول السوار من بين يدهِ بكلتي يديها...

– ككك.. كيف عرفت به؟؟ من أين جلبتهُ؟؟

غمز لها بعينه اليسرى مبتسماً...

– لكني أنا من وضعهُ تحت قدميكِ عندما كنتِ في منزل جدي!!

– ماذا قالت مذعورة، جدكَ، كيف؟؟

– فكري قليلاً...

قال لها باسماً...

– معقول، صاحت بدهشة...

– نعم معقول!! أنا ابنها ياقريبتي الغالية، لا أعيش مع البشر، لكني أستطيع الظهور معهم أوْ لهم، ولقد كنتُ هناك بجواركِ في غرفة أمي، لمّا أخرجتِ كتابها...

– قفزت الدموع من عينيها...

– هل يعلم خالي بكَ؟؟

ضحك مبرزاً أسنانهُ الصفراء...

– طبعاً، يعلم، أنا أزورهُ دوماً...

– خالتي، ماذا عنها!!

– قالت وهي تبكي...

– لا تبكِ ياعزيزتي، سوف ترينها، لقد وصلنا...

– لكنهُ الغروب، قالت وهي تنزل من السيارة...

–نظرت الى البدر في السماء.. نزل السائق بعدها فكان أطول مما بدا عليه وهو جالس...

– أليس الغروب هو المطلوب؟! تعالي معي لا تخافي، ضعي السوار...

نظرت إليه وهي تسير بعدهُ محافظة على مسافة بينهما خوفاً ورهبةً، منهُ دخلا الغابة بعد أن إنفرجت الأغصان لهما، فقالت بدهشة مثل قصتي، مثلما تخيلت تماماً إلتفتَ إليها...

– وهل تظنينهُ خيالكِ؟؟ قال باسماً ففهمت وسألتهُ...

– أذا كنتَ أنتَ...

– أريد أن تحيا أمي بين البشر، لأنها ضحَّت بكل شئ لأجل حبّها وتركت حياتها معهم لأجلهِ...

والتفتَ إليها مجدداً وهما يسيران...

– أو تظنين أنها لا تستحق إرثاً بشرياً؟؟

فقالت بخشوع...

– كلا، أنها تستحق المزيد، أنا أحبها رغم أني لم أراها...

– آه، إنَّهُ النهر!!

قالت بدهشة، وهي تتقدم نحو النهر الذي يخترق الغابة...

– هنا جلسا في قصتي، نفس خيالي!! ما أروع شعور الأنسان وهو يرى خيالهُ واقعاً، أنا شاكرة لكَ...

جلست على الصخرة ودفعتْ بقدميها في مياه النهر، لقد حل الظلام، لكنها غابة جميلة فعلاً...

قالت وهي تجيل الطرف فيما حولها، التمعَ سوارها فجأة، نظرت إليه وإلتفتت نحو قريبها، فلم تجد أحداً!! شعرت بالخوف، لكنَّ ظهور فتاة جميلة تصغرها سناً، جعلها تصابُ بالدهشة أكثر من الخوف.. إقتربتْ منها بعد أن ظهرت من خلف الأغصان، كانت جميلة حقاً كما وصفها خالها.. وقفتْ منتصبة أمامها وهي تتقدم نحوها بثوب بنفسجي مذهل، كان قلبها يخفق سعادة وذهولًا، ومفاجأة، إقتربت ذاتَ الأعوام الثمانية عشر منها...

– كيف أنتِ ياعزيزتي...

تأملت وجهها في ضوء القمر، كانَ اكثر من جميل لم تستطع ان تعبر عنهُ وصفا في سريرتها، مدت ذراعيها...

– تعالي الى حضن خالتكِ.. فإرتمت في حضنها وبكيتا، رفعت رأسها لترى الدموع تتلألأ على خدي خالتها...

– أنا فعلاً بين ذراعيكِ ياخالة...

– نعم، حبيبتي، لكنْ ألا يمكن أن تأتي معي لتري خالي، إنهُ مشتاقٌ لكِ...

– أو تعلمين أذا خطوت خطوةً خارج الغابة ما سأكون عجوزاً شمطاء، ولن يعرفني خالكِ أو لربما أموت...

– وهل أنتِ هنا تحيين أبداً، قالت إبنة الأخت بفضول...

– ومن لا يموت سوى الخالق، كلا سأموت يوماً، ولكن ليس الآن، أنا أخضع لقوانين

مملكة الجن إلا أني إنسية، تعالي لأريكِ قصري وأعرفكِ الى زوجي...

- لكن خالتي أنا لا أستطيع أن أتأخر على خالي سيقلق!!

- كما تشائين، لكنْ عديني أن تأتي لزيارتي يوماً، ولا تنسي وضع سواري على معصمكِ، إنهُ هديتي لكِ...

- خالتي ماذا عن رسومكِ وكراسكِ وكتابكِ؟؟ إبتسمت الخالة وقالت...

- أنها أرثي لكِ، لكن ماذا عن جدي، لِمَ لمْ تخبريهم...

تساءلت إبنة الأخت بذهول، ضحكت الخالة وأخذت بيدها وهي تمشي بثوبها الملكي، ليظهر قصرها البلوري من خلف الأغصان...

- تعلمتُ لغة الطيور والكائنات وأبلغتُ الطير أن تحمل سلامي لوالدتي وأبي، لا تخافي، لقد علِمَتْ أمي أني سعيدة، أفهمتُها الأمرَ بطريقتي، لكنّي حُرِمْتُ رؤيتها، ورؤية عائلتي، لم يكن ممكناً أن أعود، أو لا تريدين نهاية لقصتكِ، دعيني أحكيها لكِ...

كانتا تسيران جنباً الى جنب عندما وصلتا القصر، فانحنى لهما الخدم ودلفتا، أجالت الكاتبة طرفها في أنحاء القصر...

- لا سقف هناكَ، لا نهاية قالت بدهشة وهي تلتفت لخالتها فتبسمت لها وأصبحا أمام شجرة وارفة مليئةٍ بالثمار، فجأة رأت القريبة إبن خالتها جالساً على غصن وهو يشير إليها بثمرة...

- هل أبلغتَ خالكَ قالت الأم بنبرة آمرة...

- أجل ياسيادة الملكة...

رد ساخراً وفجأة أصبح بينها وبين إبنة أختها...

- ما رأيكِ بهذه الفاكهة إنها لكِ يا ابنة الخالة.. قال ضاحكاً...

– كف عن المزاح...

قالت الأم والتفتت نحو ابنة أختها...

– أنتِ جائعة...

وما أن قالت ذلكَ حتى امتدت أمامهما مائدة مليئة بأصناف الطعام...

– أين والدكَ؟؟ قالت الأم وهي تجلس عند رأس المائدة، وأشارت لأبنة أختها أن تجلس بجوارها فقال ولدها ممسكاً بمقعدها...

– تفضلي ياضيفتنا الغالية.. جلست حيث قيل لها فدفع القريب كرسيَّها نحو المائدة وكانت مليئة بألذ الطعام وأشهاهُ، أكلت حتى شبعت ثم قامت نحو غرفة خصَّصتها الخالة لها وفوق السرير إستلقت بإرتياح، بينما جلست الخالة بقربها، كان الفراش مغطى بالحرير الأبيض ووسائده أيضاً، وضعت الخالة أناملها فوق جبين إبنة أختها...

– أشكركِ من كل قلبي لأنكِ تهتمين لأمري...

إلتفتت إبنة الأخت نحوها...

– أنا التي يجب أن أشكركِ، فأنتِ أرسلتِ بطلبي كي تقصي علي قصتكِ، ليس بدون رغبتكِ أنتِ، رغبتكِ في معرفة تفاصيل حياتي شئ أشكركِ عليه...

– لكن لم لم يأتِ زوجكِ ياخالة...

– إنهُ لا يريد أزعاجكِ، سليني الآن عما تريدين...

– خالتي إذاً فقد أخترتهِ وتركتِ أهلكِ...

أدمعت عينا خالتها وردت قائلة...

– وهل كان بوسعي أن أختار، لقد كان قدري...

– حدثيني عنهم هل هم مرعبون حقاً، أعني بسم الله، هؤلاء ياربي، أخاف أن أنطق

أسمهم...

– حبيبتي لا يحق لي أن أقول لكِ شيئاً عنهم وإنَّ وجودكِ هنا هو بطلب منّي وإلاّ فأنّهُ غير مسموحٍ على الأطلاق، كلُّ ما أستطيع أن أقولهُ لكِ قبل أن تنامي، أنني حدثتُ الطير أنْ تذهب الى أمي لماَ سمحوا الي بإرسال رسالة لأهلي، كي لا يظنوا أنني مّتُ ولا أدري في زمن البشر، كانت مدة السماح بعد كم عام من رحيلي فذهبت العصافير والطيور بعد أن أعلمتهم كيف يفهمون أمي، أني حيةٌ أرزق، وكانَ قلمي معي عندما جاءني وكنتُ أرسم ودموعي على خدّي وخيرني، أن أرحل معهُ، أو أن أبقى في عالمي ولا أراهُ أبداً فاخترتهُ، حملت العصفورة قلمي وخلفها الطير لتشهد عليها وكانت أمي تبكيني في بيتها الجديد بعد أن هجرت بيتها القديم حيث ذهبتُ، رفعت رأسها للسماء وقالت أريد أشارة أعرف بها أنها حية وسعيدة فرمى العصفور القلم على رأسها وحولهُ كتبت لها ورقة أنني بخير ياأمي وأني مع من أخترتهُ وأني سعيدة، وقصت عليَّ الطير حال أمي وهي تبكي فرحاً وتشكر ربها فبكيتُ وسجدتُ على الأرض شكراً لله نامي الآن ياحبيبتي أنتِ نعسة ومتعبة، غداً إنشاء ربنا، سأريكِ الغابة الجميلة وسأدعكِ تتجولين فيها قبل أن تعودي، لأن لديكِ قصة تكتبينها.. قرب الأشجار والغاب ونسمات الهواء تداعب وجنتييكِ...

أرجوكِ، لاتيأسي يا أنا

كانَ لابد لي أن ابكي، وأن أبلل الوسادة بدموع عيني كل ليلة حزناً على أهلي كنتُ مدللة والدي وإبنتهُ الوحيدة ولم يكن لي سوى أخ أوحد ذهبَ معهما الى الجنة، إني على يقين وإلاّ فحادثة مروعة كتلكَ القذيفة التي سقطت على منزل والدي دون سابق إنذار وقت دخول القوات الأميركية الى بلادي التي يسمونها بلاد الرافدين، وياليتها كانت مبتورة الرافدين أو مبتورة الثروات كي لاتبتر أعضاء أبنائها، ليس لعلة في بلدي بل بسبب طمع الطامعين من بلاد المستعمرين، كنتُ ألعب في منزل الجيران مع صديقة الطفولة لمّا سمعنا صوت تلكَ القذيفة وتجمعنا في وجوم وذعر وتعالت أصوات الصراخ وتناثر طابوق جدران سطح منزل والدي فوق أسطح الجيران، رحماكَ يارب فوهة قذيفة مساحتها الدائرية أكثر من متر ونصف تقريباً، لماذا منزل والدي بالتحديد؟؟ خطأ تقني أقترفتهُ القوات الأميركية أثناء دخولها للعراق لإسقاط النظام، ولربما لم يكونوا يعلمون؟؟ إعتادت والدتي أن تصلي بمئزر الصلاة فوق السطح ولعلهّم لمّا كانوا يشنون حملاتهم الإستطلاعية بطائراتهم الحربية قد التقطوا لها صورة وظنوا أنها أرهابية، ذلكَ كانَ أقصى تحليل منطقي يمكن أن نفهمهُ، وأكثر مايمكن أن يكون قريباً للواقع حسب تحليل زوج خالتي الذي أخذني في كنفهِ بعد وفاة والدي وأخي، لم تعد لي أسرة، لم يعد لي أحد.. ياليتني كنتُ مع أسرتي لأموت معها، بدل الحياة معذبةً وحيدةً، ذليلةً لكلمات زوج خالتي وتقريعهِ المستمّر لي وتعييرهِ إياها كونهُ قد أخذني الى منزلهِ وآواني، كم تمنيتُ أن أفتح الباب سراً في الليل وأنطلق بعيداً وأهرب، ولكن الى أين؟؟

«رحماكَ يارب كم دعوتكَ في سجودي وأنا أبكي، لمَ أنا دون كل العالمين» كانت تلكَ كلماتي وأنا صغيرة، «لكنني منيتُ نفسي بحبكَ ياألهي وتعويضكَ لي عن كل عذابات السنين يوماً ما»، شعرتُ دوما بتميزي عند ربي لأنهُ قد جعلني أتعذب في حياتي فكنتُ أطلب منهُ سراً بعض

الأمور وأتحدى نفسي أن تتحقق فأراها بعد حين، وكلما دعوتُ في طفولتي تلكَ دعوة من قلبي وجدتها أمامي حاضرة إلا حضن أسرة تحبني وتريدني، لم تكن خالتي تهتم بي كثيراً فعلاقتها بوالدتي ما كانت بتلكَ القوة والترابط، لكنها قد أضطرت الى إيوائي وأضطرتُ الى تحمل كلمات زوجها وشتائمِهِ لأهلها بسببي، كنتُ أشفق عليها وأكرهها في آن لما تسبني، وتقول لزوجها أن الأمر ليس بيدها وأنَّ الزمن قد أرسلني إليها كعقاب، وهي لاتدري ما أقترفت من ذنب؟؟

مجرد عالة أنا، مجرد لاشيء.. أذهب الى المدرسة صباحاً لأعود مثقلة بالحزن والآلام، لم أكن أحبُ العودة الى المنزل ولطالما تمنيتُ أن اهرب، أنْ لا أعود.. كانَ لخالتي ولدان توأمان وبنت بعمري تغار من تفوقي في الدروس، وتحاول إيذائي بشتى الطرق وتكذب أمام خالتي كي أعاقب بدلاً عنها، ورغم جمالها الآخاذ كانت تغار من شكلي وتتعمد أن تناديني بالدميمة حتى ظننتُ أني دميمة فعلاً عيناها الخضراوان وشعرها الأشقر الجميل كانوا جميعاً متعة لناظري صباحاً وأنا أبصرها تمارس غنجها ودلالها على خالتي بينما تسرح لها شعرها أمام المرآة، أما أنا فعلي التواجد في المطبخ لأحضر فطور التوأمين اللذين يكبرانني بخمسة أعوام، كانا في الثانوية وأنا في الأبتدائية، في السّر كنتُ أراقب ابنة خالتي وأطلق تنهيدة حسرة على ذلكَ الحضن وتلكَ القبلات التي تنالها هي، بينما لا أنال أنا سوى: أسرعي، هيا، صبي الشاي، أغسلي الصحون، تأخرتِ ياكسولة، ستذهب ابنة خالتكِ قبلكِ الى الدوام، كلمات أسمعها يومياً من خالتي وابنها الذي يشبه أختهُ في لون شعرهِ وعينيه، وفي خبث سريرتهِ، لم يكن أحد يشعرني أني مظلومةٌ مسكينةٌ أستحق الرثاء والعطف، سوى عيني التوأم الثاني ذاكَ الذي كانَ صامتاً دوماً وينظر بشفقة إلي بينما أنال التقريع والإستحقار، كنتُ أشعر بنظراتهُ الحنونة تجاهي وهو ينظرني بعينيه البنيتين فأعزي نفسي أنَ هناكَ شخصاً في هذه الدنيا يشعر بي وبمعاناتي ولقد قامَ يوماً في سكون بدفعي عن مغسلة الصحون وهمس بسرعة لي، إذهبي سأغسلها أنا، أمي في غرفتها مشغولة أسرعي هيا ستتأخرين عن دوامكِ، نظرتُ إليه غير مصدقة وبينما حاولت أن أشكرهُ دفعني بسرعة نحو غرفتي التي كانت مجرد غرفة للفرش الزائدة عن حاجة المنزل، جعلت لي خالتي في نهايتها سريراً متفضلة علي به، وكانت الغرفة في الطابق العلوي قرب سطح المنزل باردة جداً في

الشتاء، حارة جداً في الصيف، كانَ عمري عشر سنين عندما حل بي ذاكَ الحادث الأليم وبعدهُ تحملت حزن الآف السنين كبرت رويداً رويداً مع الآلام والأحزان، وتعلقتُ بمدرستي لأن فيها خلاصي ومتنفسي من منزل خالتي أكنسي، أكوي، هيا تعالي صبي الغداء أين حذائي، أين قميصي، لماذا لم تغسلي ثوبي أيتها المهملة الكسولة، إمسحي، رتبي، أطبخي...

أوامر، أوامر كل يوم وعمل، عمل لا ينتهي، بل يتكرر كل يوم، كنتُ أستغل ساعات الليل لما يهجع الجميع للنوم لأقرأ دروسي، ولما أبدأ استذكار دروسي أجد نفسي قد غفوت فوق كتبي من شدة التعب، تعرضتُ لتوبيخ مدرساتي في مرحلة الثانوية لأن الدروس أصبحت أكثر صعوبة وكانَ علي أن أركز أكثر واقرأ لساعات أطول ولكن، كيف بي وخالتي قد تركت مهمة الطبخ على عاتقي، وكذلكَ كل مهام المنزل وجلستْ هي كالأميرات تأمر وتنهى خادمتها الوحيدة التي كنتها أنا ووحدي أنا العالة، أنا يتيمة الزمن، وضحيتهُ في آن، دخل التوأمان الجامعة في ذلكَ الحين لما كنتُ في الاعدادية، ذينك التوأمان لم يكونا متماثلين لا في لون العينين ولا الشعر ولا في الصفات أللّهم إلا بملامح وجهيهما المتشابهين جداً، التوأم الأشقر إعتادَ سبي وضربي لمّا كنتُ صغيرة ولا أحد يدافع عني إلا عندما يراهُ توأمهُ فيوبخهُ ويبعدهُ، كانَ ذلكَ لما كنتُ في الابتدائية، فعلى أبسط موقف إن تأخرتُ في إعطائهُ قميصِهِ يقوم بشدّي من شعري أو قرصي بقوة من أذني وخالتي لا تفعل شيئاً سوى زمَّ شفتيها وتقريعي بعدَ ذلك، لأنني لم أسمع كلام ابنها أو لم أنفذ أوامرهُ مباشرة وأخذت درجاتي تتدنى في الأعدادية فوشت بي يوماً ابنة خالتي ضاحكةً هازئة وهي تخبر أمها وأباها وأخويها التوأم...

- أماه أنها بدون نفع، كسولة لا تحب المدرسة، لقد حصلت على درجة رسوب اليوم في الرياضيات، ههه، أنظروا إليها، لا فائدة منكِ...

وأطلقت ضحكة ساخرة عقبّت عليها خالتي بكل برود وهي تشرب الشاي الذي صببتهُ لها قبل قليل ناظرةً إلي من طرف عينيها...

- عليكِ التفكير جيداً في أنني أصرفُ عليكِ من نقودي الخاصة التي أدخرها من مصروف عمكِ دون علمِهِ لأنهُ لا يرضى أن يصرف على دراستكِ، وأنتِ تعلمين كم جاهدتُ عمكِ كي

لاتتركي الدراسة إحذري فأنا لن أجاهدهُ طويلاً إن رسبتِ في أمتحان آخر.. وقفتُ أنظرها ودموعي تنهمر دون وعي مني بينما يتضاحك التوأم الأشقر مع أختهِ الجميلة: أنا، أنا الدميمة، أنا التي كنتُ أمشط شعري الأسود الطويل حتى أسفل جذعي أمام المرآة المحطمة في غرفة العلية فأرى نفسي مقسومة الى شقين كتلكَ المرآة، فتاةً في مقتبل العمر ليسَ لها مستقبل مهددة بترك الدراسة والعيش كخادمة مدى العمر، ولربما تنحرني خالتي كذبيحة وتقدمني طبقا سائغا لابنها الأشقر كي ترضيه، ذاكَ أنهُ بدأ ينظر إلي بشكل غريب ويسمعني كلمات يقشعر لها بدني ويقرصني من ذراعي على غفلة من الآخرين بينما أرتعد خوفاً منهُ وأخشى الكلام، في تلكَ الليلة التي هزأت ابنة خالتي فيها مني وسالت دموعي على وجنتي وأنا واقفة أمامها بصمت صعدتُ إلى غرفتي بعد أن نامَ الجميع، دلفتُ غرفتي وألتفتُ الى مرآتي المشطورة نصفين، أنظر وجهي الدميم الأبيض الشاحب المستدير الشكل، بينما عيناي الزرقاوتان مغرورقتين بالدموع...

نعم، أنتِ قبيحة، أنتِ بشعة، أنتِ عالة على الحياة، كانَ يجب أن تموتي لماذا بقيتي حية لتتعذبي؟؟

سقطتُ على الأرض متكورة على نفسي كهرة حمقاء تقف لوحدها في وسط الصقيع كانت غرفتي باردة جداً دونما تدفئة لأنَّ خالتي تردّد دوماً وبحزم:

-الغرفة دافئةٌ بفعل الفرش الكثيرة فوق الأسرة، لاتحتاجين مدفأة أبداً ليسَ لدينا من النفط مايكفي إلاّ مدفأتنا في الطابق السفلي حيث نجلس ليسَ لديّ مزاج لأتحمل تقريع عمكِ لي بسببكِ فقد تحملتُ مايكفي طوال تلكَ السنين؟! تمنيتُ أن أموت، صرختُ في قلبي وناديتُ ربي بكل إخلاص: أمتني يااااارب أرجوكَ، أمتني، وبينما أنا أنادي في سري سمعتُ طرقاً خفيفاً على باب غرفتي.. خفقَ قلبي رعباً، قفزتْ الى مخيلتي صورة ابن خالتي، قررتُ أن لا أفتح الباب مهما كانَ ولتطردْني خالتي، ولْيفتري علي إبنها مايشاء، «أنا لن أفرط في شرفي»...

هتفت في سري بحزم تكررت النقرات عدة مرات وبصوت خفيض ولم تتوقف أبداً بينما أنفاسي تتسارع أكثر وأكثر قررتُ الذهاب خلف الباب وهمست بصوت مرتجف...

– من ماذا تريد، إنهُ أنا لا تخافي...

لم أصدق أني أسمع صوتهُ.. كانَ التوأم الطيب الحنون، ذاكَ الذي لم يهزأ بي يوماً، والذي كانَ يحاول مساعدتي دوماً ما أن تسنح لهُ الفرصة ولم يطلب مني يوماً غسل ثِيابهِ أو كيَّها مطلقا، بل كانَ يقوم بذلكَ بنفسِهِ ولا يقبلُ أن تعترض خالتي عليه...

– ماذا هناكَ قلتُ بصوت قلق...

– لا تخافي أفتحي الباب...

– فتحتُ الباب بوجل وتركتُ مسافة قليلة لا تسمح لهُ بالدخول منها، نظرَ إلي بسرعة وأطرق بعينيه مباشرة بعدها وهو يقول بإرتباك...

– جئتُ لأساعدك في درسكِ الذي رسبتِ فيه، لو كنتِ تحتاجين حل المسائل الرياضية فأنا في خدمتكِ...

قالَ ذلكَ ورفعَ رأسهُ ينظرني بعينيه اللوزيتين بصدق وحنان، شعرتُ بدفء غريب يسري في عروقي « رحماكَ يااارب »، هتفت في سري سألتهُ...

– حسناً، أين ستذاكر لي دروس الرياضيات؟؟

قلتُ بإرتباك وأنا أشير بعينَّي إلى أنهُ من المستحيل لي أن أدعهُ يدخل غرفتي في تلكَ الساعة المتأخرة من الليل، فَهِمَ نظراتي وأشار بيدِهِ نحو السلَّم...

– هنا لنجلس على هذه الدرجات، لن يلاحظنا أحد، وليكن هذا مكاننا السري بعيداً عن أختي، وهمس غامزاً وأكملَ...

– الطيبة) قال كلمتهُ الأخيرة هازئاً فابتسمتُ بسرعة دون أرادة مني، أسرعتُ باستخراج كتبي وهرعتُ نحو السلَّم غير مصدقةٍ أنني سأنجح في الرياضيات مرة أخرى وأنني قد وجدتُ من يساعدني في حلَّ المسائل سواء في الفيزياء أو الكيمياء أو الرياضيات فهو قد دخلَ كلية الهندسة الألكترونية، وكانَ مجتهداً في تلكَ المواد العلمية، هذا الشخص الطيب ولأول مرة، قد

صبغَ حياتي التعيسة بلون السعادة، كانَ كوميض في وسط ليل حالك، تعلقتُ به لأرى طريقي، كانَ كمصباح برج المنارة تستنير به سفينتي التائهة في لجة بحر هائج مجنون، وإعتدتُ مساعدتهُ لي في الدراسة وبقينا على ذلكَ الحال سنوات الأعدادية الثلاث، أنتظرهُ على السلم فيأتي مطرقاً خجلاً لا يرفع عينيه أبداً عندما يدرسني وذلكَ ما كان يعطيني جرأة على سؤالِهِ عن كلَّ مسألةٍ لا أفهمها، كما يعطيني سعادة فائقة لأني شعرتُ دوماً أنَ هناكَ من يخشى علي ويهتم بي رغم كل شيء، ولعل آخر ساعات عملي وإنتظار نوم خالتي وهجوع أفراد أسرتها للنوم، كانت أجمل سويعات عمري، فهو لمّا يذاكر لي دروسي ويساعدني بها، يهجرني النوم رغم التعب، لأنني أخجل من النوم أمامهُ ولمّا كان يساعدني في حل المسائل الرياضية، كانت مشاعر خفية تدغدغ قلبي، لأنني كنتُ أفتخر بحل المسائل أمام مدرستي وأشعر بنشوة النصر على ابنة خالتي التي تجد حلها خاطئاً أغلب الأوقات، قالَ لي يوماً بعد أن أنهينا حل المسائل، وكنتُ أهم بالنهوض من فوق أعلى درجات السلم حيث كنا نجلس...

- قولي لي...

- ماذا؟؟

قلتُ بإرتباك...

- ماذا تتمنين أن تدخلي...أنتِ في السادس العلمي الآن، هل لي الحق في أن أسألكِ ياترى؟!

رفعتُ نظراتي إليه، فتأوه بصوت خافت، وقالَ:

-رحماكَ يارب!!

- ماذا هناكَ شعرتُ بالرعب لأنهُ أشاحَ بنظراتهِ عنّي وتأوه بألم، قلتُ في سري بحزن، هل أنتِ بشعة الى هذا الحد!؟

- أنا، أنا لا أعرف كيف أتكلم أمام هاتين العينين، أنا أظلُ في حيرةٍ من أمري!!

- لماذا هل، هل أنا بشعة الى هذا الحد؟؟

هتفتُ بصوت مسموع وأنا أتألم بصمت إلتفتَ إلي بسرعة مذهولاً، أمسكَ يدي للمرة الاولى في حياتي، نظرَ مباشرة في عينَّي...

- ماذا تقولين، هل أنتِ جادة في كلامك...

أنتِ، أنتِ أجمل فتاة رأتها عيناي، لم أرى بمثل جمالكِ وأنا أرى فتيات الجامعة جميعهنّ، لايعادلنْ ذرة أمام جمال عينيكِ فقط، عيناكِ لا أعرف، هل هما زرقاوتان كالبحر، أم أنهما الليل نفسهُ تتماوج الألوان فيهما كأمواج.. البحر أنا، أنا في حيرة من أمري ولا أعرفُ كيف، أو ماذا أقول...

هل، هل تقبلين أن، أن، نظرَ إلي بنظرات ملؤها الحب والحنان...

- من هناكَ؟... صرخَ صوتٌ من أسفل السلم، كانت إبنة خالتي التي وجدتها بجوارنا فجأة تنظر إلينا شزراً كيف ومتى عرفتْ، لغزٌ لم أستطع حلهُ...

- الآن عرفتُ سبب تفوقكِ في الدروس العلمية، سأخبر والدتي ياأخي الغالي، أو ليسَ من العيب أن تجلس مع فتاة على السلم في ساعات الليل المتاخرة ونحن نيام؟؟

- أخبري من شئتِ، أنا لا أقوم بشيء خاطئ ولو شئتِ يمكنكِ الأنضمام إلينا ثمَ إنها إبنة خالتي وبمثابة، بمثابة (ونظرَ إلَّي بألم وحزن) أختٍ لي، تصبحين على خير، سأذهب للنوم الآن...

هتفَ بإمتعاض وهو يشدُّ على قبضتيه بغضب خفي لحظتهُ بين قسمات وجههُ وفي عينيه اللوزيتين الحانيتين، ومنذُ ذلكَ الموقف، لم نعد ندرس سوياً، لم يعد يأتي ليّدرسني أو ليحلَّ لي المسائل، إنتظرتهُ فوق السلم ليلة وليلتين ولكن عبثاً، كانت إبنة خالتي تنظر إلي بغضب كلمّا ذهبنا سوية الى المدرسة ولقد شعرتُ أنها قد تعرضت للتقريع أو التهديد بحيث أنها لم تكلمني أبداً ولم تعلَّق على ذلكَ الموقف مطلقاً، عندما أُعلنت نتيجة الوزاري في السادس العلمي، كانَ معدلي جيداً بحيث أنَّهُ أهلنّي لدخول كلية الهندسة، أما إبنة خالتي فلم تتوفق في نتيجتها وأجلَّت السادس لتعيد دراستهُ علهَّا تحرز معدلاً أعلى، ضربت خالتي قبضتها على طاولة الطعام وقالت

بغضب...

– ماذا!! جامعة وفي بغداد أيضاً؟؟ من الذي سيتكفل بمصروفكِ من سيعطيكِ نقوداً ونحن بالكاد نستطيع أن نوفر مصاريف التوأمين في الكلية، أنتِ مجنونة بلا شك...

– خالتي!!

هتفتُ بألم...

– سأعمل وأجمع مصروف وتكلفة السنة الأولى، لا تحملي هماً أرجوكِ...

رفعتْ نظراتها الغاضبة نحوي...

– مطلقاً أنتهى النقاش، لن تذهبي الى الجامعة، وعليكِ أن تكوني شاكرة لي كوني قد أوصلتكِ الى هذه المرحلة بدون معاونة مادية من أي أقرباء لكِ، فلا عم سألَ عنكِ يوماً، ولا عمة، وكأنهم قد تخلصوا منكِ، فأينَ العدالة في هذا؟؟

– أرجوكِ، خالتي لا تحرميني من رغبتي الوحيدة في هذه الدنيا، أن أكمل دراستي!!

قلت بألم وأنا أبكي، تركتُ غرفة المعيشة وهرعتُ نحو السلمَ صعدتُ بسرعة والغضب يسيطر علي تعثرت رفعتُ رأسي فإذا بي أبصر ابنَ خالتي الأشقر وهو ينظر إلي نظرات شريرة، كانَ السلم أسفل مني وهو يحول بيني وبين دخول غرفتي...

– الى أين ياجميلة؟؟

– أرجوكَ دعني أمر...

قلتُ ذلكَ بغضب وأنا أحاول المرور بجوارهُ، لكنهُ أمسكَ بي وشدني نحوهُ، فصحتُ بصوت عال...

– أتركني دعني الآن ماذا تريد؟؟

– ماذا أريد، هه، أنتِ تعلمين ما أريد، لاتصرخي فأنا سأتقّول الأقاويل عليكِ لأمي، أما إن

أصبحتِ مطيعة، فلسوف أقنع والدتي كي تدعكِ تكملين دراستكِ.. همسَ في أذني وهو يشدُ ذراعي نحوهُ بقوة فانتفضتُ وضربتهُ على وجههِ بيدي...

- إبتعد عني...

صحتُ بألم، ولم أدري من أينَ ظهرَ ذلكَ التوأم الطيب ممسكاً بأخيه ليعطيه لكمةً على معدتِهِ سقطَ بأثرها على أرضية الطابق العلوي حيث وقفتُ بجوار باب غرفتي...

- هل أنتِ بخير؟؟

هتفَ بقلق، تمتمتُ وأنا لا أزالُ في حالة صدمة...

- نعم، نعم أنا بخير...

- إسمع أنتَ توأمي ودمي ولحمي، وأنا أحبكَ، ولكنْ إحذر أن تلمس شعرة من إبنة خالتي لأنها ستكون، ونظرَ إلي بحنو وتابع.. إن وافقت هي، ستكون، ستكون زوجتي وشريكة عمري القادم، لأنني أحبها...

- رفعَ التوأم رأسهُ وهو يضع يدهُ فوق معدتهُ متأوها...

- حسناً، حسناً لايهم، إفعل ماتشاء أنتَ وحبيبتكَ الى النار إنشاء الله...

هبطَ السلم على مهل وهو يتكئ على مسندِهِ ببطء متأوها، نظرتُ الى ذلكَ (البطل)، لم أعد أدري كيف أجيبُ أو ماذا أفعل، لكنهُ قطع علي صمتي بقولهُ لي...

- هل هل أجدُ موافقةً منكِ أم رفضاً...

تمتمتُ بصوت خفيض وكأنني أحدث نفسي...

- أخشى عليكَ من خالتي، من عدم موافقة أهلكَ، أنا أخشى عليكَ...

- فقط أخبريني هل أنتِ موافقة على هذا المخلوق؟؟

أطرقتُ بخجل، هززتُ رأسي دلالة الموافقة، ورغم كلَ شيء تزوجنا سريعاً، رغم إمتعاض

خالتي من الأمر وعدم ترحيبها به، أكملتُ دراستي بمساعدتِهِ وسكنتُ معهُ في غرفتِهِ سنوات دراستنا في الكلية وكانَ يعمل في العطل وقتاً إضافياً ليحصل على نقود تكفيني وإياهُ كلَّ سنةٍ دراسية، وبعدَ انتهاء الكلية رزقتُ بإبنةٍ جميلةٍ تشبههُ وولدٍ يشبهني، لم تطل سنوات إقامتنا مع خالتي لأننا قررنا الأستقلال وإستئجار شقة صغيرة تكون عشاً صغيراً لنا، فلقد حصلنا على عملٍ بعد سنتين من التخرج، وقد عملنا سوية في شركةٍ أهلية وإستطعنا دفع تكاليف الإيجار...

لأنَ حرب خالتي ضدي لم تنته أبداً بل أصبحت حرباً ضروس، وكنتُ أحتملُ كل عذاب لأجل عينيه، كلامها المستمر، وتقريعها وإستفزازات إبنة خالتي وخبث إبنها الذي يتعمد إلقاء الأوساخ وتخريب أعمالي المنزلية كي يتعبني أكثر، لم أنسى خالتي ولم أتركها رغم أنَّ إبنتها تزوجت وتركتها وكانت نادراً ما تزورها.. تزوجَ توأم زوجي في منزل خالتي لأَنَّهُ لم يكمل دراستهُ الجامعية وفشلَ بها وبعدَ وفاة زوج خالتي قامَ ذاكَ التوأم ببيع منزل والدِهِ ليستطيع شراء مشتمل صغير محتالاً على والدتِهِ بسرقة حصتها من الدار وحصة أختِهِ أيضاً فما كانَ مني إلا أن دعوتُ خالتي للعيش في منزلي الذي بنيتهُ مع زوجي الحبيب بنقودنا وثمرة تعبنا، وعاملتها كملكة، لأنَّها أعطتني أميراً، بل أعطتني ملكاً، وكانت تبكي كلَ صباح عندما أعدُّ لها الفطور لتقول لي:

- سامحيني، لقد عوقبتُ في ذريتّي لأنني لم أرعَ الله في يتيمة أُختي، سامحيني.. فأقبلَّها وأقول:

سامحتكِ خالتي الحبيبة طبعاً سامحتكِ...

ولقد سحرت لبابي

(الجزء الأول)

في تلكَ الليلة كانَ لابد لها من مغادرة المنزل مع والدتها لأن عمل والدتها إقتضى لهما الرحيل مرة أخرى وتركَ ذكرياتها مع صديقاتها وذكريات مدرستها وكل ركن في أركان منزلها الذي لم تعد قادرة على الإستمتاع به دون أن تكون خائفة من تركهَ، لقد أعتادت الأمر منذُ طفولتها فهي في ترحال دائم وتغيير مستمر ذاكَ لأن لامعيل لهما سوى مرتب والدتها الذي تتقاضاهُ من تلكَ الشركة التي توظفت والدتها في أحد أفرعها إذ توفي والدها قبل أن تبصر النور وكانت مهنة والدتها تقتضي السفر المستمر لتسويق البضائع والمنتجات التي تروج لها الشركة عن طريق مندوبيها الذين كانت هي إحداهن، مرت الأيام وتلكَ الأم وطفلتها على تلكَ الشاكلة وذلكَ المنوال يتجولان بين ولايات ومدن بلدهما في فترات زمنية مختلفة، لم تكن لها صديقات ثابتات ولا مقربات فكل شيء بالنسبة لديها عابر كالزمن الذي بدأ يتسلل بين أناملها حتى وجدت نفسها في السادسة عشر من العمر، كان عمها الأصغر يرافقهما دوماً ذاكَ لأنهُ الشخص الوحيد الذي لم يتزوج من عائلة والدها أو والدتها وكان متفرغاً للسفر معهما ليوفر الحماية لأبنة وزوجة أخيه المتوفي فمجرد وجود رجل معهما كانَ عاملاً يبعث الطمأنينة في النفس خصوصاً وتلكما الإثنتان تنتقلان من مكان الى مكان، لم يكن عمها قد أكملَ دراستهُ الثانوية قط ولم يتقن عملاً ما أيضاً ولم يبحث يوماً عن العمل، كانَ سعيداً بقضاء الوقت معهما مقابل طعامهِ ومسكنهِ ومبلغ شهري خصصتهُ والدة تلكَ الفتاة لهُ، مصروف جيبهِ لم يكن ذلكَ العم كبيراً بل مجرد شاب لم يبلغ الخامسة والعشرين بعد...

وفي سفرتهم الأخيرة كانت تعليمات الشركة تنص على ترويج البضاعة في منطقة جبلية في إحدى أصقاع البلاد حيث كانت على مقربة المنزل الذي إستأجرهُ عمها لهم غابة واسعة كثيفة الأغصان لم

يسكنها إنسان وكانت فيها عبارات تحذيرية لوجود حيوانات مفترسة أو وجود محميات لنوع معين من الحيوانات يمنع قتلهُ أو أصطيادهُ من قبل الناس أو الصيادين كانت تلكَ اللافتات أمراً عابراً بالنسبة لتلكَ الفتاة العنيدة التي لم تصدق رؤيتها لتلكَ المناظر الجميلة الخلابة، فأخذت تذهب كل يوم بعد العصر الى الغابة الغَنَّاء لتمتع الطرف بتلكَ المناظر الآسرة وتطيل النظر الى تلكَ الأغصان المتكاتفة وأشعة الشمس الذهبية تتخلل أوراقها فتعطي إنعكاساً فيروزياً يذوب لهُ قلبها العاشق للطبيعة بتفاصيلها الصغيرة هكذا أخذت تتسلل الفتاة كل يوم في فترة إيفادو الدتها لتلكَ المنطقة النائية لتعيش تلكَ اللحظات الجميلة من الخلوة مع الطبيعة والنفس تختلي فيها مع الطبيعة فتتجلى روحها لتعيش حالة من السكينة والإرتياح ليس لها مثيل، إستمرت الحال على ذلكَ المنوال حتى كانت في يوم ما تجول الطرق في الغابة وقد توغلت في السير أكثر من ذي قبل غير مبالية بتلكَ اللافتة التي تحذر الناس من وجود كائنات مفترسة، كانت تسير منذهلةً بجمال الطبيعة الوحشي دون تدخل يد البشر، لمّا سمعت صوت عواء، ارتعشت أطرافها وبشكل لاشعوري شعرت بالخطر يداهمها فما أن التفتت حتى وجدت ذئباً يتربص بها من بعيد.. شعرتْ بغريزة البقاء ومن دون تفكير أنَّ عليها أن تطلق العنان لساقيها كي تسابقا الريح، ركضت بأقصى ما أوتيت من سرعة وبأقصى ما عندها من جهد لعضلات ساقيها، حاولت أن تسرع، لكنَّ الذئب كانَ أسرع منها بكثير.. حاصرها أخيراً عند زاوية قرب الصخور حيث توغلت في الغابة دون شعور منها، خفق قلبها رعباً وشعرت أنَّ قلبها الصغير سينفجر، تلت على نفسها بعض الكلمات وتمتمت مستعدة للموت، لمّا سمعت صوتاً مدوياً ووجدت الذئب أمامها مضرجاً بالدماء...

على شابة مثلكِ عدم التواجد في هكذا أماكن خطرة، إرحلي بعيداً فقد جعلتيني أقتلُ حيواناً بريئاً بسببكِ، إلتفتت نحو مصدر الصوت فإذا به رجلٌ في عقدة الثالث يرتدي ثياباً غريبة ويحمل بندقية صيد بيدِهِ اليسرى.. توقفت الفتاة عن الحراكِ لدقائق وهي واجمة أمام الذئب المضرج بدمِهِ أسفل قدميها بينما، وقد وقف ذلكَ الرجل الثلاثيني بقامتِهِ الطويلة أمامها غاضباً وهو يطردها بسبابة يدِهِ خارج الغابة مزمجراً وهو يكشر مابين أسنانِهِ لا أريد رؤيتكِ هنا بعد الآن...

هل ذلكَ مفهوم؟؟

ولقد سحرت لبابي

(الجزء الثاني)

هربت الفتاة ولم تعقبُ بعدَ ذلكَ ولم تلتفت نحو ذلكَ الصياد أو أيا كانت مهنة ذلكَ الرجل الذي أنقذها من براثن الذئب، لكنها لم تستطع النوم تلكَ الليلة وظلت كوابيس على صورة ذئب شرس يطاردها تقض مضجعها وتؤرق جفنيها اللذين لم يغمضا الإنزراً يسيرا، لمّا لاحت تباشير الصباح الأولى، هرعت نحو باب منزلها المؤقت حيث سَكَنَتْ مع عمَّها ووالدتها بشكل مؤقت وفتحتهُ بهدوء شديد وتسللت على أطراف أصابع قدميها كي لاتوقض أحداً ووجدت نفسها تذهب الى نفس المكان الذي هاجمها الذئب فيه فذُهلت لما رأت الرجل جاثياً على ركبتيه وقد صنع شاخصاً من الحجر كما يصنع للبشر عند قبورهم وجثا يتمتم ويقرأ كلمات لم تفهمها وهي تراقبهُ من خلف الأشجار، قررت في سريرتها أن تتبعهُ، وجدتهُ يغذُّ الخطى نحو قمة الجبل بين الأشجار المتكاتفة حيث لاح لها منزل صغيرٌ من بعيد لم يكن في ذلكَ المنزل مايثير الفضول أكثر من إحتشادِ جمهرة من الناس عندَ بابهِ الرئيسي، حيث لم يدخل ذلكَ الرجل بل أتخذَ طريقاً ملتوياً خلف المنزل الصغير ليدلف عبر باب خلفي الى تلكَ الدار التي كانت أقرب ماتكون الى كوخ منها الى منزل وذلكَ ما عرفتهُ الفتاة وهي تنظر عبرَ نافذتِهِ الصغيرة الى أرضية المنزل الصغير وغرفتِهِ الوحيدة حيث دلفَ الرجل وأخذَ يعدُّ شيئاً ما في قدر وُضعَ على نار الموقد الجانبي في أقصى يسار الغرفة اليتيمة تلكَ.. إستخرجَ من حقيبة جانبية كانَ قد لفّ حزامها فوق كتفِهِ حتى أسفل جذعِهِ، فك الذئب الذي قتلهُ بالأمس فأقشعرت الفتاة وإرتجفت فرائصها وشعرت أنَّ ذلكَ الرجل يخفي سراً عظيماً...

وضعَ الفك على طاولة مستديرة في وسط الغرفة بينما أستخرجَ جلد الذئب مسلوخاً والدماء تقطر منهُ فكادَ أن يغمى على تلكَ الفتاة من فرط التأثر.. ذهبَ الرجل نحو الباب

الأمامية وفتحها ليدخل إمراة متوسطة العمر قد جاوزت الأربعين بقليل.. جثت المرأة عند قدمي الرجل فإذا به يضربُ رأسها بيدِهِ ويأمرها أن تنكسهُ أكثر نحو أرضية الغرفة ففعلت المرأة بإذعان لما يقول.. فتح زجاجة صغيرة أخرجها من حقيبتِهِ كذلكَ وقد إستنتجت الفتاة بسرعة أنها تحتوي في داخلها على دم الذئب نفسِه!!...

فتحَ الرجل فوهَّة الزجاجة وسكبها فوق شعر المرأة المنكسة الرأس نحو الأرض وأمسكَ بشعرها يشدهُ الى الأعلى وهي مذعنة غاية الأذعان بينما كانَ يتمتم كلمات لم تستطع الفتاة سماعها، وبينما كانَ يشدُّ شعر تلكَ المرأة بقوة الى أعلى حتى بانت عروق رقبتها إذا به يضرب رأسها بقوة فوق الأرض فيغمى عليها، عندَ ذاكَ أطلقت الفتاة صرخة رعب دونَ شعورٍ منها ولم تشعر بعدَ ذلكَ إلا بيد قوية تجُّرها نحو الكوخ، دفعها نحو زاوية من الجدار بقوة ووضع يدهُ فوق فمها بسرعة كي لاتصرخ، قرَّب وجههُ منها، تفرس في ملامحها، بانَ الإعجاب بجمالها في نظراتِهِ الخضراء لكنهُ أسرعَ بتغيير سحنة وجههِ إذ كشَّرَ عن أسنانهِ وشزرها بغضب مرعب وهو يمسك جذعها بذراعهِ القوية الأخرى بينما كانت الفتاة مثبتة الى الجدار كلوحة فنية لا ينقصها سوى مسمار وإطار...

- ألم أقلُ لكِ أن ترحلي ولاتعودي الى غابتي هذه أبداً!!

حاولت التكلم لكن قبضة يدِهِ القوية منعتها من الكلام فبقيت تصارع وهي تصرخ فلا يخرج من فمها سوى أنين مكتوم...

- حسناً، ماذا سأفعلُ بكِ الآن وقد رأيتِ ما رأيتِ؟؟

أنتِ لن تعودي الى أي مكان ستبقين هنا ولسوفَ تساعديني في أعمالي وإلا!!...

جحظت عيناهُ وهما تبرقان بشرر غريب إرتعدت لهُ فرائص الفتاة الصغيرة، بينما أخرجَ سكيناً صغيرة من جيبِهِ قربّها من وجه الفتاة التي كانت تبكي بجنون وقربها من رقبتها مهدداً وهو يزمجر بغضب...

- سأنحرُ هذه الرقبة الجميلة بكل سلاسة ويسر فأنتِ الآن تعرفين كم من السهل علي أن

أسلخ ذئباً مفترساً ولذا لن يكون صعباً علي نحر غزالة برية مثلكِ...

زادَ بكاء الفتاة لكنها إلتزمت الصمت ولم تقاوم فأرخى الرجل قبضة ذراعِهِ فوق جذعها وتركها تتحرر فسقطت على الأرض باكية بصوت مكتوم.. رفعَ ذقنها بسبابتِهِ وإبهامِهِ ليرفع وجهها نحوهُ وقد أثنى جذعهُ بإتجاهها...

- حسناً، إذاً أنتِ فتاة مطيعة سأدخل زبونتي الثانية بعد أن أعيد لهذه الحمقاء وعيها هيا أريدكِ أن تقفي عند ذاكَ القدر وتمزجي محتوياتهُ جيداً، تحركي لا أريد أن أقسوا عليكِ مرة أخرى...

قالَ جملتة الأخيرة بوجه بَشِر، لكنهُ قطبَّ مابين حاجبيه عندَ كلماتهِ الأخيرة، وعادت نظراتهُ تتطاير شرراً، ففتحت الفتاة عينيها البندقيتين ونظرت مباشرةً في عينيه اللتين ارتبكتا بشدّة وبانَ عليهما التأثر بشجاعتها وجمالها وبراءتها...

- أمركَ سيدي...

ولقد سحرت لبابي

(الجزء الثالث)

عندما أكملت الفتاة مزج مكونات القدر بتوجيه من الرجل ذاتهِ أشارَ لها بأصبع سبابتِهِ أن تهرع خلف الستارة كي لاتراها أيةُ أمرأة بل كانت هي وحدها من تستطيع رؤية مايحصل مع تلكَ النسوة، قامَ الرجل بإيقاظ المرأة بصفعة قوية منهُ جعلتها تفيق فزعة، أخذت تولول...

– ماذا جرى لي؟؟

– لقد أخرجتُ الشيطان من جسدكِ ياإمرأة، هلمي وخذي بعضاً من هذا الشراب الذي سيعيد لكِ قوتكِ وتوازنكِ من جديد، لقد صنعتهُ من مكونات سحرية وأضفت لهُ دم ذئب، عليكِ شربهُ الآن ياإمرأة، رفعت المرأة رأسها وأخذت كأس الشراب من بين يدي الرجل وشربتهُ عن آخرهُ بكل إمتنان وفتحت سرة نقودها لتعطي الرجل الكثير من المال، تمتمت بعبارات الشكر وهي تتلفتْ خارجة من تلكَ الدار، دلفت زبونة ثانية كانت ترتعش وتتلفت يميناًويساراً...

– أنهُ يتبعني أنا أراهُ دوماً...

– من؟؟

– طفلها، هو نفسهُ يأتي بهيئة جان صغير، لكنهُ مرعب، إنهُ لايتركني وشأني، أرجوكَ، خلصني منهُ، أرجوكَ...

– إن ظهرَ لكِ مرة أخرى فأرتدي هذا الفك فوق رأسكِ، لن يمسكِ بسوء تفرست المرأة النظر في أنياب الذئب بينما أنفاسها تتصاعد إهتياجاً، أخذت تبكي بشكل هستيري...

– لا، لا، لا أريد أن أموت، كانت تبكي وتنثر شعرها الأشيب هنا وهناكَ رافعة غطاء رأسها عنها وبقيت عدة دقائق على ذلكَ المنوال، حتى صفعها الرجل صفعة قوية على وجنتها جعلتها تسقط الى الأرض، أخذت تنتحب...

سامحني سيدي الساحر، سامحني لن أعيد ذلكَ في حضرتكَ...

– هيا هلمي واهرعي كي تحل مشكلتكِ، أسرعي بالخروج الآن...

– لكن ألن تاخذ نقودكَ؟؟

قالت العجوز بقلق فقال الرجل بعصبية:

– هيا أعطني ماعندكِ، سأكون متسامحاً معكِ هذه المرة لكنني لن أسمح بتكرار هذا الأمر في المرة القادمة هل تسمعين؟؟

– نعم، نعم، أرجوكَ! أرجو السماح منكَ ومن أسيادكَ أرجو منكم السماح...

– أخرجي هيا...

وأخذَ الرجل يدخل إمرأةً بعد أخرى ليقرأ بعض التعويذات ويعطيهن بعض الشراب أو يسكب بعض الدماء فوق شعورهن وهن يصرخن أو يوصفن أحوالهن لهُ ولم تر الفتاة بين تلكَ النسوة إلا رجلاً أو رجلين جاءا ليحصلا على تعويذات سحرية أو ليطلبا حلاً لمشاكلهما، حتى كادَ قرص الشمس أن يغيب وتصلبّت قدما الفتاة من كثرة الوقوف خلفَ تلكَ الستارة فما أن صاحَ الرجل بها كي تخرج حتى تهالكت خائرة القوى فوق أرضية الكوخ...

إلتفتَ الرجل إليها وأطلقَ ضحكة ساخرة...

– حسناً أيتها الأميرة الأقوى أرى أنكَ مجرد فتاة مدللّة...

قالَ ذلكَ وهو يلمُّ أغراضاً من فوق الأرض ويعيد بعض الشراب الى القدر.. شعرت الفتاة بالتقزز وهي تنظر الى الأرضية المتسخة بالشعر والوبر والدماء.. أشارَ الرجل الى سرير في نهاية الغرفة لشخص واحد كي تستلقي عليه...

– لقد حلَ الظلام وليس لي نقود كافية كي أوفر الكهرباء فما يخرج من أيدي هولاء الجهلة لا يكاد يسد رمق طفل صغير، هلمي الى النوم سريعاً، سأشعلُ اليوم شمعة لأجلكِ كي لاتخافي، قالَ ذلكَ وهو يشعلُ شمعة صغيرة ويضعها فوق شمعدان على الطاولة المستديرة في وسط الغرفة فانعكست الظلال فوق وجهِهِ المستدقَّ الملامح وعندَ ذاكَ أقشعرَ بدن الفتاة وتكورَّت على نفسها وانزوتْ نحو الجدار بأقصى قواها وقررت أن تناضل لأجل شرفها لو استوجبَ الأمر، مرت الثواني ثقيلة الخطى كانت تنظر من طرف خفي وهي تتصنع النوم، الى الرجل وهو يخلع ثيابهُ ويرتدي ثياب النوم، أخذَ جسدُها يرتجف ذعراً كانت خطواتهِ باتجاه سريرها كطعنات خنجر في قلبها، تسارعت أنفاسها وكادت تشهق ذعراً، لمّا أقتربَ الرجل من سريرها، وكانت على وشك الجفول والوثوب بفزع فوق السرير، فكرتْ مع نفسها أن تغرز أظافرها في وجنتيه وفكرت في عدة حلول فاشلة، كلَ ذلكَ في بضع ثوان لما تلاشت كل أوهامها بتلكَ الكلمات الحنونة التي نطقَ بها الرجل وهو يحمل غطاءاً دثرها به...

– تصبحين على خير أيتها الآنسة الصغيرة مهما كانَ أسمكِ لاتخافي سأنام على تلكَ الأريكة المقابلة في أقصى الغرفة لاتتشنجي هكذا أرجوكِ أنا لستُ وغداً.. قالَ ذلكَ بصوت صادق ونبرة حانية إهتز لها كيان الفتاة، ظلت تنظر إليه وهو يبتعد نحو الأريكة حيث إرتمى متهالكاً فوقها وهو يئن بصوت عالٍ وتمتم بغضب مكبوت...

– يالهُ من عمل متعب، اللعنةُ على أهل القرية جميعاً...

لم تستطع الفتاة النوم قبل أن تسمع صوت شخير الرجل يملأ أركان الكوخ ومن شدة تعبها شعرت بالنعاس يهجم عليها ويشدها نحو مملكة النوم حتى الصباح...

ولقد سحرت لبابي

(الجزء الرابع)

- هيا اسرعي علينا مغادرة المكان...

قالَ الرجل موقظاً الفتاة من نومها، ففتحت عينيها اللوزيتين مندهشة وهي تنظر الى الرجل الذي كانَ يقوم بإخفاء كل شيء يشير الى تعويذاتِهِ أو أستخدامِهِ لأعضاء الذئب أو جلدِهِ أو أي جزء منهُ، كما وأنهُ قامَ بحمل القدر بصعوبة وسكبَ محتوياتِهِ خارج الكوخ، عادَ إليها لاهثاً وهو يتحدث بسرعة هيا أسرعي علينا الخروج من هنا...

- لكن لماذا؟؟

- لاتناقشي، هلمي وأسرعي...

قالَ ذلكَ وجرَّ الفتاة من ذراعها عنوةً رغم مقاومتها للأمر بادئ ذي بدء لكنها سرعان ما استجابت للرجل وسارت خلفهُ مذعنة، هبطا قمة الجبل مسرعين، كانت بضعة نساء يصعدْنَ قاصداتٍ كوخ الرجل عندَ بابِهِ الرئيسية كما لاحَ لهما من بعيد وهما يهربان بعد أن خرجا عبر الباب الخلفية، كانَ الرجل يمسك بيدها وهي تغذُّ الخطى خلفهُ، أخذت الفتاة تلهثُ تعباً بعد مدة من الركض، وبينما وصلا الى بقعة من أرض الغابة كثيفة الأغصان متعرجة الأركان وكانَ نور الشمس لم يصل بعد ليبعد ضوء القمر الذي كانَ ضياؤهُ ينعكس على الشجر ليضفي لمسةً من الجمال الأخاذ في تلكَ الساعة قبيل شروق الشمس، إذا بالفتاة تسمع عواءً مستمراً لعدة حيوانات وليس لمفترس واحد، إذ خرجَ من خلف الأشجار المتكاتفة عدة ذئاب على شكل قطيع، تسمرت الفتاة في مكانها وتمسكت بذراع الرجل وكأنها ملاذها الوحيد، نظرتْ إليه بذعر، بينما كانَ هو مركزاً نظراتِهِ نحو ذئب واحد، كانَ كما يبدو سيد القطيع...

أبعدَ الفتاة عنهُ وتقدم نحو قطيعِهِ وأطلقَ صوتاً خاصاً دفعَ مجموعتهُ الى العودة خلفَ الأشجار، عندما عادَ الرجل الى الفتاة كانت الأخيرة ترتجف رعباً، نظرَ إليها وكأنهُ يقرأ أفكارها المرتعبة، إذ نظرَ إليها هازئاً...

– هلمي فلا وقت لدينا يريدون إلقاء القبض علي ولكن هيهات...

– من هم؟؟

تمتمت الفتاة بدهشة بينما سحبها الرجل من يدها وأمرها بحركة من عينيه أن تمضي قدماً معهُ، سمعا صوت صافرات الشرطة تقترب، دلفَ بها بين الأشجار المتكاتفة وأخذا يركضان بسرعة، كانت أصوات أنفاسهما اللاهثة مسموعة لمن يقترب منهما وبالفعل كانَ هناكَ عنصران من الشرطة على وشك الإمساكَ بهما عندما تمتم الرجل بكلماتٍ بلغةٍ لم تفهم منها شيئاً وكأنهُ يستغيث بشخص عزيز عليه ويذكرهُ بمعروف لهُ، لأنهُ أخذَ يكرر تلكَ الكلمات وعيناهُ تمتلآنِ دمعاً، فجأةً صرخت الفتاة لأنها رأت شخصاً يشبه الرجل أمامها وكانت عيناهُ تلتمعان بلهب أزرق يكاد يغطي مقلة العين الواحدة...

أدركت الفتاة أنَّ ذلكَ الشخص ليسَ بآدمي على الأطلاق، كانت خصلات شعرِهِ الشقراء الطويلة قد لامست بشرتها بسرعة وببطء شديد وكأنَ الوقت توقفَ عندَ ذاكَ وهو يمر بينها وبين الرجل وكأنهُ لم يمر أبداً، فهما لم يفسحا لهُ أي مجال لأنهما كانا مستمرين بالركض، سمعت الفتاة صوت صراخ خلفها، علمتْ أنَّ الشرطيين قد ذهبا عنهما ولكنَّ صرخة ألم فظيعة دوت في أرجاء المكان بين لحظة التفاتها نحو الشرطيين وبين عودتها لرؤية الرجل الذي كانَ ممسكاً بيدها، ولفرط دهشتها أطلقت صرخة إستغاثةٍ مكتومة، فلقد وجدت الرجل عالقاً في شرك منصوب لاصطياد الذئاب وقد أنغرست أسنان المصيدة الحادة بلحم ساقهِ اليسرى لأنَّ فك المصيدة أُطبق عليه...

كانت يداهُ تنضحان دماً لأنهُ عبثاً حاولَ فك المصيدة عن لحم ساقِهِ الذي انغرستْ فيه تلكَ الأسنان الحادة، نظرَ إليها بألمٍ وقالَ لها بغضب مستعر وعيناه تجدحان شرراً...

- هيا اهربي الآن، إنها فرصتكِ.. آه...

كانَ يئن من فرط الألم...

حسناً، أعترفُ لكِ إنهم جاؤوا ليبحثوا عنكِ فمؤكد أنَّ والدتكِ قد سجلت بلاغاً في الشرطة لعدم عودتكِ الى المنزل، لكنني لا أستطيع التضحية والمجازفة بعمري كلهُ لأجل فتاة ثرثارة يمكنها أن تكشف كلَّ أسراري لأهل القرية الأغبياء في جلسة ثرثرة واحدة...

- لكنني لن أقول شيئاً ثم أنني لا أعرفهم ولسوفَ أغادر أنا وأمي وعمي عن قريب...

- آه، أرحلي الآن لايهمني شيء بعد الآن، إرحلي أيتها المشؤومة، كانَ علي أن أدع الذئب يأكلكِ تلكَ الليلة لأتخلص منكِ، إرحلي ودعيني أموتُ وحيداً كما جئتُ الى هذه الغابة وحيداً، دعيني لأنزف حتى الموت، لن يعثر علي أحد.. أخذت قطرات العرق تتساقط من جبينِهِ وهو يجودُ بنفسِهِ كي يُبعد أسنان المصيدة عن لحمِهِ، وكلما حاولَ ذلكَ كلما أفلتت المصيدة وعادت تنغرس بشكل أكبر بحيث أنهُ بدون شعور كانَ يصرخ صرخات مرعبة، كانت الفتاة ترتجف وهي لاتعرف ماالعمل، سمعتهُ يتحدث بتلكَ اللغة مرة أخرى، سمعت حفيفاً بين أوراق الشجر، خرجَ ذلكَ الشاب الأشقر من جديد وجلس قبالة الرجل وكأنهُ يبكيه، لم يكن قادراً على مساعدتهِ بشيء عقدت الفتاة عزمها إستدارت هاربة من كل ما رأتهُ وأخذت تغذَّ الخطى، لكنها فجأة توقفت وبدون أن تراجع نفسها وبدون أن تفكر لأنها علمت لو أنها تركت لنفسها حرية التفكير فلسوفَ تتردد وتعود عن قرارها...

عادت الى حيث وجدت الرجل يجود بنفسهُ وهو يئن من فرط الألم رفعَ عينيه نحوها مندهشاً كانت عيناهُ دامعتين وقد أستسلمتا للألم بينما كانت يداهُ المضرجتين بالدماء لاتزالان تمسكان بالمصيدة محاولاً بأقصى قوتهِ أن لاتطبق على ساقِهِ مرة أخرى رغم يأسهِ من هذا الأمر لأن قواهُ ستخوران عاجلاً أم آجلاً...

- لا أدري لمَ أفعلُ هذا، لكنكَ أنقذتَ حياتي وأدينُ لكَ بذلكَ دعني أساعدكَ!!...

أمسكت ساقهُ الدامية وأخرجتها من المصيدة بينما كانَ لايزال ممسكاً بيديه الداميتين أسنان

الفكين لتلكَ المصيدة الفولاذية، نظرَ إليها بعرفان بينما أمسكت ثوبها السفلي لتشق خرقاً منهُ وتلف يدي الرجل الجريحتين ثم شقت بقية الثوب لتضمد ساقهُ الدامية بلحمها المنهوش بفعل أسنان المصيدة، ظلت الفتاة ببنطالها الداخلي دون ثوب، شعرت بخجلٍ من الرجل لكنهُ كانَ ينظرها بعرفان شديد وعيناهُ تكادان أن تتكلما: بدموعها المنهمرة، ونظراتها الشاكرة...

قالت الفتاة أخيراً بحزم بعد لأي...

- حسناً، الآن يمكنكَ التشبث بي لنمضي نحو كوخكَ على ساق واحدة، هل يمكنك؟؟

هيا تشبث بي جيداً، رفعَ الرجل عينيه نحو الفتاة غير مصدق لكنهُ أسرعَ بالأمتثال لما أمْلتْ عليه الفتاة وهو يتمتم بكلمات الشكر لها ثم لاذَ بالصمت وسارا سويةً عائدين الى الكوخ هو بساق واحدة متكئاً عليها وهي على ساقين، لكنَّ ثقل الرجل كانَ عنصراً فعالاً في بطء سيرها...

ولقد سحرت لبابي

(الجزء الخامس)

وضعت الفتاة ذلكَ الساحر في فراشِهِ بشقِّ الأنفس، كانت تلهثُ من فرط التعب بينما كانَ الألم يقطع نياط قلبهِ فيئِنُّ بصوتٍ مكتوم، لكن لمَّا وضعتهُ على السرير وتلمست ساقهُ المنهوشة اللحم مع الفراش حتى أطلقَ صرخةً من الأعماق ضجَّت بها أركان الكوخ الصغير وخرجت فوق أرجاء الجبل.. قالتِ الفتاة بأسفٍ وهي تحاول مساعدتهُ...

- أعتذرُ منكَ هل آذيتكَ.. قل لي ماذا أفعل الآن؟؟

يجب أن تعطيني هاتفي الخلوي لأتصّل بوالدتي فتجلبَ لكَ سيارة الأسعاف، أنا لستُ قادرة على إسعافكَ لأني لا أعرفُ ما العمل؟؟

- حسناً، إنهُ تحت وسادتي هناكَ فوق تلكَ الأريكة، لكن لا، لا، سوف تأتي الشرطة فهم يبحثون عنكِ، سوف يدخلونني في سؤال وجواب...

لا، لا دعيني أعلمكِ كيف تداوين جرحي، هل أنتِ مستعدةٌ لمساعدتي؟ قالَ وهو يئن بصوت متقطع...

- حسناً، أنا بخدمتكَ قل لي ماذا أفعل؟؟

نظرَ الرجل إليها بإمتنان شديد، ثم أشارَ بيدِهِ الدامية التي لفتها الفتاة بخرقة من ثوبها الممزق إلى درج صغير، هنا إفتحي هذا الدرج، ستجدين مجموعة أعشاب جبلية جمعتها للتشافي ومن بينها عشبة ذاتَ زهر أزرق أريدُ منكِ أن تضعي منهُ على جرحي وتضمديه مرة أخرى بضماد آخر.. أفعلي ذلكَ لو سمحتِ، ثم إرجعي الى منزلكِ ووالدتكِ فلا بد وأنها قلقة عليكِ للغاية...

أنا أعتذرُ منكِ، فلقد أنقذتِ حياتي ولست أدري كيف لي أن أردُ لكِ معروفكِ قالَ ذلكَ ونظرَ إليها بعينيه الخضراوين بعرفان شديد وندم صادق...

– لكنكَ لن تستطيع البقاء بمفردكَ، قالت ذلكَ وهي تفتح الضماد القديم فأخذَ الرجل يتأوّهُ بصمتٍ وهو يستمع إليها ثم تابعت كلامها بحزم، سأتصل بوالدتي وأقول لها أنيّ سأبقى هنا لأرعاكَ...

– هل من المعقول، هل ستوافق؟؟

قالَ الرجل وهو يتألم بفعل العشبة التي أخذت الفتاة تسحقها بأناملها وتفتتها فوق جراح ساقهِ، ألن تحتاج معقماً؟؟

هل يوجد معقم هنا؟؟ يجب أن أعقم هذه الجراح!!

– كلا فالعشبة مطهرٌ كافٍ، أرجوكِ إذهبي الى أهلكِ، أنا ممتنٌ كفاية قل لي من سيرعاكَ إن رحلتُ؟؟

– لا أحد...

– إذاً لاتتكلم كثيراً دعني أتصل بوالدتي أين الهاتف؟؟ هاهو سأطلب والدتي...

رنَّ الهاتف على الطرف الآخر، كانَ صوت والدتها متهدجاً متقطع النبرات علمت الفتاة فوراً أن والدتها بدأت بالبكاء...

أين أنتِ طوال هذه المدة؟؟ يومان لا أعلمُ شيئاً عنكِ!! رحماكَ يارب لماذا أغلقتِ جهازكِ؟؟

– أماه، لاتقلقي لقد تهتُ في الغابة ولم أجد طريق العودة وكادَ أن يفترسني الذئب لو لا هذا الرجل الذي أنقذني وهو الآن مصاب بسببي فلقد عضَّهُ الذئب في ساقهُ وأضطررتُ للبقاء هنا...

– ماذا!!

- نعم يمكنكِ القدوم لرؤيتي، أنهُ كوخ أوحد في أعلى الجبل، لن تضيعي الدرب أبداً، تعالي برفقة عمي، أرجو منكِ جلب علبة الأسعافات الأولية معكِ...

حسناً، نعم أنا بخير أقسمُ لكِ، وداعاً...

نعم، أنا بإنتظاركِ أماه أقسمُ لكِ، أقسمُ أنا بخير، لكنْ، أوَ لمْ أقل لكِ أنني كنتُ تائهة فمن الطبيعي أنَّ شحن جوالي سيكون منخفضاً، قبل قليل فقط أكملتُ شحنهُ عند الرجل الطيب.. حسناً، نعم، نعم تعالي بسرعة...

أغلقتِ الجوال ووضعتهُ جانباً فتبادلت النظرات مع الرجل المصاب وهي تحاول أن تضع قليلاً من العشبة على راحتي يديه الداميتين...

- شكراً لكِ...

قالَ الرجل فجأة وهي تعيد ضماد يدهُ اليمنى...

- علام تشكرني؟؟

نظرَ الرجل إليها ملياً، رفعت نظراتها البريئة...

- ما الأمر؟؟

- لقد كذبتِ على والدتكِ لأجلي، لمَ فعلتِ ذلكَ؟؟ كنتُ قد أختطفتكِ، ولم أكن أنوي إعادتكِ الى أهلكِ، لأنكِ رأيتِ أسراري...

نظرت الفتاة إليه ملياً وهي تمسك يدهُ اليسرى لتضع العشبة عليها...

لكنكَ أنقذت حياتي وكانَ خطئي تدخلي في خصوصياتكَ، ثم أنكَ لم تؤذني لمّا بقيت عندكَ ليلة كاملة...

قالت ذلكَ وأطرقت برأسها خجلاً فسمعت صوت ضحكة ساخرة من الرجل، رفعت رأسها مرة أخرى فوجدت الدموع في عينيه...

- أنا مجرد ساحر حقير لا أستحقُ الحياة مطلقاً، مشعوذٌ إسْتَغَلَّ جهل هؤلاء النسوة وغباءهن لينتقم لنفسِهِ، لربما، لربما كانَ علي أن أموت كما ماتت تماماً.. نعم، نعم...

تمتمَ كلماتهُ الأخيرة وكأنما كانَ يحدث نفسهُ، شعرت الفتاة بالألم لأجلِهِ ولم تشأ أن تضايقهُ بالأسئلة التي عج بها دماغها وضعت يدهُ على مهل بعد تضميدها بضمادٍ طبي، نظرت إليه دون كلام فرفعَ رأسهُ نحوها وحدقَ النظر الى عينيها بحيث لم تستطع تحويل نظراتها عنهُ، قالَ لها وهو يمسك بيدها التي ضمدت يدهُ الأخيرة...

- لقد رأيتِ ذلكَ الصديق!! سمعتني وأنا أناديه أنا متأكد أنكِ رأيتِهِ وذلكَ أمر غير طبيعي، فلا أحد قد تمكنَ من رؤيتِهِ سواي في هذه الغابة، وأنا من أنقذهُ من براثن الذئب لأن الذئاب تثبِّتُ أمثالهُ بنظرها الثاقب وتستطيع الأمساكَ به حتى لو كانَ في الجهة الأخرى ما دامَ نظرها عليه، كنتُ أنا الذي أنقذتهُ يوم قدمتُ هارباً الى هذه الغابة من أهل قريتي هذه...

نعم، جئتُ هارباً لوحدي، عشتُ بمفردي وما كانَ لي صديقٌ سواهُ، أوَ تعلمين من هو هذا الصديق الصدوق؟؟...

قالَ ذلكَ وعيناهُ تلمعان ببريق عجيب...

-كلا، لا أعرف، لكنني رأيتهُ وأكادُ أقسمُ أنهُ مرَ بيننا دون أن يلمسنا وكانَ يبكيكَ فعلاً كأصدق صديق...

- أو تعلمين أنهُ ليس بشر!! هل تخشين مني لو قلتُ لكِ أنه صديقي الجني...

قال ذلك وهو يركز نظراته الخضراء على عينيّ الفتاة اللوزيتين فشعر بيدها ترتجف بين يديه وإتسعت حدقتا عينيها ذعراً وماتت الكلمات عند شفتيها، لقد رأته فعلاً جالساً بجوارهما وهو ينظر إليها مبتسماً...

ولقد سحرت لبابي

(الجزء السادس)

كانت يدها ترتجف بين يديه وهي تنظر الى ذلكَ المخلوق الذي جلسَ قبالتها بقرب الرجل وهو ينظر إليها بعينين تلتمعان بما هو أشبه بلهيب أزرق!! نظرتْ الى الرجل وهي تمتم بذعر...

- من هذا المخلوق؟؟ هل هو نفسهُ صديقكَ الذي حدثتني عنهُ؟؟

أرجوكَ قل لهُ أن ينصرف...

أبتسمَ الساحر وهو يتألم بفعل إصابتِهِ، نظرَ إليها وهو يضع أناملهُ على جبينها وأخذ يتمتم...

- أنتِ شخص مميز لأنكِ ترين صديقي فلا أحد يمكنهُ رؤيتهُ سواي، لقد أنقذتهُ كما قلت لكِ من قبل ولذلكَ ظلَّ مديناً لي بحياتِهِ ولأنكِ أنقذتيني فهو مدينٌ لكِ الآن...

- وتحت أمركِ آنستي.. قالها الجني وهو يوجه نظراتِهِ الى الفتاة التي ارتعدت فرائصها ذعراً وقفزت من فوق حافة السرير حيث جلست تعالج جراح الرجل...

- سأذهب الآن لاتخافي كوني بخير آنستي، قالَ ذلكَ وإختفى بسرعة...

هل هذا حقيقي؟؟ أنتَ تقوم بحيلة سحرية صح!!

- كلا، أنا لا أفعل عدم وجود دليل على وجود الجان، ليسَ برهاناً على أنهم غير موجودين، لكن من المستحيل لهم بمكان فعل شيء لبني البشر، نحنُ من نقوم بأعمال الشر ولكن بقليل من وساوسهم ربما، إلاّ أنَّ الشر كلُّهُ يكمن فينا!!

قالَ الساحر ذلكَ وأطرق برأسِهِ بندم، لقد قمتُ بكثير من الخطايا وتحت مسّماهم، إقترفتُ كثيراً من الذنوب، أنتِ لاتعرفين مدى غباء هؤلاء النسوة.. تحبس إبنتها من الخروج ومن أية

مناسبة أجتماعية ولمّا تصاب بحالة نفسية مزرية تأتي بها إلي بكل سذاجة، تتركها عندي.. فتيات وفتيات عدة بحجة إصابتهن بمس شيطاني (نحن الشياطين صدقيني)، تحرم إبنتها من لبس ماتريد ومن شراء ماتتمنى ومن رؤية أيَّ أحدٍ حفاظاً على شرفها، ثم تسلمها لي، لأنني أستطيع شفاءها وفعلاً تذهب الى والدتها وهي بألف خير لأنها تحررت من سجن أمها وأهلها أخيراً، ولكن مع كل الأسف كان بعضهن يجلبن أطفالاً صغاراً متلفعين بخرق بالية، كنَّ يقسمن لي أنهم أطفالي ومن صلبي، لكنَّ كراهيتي وحقدي لأهل هذه القرية جعلتني لا أصدق واحدة منهن، وكنتُ أترك مصير أولئكَ الى ملجأ الأيتام أو الشارع، أنا لا أنكر ندمي، ولكنَّ أي جهل يحملنهُ هؤلاء النسوة ليظنوا أنَّ بوسعي شفاء أمراض نفسية أو عقلية، خيالاتٍ وهلوساتٍ سمعية، بصرية يعتقد أهل القرية بأن الجان هم سببها، لا سبب لها سوى تخلفهم وغبائهم، أوَ تصدقيّن لو قلتُ لكِ أنهُ كانت تأتيني أمراة وهي إبنة تلكَ الخبيثة، أنتِ لا تعرفينها تقول لي أنها لا تحصل على أطفال وفي العام الذي يليه حصلت على طفل فجاءت مع والدتها تحمل النذور إلي مع طفل أرى فيه شبهاً إلي أكثر مما له من أمه، يا للسخرية!!

زفر بعد فترة بألم، نظرت إليه الفتاة بغضبٍ مشوب بالحزن والعطف في آن معاً...

– أعترفُ بكل هذا بين يديكِ كي أتطهر من ذنوبي لأنكِ جعلتيني أحتقر أفعالي وأكره الأستمرار بها، كنتُ بالفعل سَقِماً من نفسي، لكنكِ الشعرةُ التي قصمت ظهر البعير لم أعد أريد الرذيلة و لا حياة الشعوذة...

– حسناً، ألن تقول لي لم فعلتَ كل هذا.. أجبني لو سمحت...

رفعَ الرجل نظراتهِ الخضراء نحوها مطولاً وشهق بألم...

– لقد أحرقوا أمي أنتِ لاتفهمين...

لقد تركوني وحيداً.. ظنوا أنهم قتلوني.. تلكَ المرأة العجوز التي شدت شعرها وضربت رأسها بالأرض كانت إحدى اللاتي تسببن بمقتلها...

والدتي الحبيبة التي رعتني بمفردها، كانت عالمة حيوان أحبَّت إقامة البحوث حول الذئاب،

وكانت تأتي الى الغابة بمفردها طويلاً لتقوم بتجاربها العلمية وتكتب تقاريرها الخاصة عن أنشطة هؤلاء الحيوانات، لم يصدَّقها أحد، لفَّقنَ الأقاويل حولها وحرقوا منزلنا ونحن نيام، لا أعلم كيف نجوتُ من تلكَ الحادثة، لكنني مكثتُ يومين مغمى علي في وسط الغابة لا أعرف ما جرى لي، عشتُ أتعس طفولة وحيداً بعيداً عن الناس، منبوذاً بدون أهل.. قتلوا أمي!! هل تريدين مني أن أرحمهم؟؟

كلا، هؤلاء الجهلة...

صرَ على أسنانهُ بغضب وهو يشدُّ قبضتهُ بيديها ملوحاً بها في الهواء...

- حسناً، لا بأس عليكَ...

قالت لهُ بصوت رقيق، لقد انتهى حزنكَ، دع ذلكَ الألم يزول منكَ، يجب أن تتشافى منهُ وذلكَ بتركِهِ خلف ظهركَ، لاتبال فلا بد وأنَّ عاقبة كل من يؤذي أحداً أذاهُ هو قبل غيرِهِ، لقد سمعتُ تلكَ المرأة تصدَّقُ بوجود جني يؤذيها، كنتَ أنتَ من أعطاها فك الذئب كتميمة أو تعويذة ضد ظهور الجان لها ولكن هل ذلكَ صحيح حقاً؟؟

هل كانَ هناكَ جان يؤذيها؟؟

نظرَ الساحر الى الفتاة للحظة ثم أطلقَ ضحكة إختنقت بسرعة بآهة ألم...

لن أخفيكِ سراً، أنا لا أعرف شيئاً عن الجان ولا أعرف جنياً يمكنهُ جلب الخير لي أو دفع السوء عني، كل ما أعرفه هو صديقي الذي ورأيتهِ بعينيكِ، رأيتِ هذا الصديق.. لا أعرف متى بالضبط إلا أنهُ جاء لي كهدية من السماء كي لا أعيش بمفردي...

حسناً، قولي لي لو كانت عندي طرق خفية ومعلومات من الجان لأصبحتُ أثرى أنسان ولما بقيتُ هنا، صحيح أن صديقي هذا هو من حذرني من قدوم الشرطة قبيل الفجر، وهو يستطيع جلب أحاديث تدور بين مجموعة ناس إلي، يستطيع إخباري بوقوع حادثة في الغابة فأذهبُ مسرعاً أو أنهُ يحذرني من مكروهٍ ما، دوماً ما يظهر لي في أوقات غير معلومة، لكنني لما أستنجدهُ في المخاطر كما رأيتِ مع ذينك الشرطيين، فهو عندَ ذاكَ مستعدٌ لمساعدتي دوماً...

– ماذا عن صديقكَ هذا، أو لا يدلكَ على مراكز كنوز الأرض؟؟

أطلقَ الرجل ضحكةً أخرى سرعان ما كُتمتُ بفعلَ الألم الذي كانَ يشعر به في ساقِهِ بشكل كبير وفي يديه...

– لو كانَ قادراً على ذلكَ لأصبحتُ أغنى أنسان في الوجود مجرد خرافات من خيالاتنا.. نحن لا نلتقي أنا وإياهُ إلا عندَ الخطر، وفي المواقف التي أطلبهُ فيها لمساعدتي وليسَ لجلب الكنوز أو لجعلي شخصاً خارقاً والآن...

قالَ لاهثاً وهو يجود بجراحاتهُ...

– هل تحتقرينني بعدَ كل ماقصصتهُ عليكِ وهو جزء لايتجزأ من أفعالي القبيحة.. لكنني أعلنكِ التوبة من كل أعمالي لأجلِ براءتكِ وطيبتكِ، أعلن توبتي، أرجوكِ لاتكرهيني، أريدُ أن أشعر أنَ هناكَ من يعطف علي أو يشعر بما عانيتهُ في هذا العالم القاسي خصوصاً بعدَ أن قصصتُ لكِ، أرجوكِ لا تسيئي الحكم علي...

– أنا، أنا لا...

قالت وهي تنظر بألم وعطف كبيرين ناحية الرجل الذي كانت عيناهُ متعلقتين بنظراتها الحانية وكادت تكمل جملتها لما سمعت صرخة مكتومة تهتف بأسمها ليفتح باب الكوخ فجأة فتدلف والدتها من خلفهِ يتبعها عمّها، صاحت الأمُّ بأسم الفتاة وهي تحتصنها بقوة وتضمها الى صدرها وتشبع وجهها قبلاً...

نظرت الأم بعد برهة من الزمن الى الرجل الجريح، بينما إحتضن العم إبنة أخيه...

– رحماكَ يارب..

يجب أن ينقل هذا المسكين الى أقرب مشفى على وجه السرعة، أنا لا أعرف كيف أجازيكَ على معروفكَ وحفاظكَ على طفلتي سوف تكون مصاريف علاجكَ كلهّا مني...

هيا ياعزيزي أتصل بالإسعاف بسرعة أو لا ترى حالة الرجل الصعبة وقد أنقذ إبنة أخيكَ!!

أخذت الأم جوالها وبدأت تفتش في قائمة الأرقام مع أخ زوجها المتوفي بينما تبادل الرجل والفتاة نظرات العرفان والمحبة والتسامح...

ولقد سحرت لبابي

(الجزء السابع)

هيا الآن، إجلسي وتناولي طعامكِ...

قالت الأم وهي تنظر إبنتها بسعادة تجلس قبالتها عندَ مائدة الطعام بينما صرحَ العم بنبرة متهكمة، مابالكِ تأكلين وكأنكِ لم تأكلي منذُ دهر، لكنني بالفعل لم آكل منذُ يومين قالت الفتاة وهي تلتهم الطعام بسرعة بسبب شدة جوعها، وبينما كانت تبتلع لقماتها هتفت فجأة...

- ما أخبار الرجل ياأماه؟؟ هل ضمدوا جراحهُ؟؟ هل سيخرج من المشفى أم ماذا؟؟

نظرت الأمُّ الى إبنتها بدهشة ولكنها سرعان ماغيرَّت سحنة وجهها الى تعبير جدّي حازم، إذ تلتفت الى أخ زوجها بسرعة وقالت لهُ بلهجة صارمة...

- حسناً، يجب أن تذهب لتُتابع حالة الرجل وإن أخرجوهُ اليوم من المشفى، فعليكَ البقاء معهُ، فأنا لا استطيع بسبب عملي المكوث لرعايتِهِ، إنهُ يحتاج شخصاً يقوم بإنهاضِهِ من سريرِهِ عندما يحتاج ذلكَ وشخصاً يطعمهُ طعامهُ ولا أعتقد أنَّ مرتبَّي سيكون كافياً كي أضع ممرضة في خدمِتهِ أو لا يوجدُ لديه أقرباء يرعونهُ أبداً...

قالت بعصبية وهي تلتفت نحو إبنتها فوجمت الفتاة وحارت جواباً لكنها أجابتها بعد مدة...

- أماه، لقد قلتُ لكِ للمرة الألف أنهُ بلا أهل هو من قالَ لي ذلكَ...

- إذاً، هل ستكونُ قادراً على رعايتهُ؟؟

قالت الأم بنوع من الغضب موجهة سؤالها لأخ زوجها الذي أخذَ يتناول طعامهُ دون أن يجيبها بكلمة، فعلمت الأم أن جوابهُ هو الرفض فلم تعقب، سادت فترة صمت عندما هتفت

الفتاة بصوت مرتعش...

– أنا مستعدة للذهاب لرعايتهُ بدلاً من عمي...

– ماذا؟؟ لايمكنكِ الذهاب بمفردكِ وأنتِ فتاة غرة، الى منزل ذلكَ الرجل الأعزب، كلا، كلا لايمكن ذلكَ...

– سأذهب وقت النهار فحسب ياأمي ويمكن لعمّي المكوث بالليل، مارأيكَ بهذا ياعم...

– لابأس إن تبادلنا الأدوار حتى شفائِه، حسناً يا إبنة أخي لكِ ذلكَ...

أرتسمت إبتسامة عريضة على شفتي الفتاة سرعان ماذبلت بإعلان والدتها...

–ولاتنسيا أن مدة إقامتنا هنا ستنتهي بعد مدة قصيرة جداً، سنذهب الى مكان آخر تحددهُ الشركة، فكونا على إستعداد معنوي لذلكَ، قالت ذلكَ وهي تنهض حاملة عدة صحون طعام فرغت من محتواها لتضعها في مغسلة الصحون.. نهضت الفتاة بعد فترة من الزمن لمّا أنهت طعامها وشعرت بالشبع بعدَ طول جوعها كانَ العم قد نهَض قبلَ ذلكَ معلناً ذهابهُ الى المشفى للسؤال عن حالة الرجل الذي أنقذَ إبنة أخيه من براثن الذئب، ولقد صدقَ ظن الوالدة لأن الأطباء قرروا عدم الحاجة لمكوث الرجل في المشفى بعد تعقيم وخياطة الجروح، ذهبت الفتاة الى كوخ الساحر حاملة سَّلةً من الفواكهه وأخرى من الشطائر وقررت ترتيب الكوخ وإعداد مكان صحي ينفع لرقادهِ فترة مرضهِ حتى تطيب جراح ساقهِ ويديه، كانَ عمها قد اتصّلَ بها وأخبرها بقدومهُ مع الرجل الى الكوخ، ولذلكَ أسرعت الفتاة بالذهاب وقامت بتهوية الكوخ وإخراج القاذورات المتراكمة من بقايا جثث الحيوانات أو وبرهم أو ريشهم وكذلكَ تنظيف أرضية الكوخ من تلكَ الدماء التي لم ينظفها أحد، كانَ جهداً أستثنائياً من قبل الفتاة في فترة زمنية قصيرة...

جاءَ العم مع سيارة الإسعاف حاملاً الرجل بمساعدة ممرضين حيث وضعوهُ على سريرِهِ وهناكَ بقي راقداً ينظر بذهول الى منزلِهِ الذي لم يتعرف إليه بادئ ذي بدء...

– حسناً يافتاة لقد قمتِ بجهد كبير، أنهُ كوخ آخر لا أعرفهُ...

أبتسمت الفتاة بخجل وهي تطرق بنظراتها الى أرضية الكوخ...

- أنا أشكر والدتكِ كثيراً فقد سحبت بلاغها عندَ الشرطة وقامت بدفع تكاليف علاجي كاملة حتى مجيئي الى هنا...

- كلا، لا شكر على واجب لقد تحدثتُ مع والدتي وسأمكثُ نهاراً لرعايتكَ، وعندَ المساء يأتي عمي حتى تتشافى جراحكَ...

رفع الساحر نظراتهِ المندهشة نحو الفتاة ولم يعقب سوى بتنهيدة طويلة، كانت نظراتهُ مليئة بالعرفان والشكر...

فعلاً أخذت الفتاة ترعاهُ كلَ صباح حتى المساء، تطعمهُ بيديها وتأخذ بيدِهِ لتنهضهُ من فراشهُ مستنداً عليها، لم يكن قادراً على الأمساك بشيء براحتي يديه ألّلهم إلا بأطراف أنامِلهِ وكذلكَ لم يكن قادراً على السير بساقهِ الجريحة تلكَ، كل يوم كانت تأتي فيه الفتاة إليه لترعاهُ وتجلب الطعام من منزل والدتها وتبقى بقربهِ ليتحدثا عن حياتهما، عندما يحين المساء كانَ الأمتعاض يبين على وجه الساحر ذاكَ لأن الفتاة كانت تغادر مسرعة بمجرد حضور عمها...

- في إحدى الصباحات فتحت الباب حاملة سلة الطعام...

فرفعَ العم رأسهُ حيث كانَ نائماً فوق الأريكة مقابل سرير الرجل، نهضَ العم بسرعة وإرتدى سترتهُ وودعَ الرجل وإبنة أخيه، نظرَ الساحر الى الفتاة بسعادة...

- صباحكِ سعيد...

هتفت الفتاة وقد شعرت بسعادة مفاجئة...

- صباحكَ سعيد.. جلبتُ لكَ طعام الأفطار، سأصنعُ لكَ الشاي الآن...

- سوف أفتقدكِ حقاً، قال الساحر بعينين دامعتين وهو يرتشف الشاي من بين يدي الفتاة التي أخذت موضعها المعتاد بجوار سريرِهِ لتطعمهُ، تبادلا النظرات، أطرقت الفتاة برأسها ولما رفعتهُ كانت قطرات دموع جلية في مقلتيها، لاحظَ الساحر ذلكَ، حاول بأناملِهِ إبعاد كوب

الشاي الساخن لأنهُ لم يكن قادراً على ضَّمهُ براحتي يديه فحملهُ من الأعلى بأطراف أصابعِه...

هل سنبقى صديقين...

- هل ستذكرينني ياترى حيثما ذهبتِ؟؟

رفعت الفتاة نظراتها إليه وهزت رأسها إيجاباً، لكنَّ الدموع سالت من عينيها دونما إرادة، مسحَ الساحر دموعها بأناملهِ...

لاتبكِ ياغاليتي أبداً، لاتبكِ، فبفضلكِ قد تغيرتُ الى الأبد، لقد غيرتِ حياة شخص كانَ غارقاً في الوحل والموبقات ليشعر أنهُ حر وأنَّ روحهُ أصبحت طاهرة نقية كما لو كانَ طفلاً صغيراً، كما كنتُ لما جئت هذه الغابة أول مرة حقاً...

- أنتَ تقول ذلكَ لتهون علي فقط، أنا سأرحل غداً مع والدتي...

لن، لن، تراني ولن أراكَ، قالت ذلكَ وهي تكفكف دموعها...

تابعت فجأة، وقد إنفجرت بالبكاء...

- من سيحكي لي قصصاً عن مغامراتهُ في الغابة مع الذئاب، من سوفَ يحكي لي عن كل ما مرَّ به من صعوبات؟؟

- سوف أشتاقُ لكل ذلكَ عزيزتي الصغيرة...

هتفَ الساحر بألم...

- وبمن سأستند وأنتِ لستِ قربي؟؟...

صحيح أن ساقي على وشك التشافي، لكنْ سأشتاقُ لكلّ ذلكَ الطعام الذي كنتِ تجلبينهُ لي...

نظرت الفتاة إليه للحظة ثم إنفجر الأثنان بالضحك، كفكفت الفتاة دموعها ونهضت لتودع الساحر، نظرا إلى بعضهما مطولاً ثم أطرقت الفتاة وأدارت ظهرها لتذهب نحو الباب وقفت

عندهُ إلتفتت للحظة.. كانت نظراتهُ لاتزال معلقة بها إرتبكت كثيراً وأسرعت بالإختفاء خلف الباب لتركض عائدة الى منزل والدتها...

رحلت الى مدينة أخرى وبسرعة إعتادتها الفتاة، قامَ العم بإجراءات إيجار منزل جديد علاوة على بقية إجراءات تسجيلها في مدرسة جديدة بعد إنتهاء عطلتها الموسمية وباقي إجراءات الإنتقال التي لم تعد جديدة أبداً عليها إذ كانَ عليها ترتيب المنزل وفتح الصناديق وترتيب الأثاث، وفتح الرزم التي جاؤوا بها معهم عبر الطائرة، أخذت الفتاة مكانها في صف دراسي جديد.. أصبحَ لديها أصدقاء جدد كما إعتادت لكنّها لم تعلق نفسها بتلكَ الصداقات، الجديدة كونها تعلم أن كلَّ ذلكَ سينتهي بعد حين، لكنَّ ما لم تنسهُ ولم تعتبرهُ شيئاً عابراً أبداً، مغامرتها في تلكَ الغابة وذكرياتها الأخيرة تلكَ، كانت أمراً لا تستطيع نسيانهُ.. فكرت في أحد الأيام أن تبحث عن تلكَ المنطقة عبر الأنترنت وترى فيما لو كانَ هنالكَ ذكر لكوخ ذلكَ الساحر، وبالفعل ذهبت الى مكتبة في وسط المدينة حيث إنتقلت للعيش وفي تلكَ المكتبة كانت هناك حواسيب تتوفر فيها خدمة إنترنت قوية تمكنها من البحث عن تلكَ المنطقة بشكل مفصل، كانت قد حاولت البحث عن تلكَ المنطقة عبر غوغل في جوالها قبل ذلكَ بمدة من الزمن عدة مرات، لكنها لم تعثر على شيء.. لكنَّ أحلامها كل ليلة كانت تشدُّها لتلكَ البقعة، لذلكَ الكوخ.. فترى نفسها روحاً متحررة من كل قيد تجول في تلكَ الغابة ولذلكَ قررت عدم اليأس والبحث مرة أخرى، لشدة دهشتها وهي تستعين بمساعد المكتبة ليساعدها على البحث عن ماتريدهُ إذا بها تعثر على ذلكَ الكوخ في أحداثٍ ذُكرت في جريدة محلية قبل فترة تقارب الأسابيع الأربعة...

قربتَّ الفتاة الصورة فإذا بعنوان يتصدر الصفحة الرئيسية، قفز لهُ قلب الفتاة ذعراً وإرتعدتْ فرائصها لهُ رعباً، وقفزت الدموع من مقلتيها عنوة كانَ العنوان كالتالي: مقتل ساحر القرية وحرق كوخهُ...

ولقد سحرت لبابي

(الجزء الثامن)

أنكفأت الفتاة على نفسها ولم تغادر غرفتها ليوم كامل وظلت تبكي الساحر دون أن تخبر والدتها بما جرى لها وبقيت تبلل وسادتها بدموعها وهي تستذكر تلكَ اللحظات التي جمعتها مع ذلكَ الساحر وكأنهُ سحرها هي فَلَمْ تعد قادرة على عدم التفكير فيه كانت ترفض في سريرتها التصديق بأنَّ ذلكَ الشخص الشجاع القوي ذو البنية الجسدية المتكاملة قد تمكنت النار منهُ ولم تُبقِ من ذلكَ الجسد شيئاً، وكلَّما تخيلت منظر حرقِهِ مع منزلهِ كلمّا زاد بكاؤها، طرقت والدتها الباب عند المساء وفتحتها لتدخل بسرعة فوجدت أبنتها متلفعة بالغطاء فوق سريرها...

- مابكِ حبيبتي هل أنتِ مريضة؟؟

قالت الأم ذلكَ وهي تضع راحة يدها فوق جبين إبنتها، فتحت الفتاة عينيها اللوزيتين ونظرت أمها وهي تتأوه...

- لستُ بخير ياأماه...
- لذلكَ لم تذهبي الى المدرسة اليوم عزيزتي أليس كذلك؟؟
- نعم ياأماه، لا أشعر أنني بخير...
- حسناً، هل أجلبُ لكِ طعاماً، أنتِ لم تأكلي شيئاً منذ البارحة...
- كلا ياأماه، لا أريد سأكون بخير لا تقلقي...
- حسناً إذاً، سأدعكِ لترتاحي إن أحتجتِ شيئاً ناديني...
- نعم، سأفعل شكراً لكِ ياأماه...

وما أن غادرت الأم حتى نهضت الفتاة من سريرها ونظرت الى المرآة أمامها، فرأت وجهها الشاحب، عندَ ذاكَ إنخرطت بالبكاء، رددت بشكل لا إرادي...

- أين أنتَ ياجني؟؟

أين أنتَ أيها الصديق؟؟

أن كنتَ حقاً تحب صديقكَ، وأن كنتَ صديقاً حقيقاً فَلمَ تركتَ صديقكَ يموت بذلكَ الشكل...

رحماكَ يارب...

قالت ذلكَ ثم إنخرطت بالبكاء وهي تضُّم وجهها بين يديها، رفعت رأسها بعد لأي ونظرت مباشرة الى المرآة أمامها فوجدت عينيها قد إحمرتا بفعل البكاء، لكنَّ ذلكَ المنظر لم يكن ليفزعها لولا ظهور الوجه الأبيض الفاقع في المرآة بقربها بعينيه الزرقاوتين تلتمعان كسنان النار الأزرق، بينما خصلات شعرهِ الطويلة الشقراء قد تناثرت على كتفيه خلفها مباشرة.. إلتفتت فزعة، لم تجد أحداً...

نظرت الى المرآة مرةً أخرى، كانَ لايزال خلفها وقريباً جداً منها، كادت تصرخ، لكنهَّا تمالكت نفسها ولاذت بالصمت، قلبها كادَ أن يقفز من بين الأضلاع.. كلمتهُ وهي تمتم...

- أين هو؟؟

هل ماتَ حقاً؟؟

- كلا، لم يمت، لاتقلقي لقد أوصاني بإيصال هذه الرسالة لكِ، أنّهُ حيٌّ يرزق، وأن لاتصدقي شيئاً من الأخبار...

- لكن، لكن أين هو؟؟ أرجوكَ لاتذهب...

وألتفتت فلم تجدهُ، في صباح اليوم التالي عادت الى مدرستها وهي تشعر بسعادة غريبة قد انبعثت من قرارة نفسها، فكرت مع نفسها في الإستراحة وهي تتناول الطعام مع صديقاتها أنَّ

سر سعادتها، المفاجئ هو معرفتها بنجاة الساحر من الموت، وأنهُ موجود في مكان ما في هذا العالم الواسع، أنهُ بخير حتى ولو لم تكن تراهُ، فكّرت في سريرتها عن سّر ذلكَ، فوجدت نفسها تجيبها حتى وإن كانَ بعيداً عني فأهم شيء هو سلامتهُ لأنني، لأنني أعزهُ معزة كبيرة في داخلي، لكن أيّةُ معزة هذه، لماذا أفكر فيه كثيراً، ولم، لم أستطع نسيانهُ...

- ياإلهي لكنْ، مايهم الآن أنهُ بخير.. قالت ذلكَ ونظرت إلى بقية صديقاتها اللاتي كنَّ يتحدثن عن آخر صيحات الموضة في الأزياء، كانَ المنزل الذي إستأجَرهُ العم لهم واقعاً في بقعة مطلة على البحر ومن شرفة غرفتها، كانت الفتاة تنظر الى الأشجار الوارفة الظلال على طول الطريق المؤدي الى البحر، كانت تلكَ الليلة مكتملة البدر، ذهبت الفتاة بعد أن إستأذنت والدتها الى الشاطئ، قالت لها والدتها أن لا تتأخر، وسمحت لها بالذهاب بمفردها لأنَّ قلبها أعلمها أن في أبنتها شيئاً حزيناً وأن قلبها كانَ كسيراً، فلم تشأ إيذاءها أكثر، سارت الفتاة بين الأشجار، لم يكن هنالكَ بشر!! تعجبت في قرارة نفسها، كيف تأتى للآخرين أن يناموا بوجود ذلكَ البدر الجميل وتلكَ المناظر الطبيعية الخلابة كانت تظن أنهّا ستجد عند الشاطئ كثيراً من الناس، لكنْ وبخيبة أمل كبيرة، لم تجد أحداً...

جلست عند إحدى الصخور، كانت قد وضعت شالاً على كتفيها تحسباً للبرد وبالفعل وجدت الجو بارداً جداً قرب البحر، فشدَّت الشال بيدها حول صدرها بقوة أكبر، نظرت الى القمر طويلاً وتنهدت بألم...

- ياترى أين أنتَ؟؟

قالت في سريرتها ثم تمتت بصوت خفيض...

- ياليتني أعلم هل أنتَ بخير هل أنتَ على مايرام؟؟

ياألهي أنني أفكر فيكَ ليل نهار حتى أثناء الدرس، هل من وسيلة أعرف فيها كيف أراكَ؟؟

وهل سأراكَ مرة أخرى؟؟ لا، يجب أن أنسى...

قالت ذلكَ وسالت الدموع من عينيها، شدت رباط شعرها أسفل ذقنها وعقدتهُ بقوةٍ أكبر...

– لقد أزدادَ الجو برودة علي أن أرجع.. حدثت نفسها وفعلاً أدارت ظهرها للبحر الذي كانت مياههُ تصل قدميها كل حين في موجات متباعدة تذهب وتعود بين الفينة والفينة، بينما صوتهُ الهادر من بعيد يحدثها بأحاديث كثيرة وكأنهُ بشر، فجأة وهي تسير أحسَّت بشخص يسير معها، إلتفتت فلم تجد أحداً وقفت فجأةً وإستدارتْ وقلبها يخفق بقوة، لكنها تذكرت كلمات الساحر عندما كانَ يقصُّ عليها مغامراتهِ في الغابة...

– أظهر الآن أنا لا أخشاكَ...

فجأة ومن خلف إحدى الأشجار، ظهرَ لها ذلكَ الجني مرة أخرى، لكنهُ أقترب منها وهذه المرة اقترب بشكل كبير، همس في أذنها...

– لاتخافي إنهُ بخير، لقد عمدَ حرق كوخِهِ كي يوهم الجميع أنهُ ماتَ ليبدأ بداية جديدة.. لقد أوصلتُ لهُ كلماتكِ وخوفكِ عليه، أنهُ أيضاً يفكر فيكِ ولم ينساكِ أبداً...

همس الجني ذلكَ ثم نظرَ الى الفتاة بنظراتهِ الزرقاء اللاهبة فارتعدتْ فرائصها كلها وسرعان ماتبخرَ مع الريح والهواء، وإبتسامة رضا قد إرتسمتْ على شفتيه، ظلت الفتاة مسمرة في مكانها عدة دقائق لاتلوي على شيء، فجأة شعرت أنَّ عليها العودة بسرعة الى منزلها فأطلقت لساقيها العنان كي تركضا حتى تصل سريعاً الى غرفتها حيث أقفلت الباب على نفسها سريعاً وارتمت فوق سريرها مذعورة خائفة لكنْ سعيدة في آن معاً، بعد مرور عدة أيام وبينما كانت الفتاة عائدة الى منزلها إذ استوقفتها جارتهم، وكانت أمرأة في منتصف الثلاثينات عَرَفَ عنها أهل المنطقة قيامها بقراءة الفنجان والكف والتاروت، وقفت المرأة تحييها...

لكن ما أن لمستها حتى بدأت تتحدث بشكل آلي وكأنها منومة مغناطيسياً...

– يجب عليكِ زيارتي في منزلي لأقرأ لكِ أوراقكِ، أنتِ في خطر، هنالكَ أعداء للساحر سيتخذونكِ ورقة رابحة للإيقاع به...

وفجأة فتحت عينيها وتغيرت ملامح وجهها ونبرة صوتها عادت طبيعية، عندما هتفت فجأة...

– ماذا كنتُ أقول لكِ؟؟

– لا، لاشيء...

ردت الفتاة والفزع يتملكها...

– حسناً، أتمنى أن أراكِ قريباً أظنُ إنَّ هناكَ هالة كبيرة من الطاقة حولكِ.. هممم، أنتِ تحملين قوة هائلة في داخلكِ، أتمنى أن تأتي الى منزلي، إنهُ ليسَ بعيداً عنكِ...

قالت المرأة ذلكَ وهي تتفرس ملياً في وجه الفتاة المذعورة قررت الفتاة عند المساء الذهاب الى منزل تلكَ الجارة الغريبة الأطوار رغم أنها لاتعرف عنها شيئاً لأن القلق تملكها والخوف على الساحر أقضّ مضجعها، خاصَّةً بعد كلمات المرأة الغريبة تلكَ فمن أين لها أن تعلم بوجود الساحر إن لم تكن صادقة ومن أين لها أن تعرف بما يربطها به لو لا مصداقية المرأة بكل تأكيد ولما سألت والدتها عنها عنفتها بقولها أن لا شأن لهم بأيَّ جار لأن بقاءهم مؤقت غير دائمي، إلاّ أن الفضول لمعرفة ماحدث مع الساحر ومعها جعلها تتسلل مرة أخرى على أطراف أصابعها وتذهب الى منزل تلكَ المرأة خلسةً عن والدتها وعمها.. كانَ الطريق الى المنزل معبداً ولكنهُ أظلم، اللهم إلا من ضوء القمر الذي كانَ قد بدأ بالتناقص من مرحلة البدر.. وجدت ممر حديقة المرأة بعد أن فتحت بوابتها الصغيرة (لما وجدتها غير مقفلة وكأنهّا فتحت لأجلها خصيصاً) مزداناً بعدة شموع مضاءة على الجانبين على الأرضية المبلطة بالحجر، وقفت أمام باب المنزل، قرعتهُ وضغطت زر الجرس، فتحت الباب تلكَ المرأة مبتسمة بسعادة واضحة وكأنها كانت تنتظر الفتاة على أحر من الجمر...

هلمي عزيزتي فلا وقت لدينا...

– لماذا؟؟

– أنتِ لاتفهمين فصديقنا الساحر أقصد صديقكِ الساحر في خطر ويجب أن نعرف مالعمل؟؟

أدخلت المرأة الفتاة الى غرفة صغيرة جانبية مزدانة بستائر حمراء قانية بينما نصبت طاولة

مستطيلة في وسط الغرفة وحولها عدة مقاعد فاخرة...

- إجلسي هنا...

قالت المرأة بصوت ناعم رقيق، كانت هناكَ أوراق كثيرة قد وضعت فوق الطاولة وكانَ هنالكَ شمعدان يتوسط المائدة، أشعلت المرأة شمعة فوقهُ، أطفأت ضوء المصباح الكهربائي، ثم أمسكت بيدي الفتاة بكلتي يديها.. أغمضت عينيها ثم فتحتهما بشكل فجائي ذعرت لهُ الفتاة...

- ماذا، هل هو بخير؟؟

هتفت الفتاة بذعر، ركَّزت المرأة نظراتها على عيني الفتاة، رفعت ورقة كانت أمامها...

- إنها بطاقة خطرة هناكَ حب كبير وهنالكَ موت...

كانت الظلال تنعكس فوق وجهها في تلكَ الأمسية متذبذبة مع تذبذب لهيب الشمعة.. هتفت الفتاة بذعر...

- علي أن أعود لوالدتي فهي لاتعلم أين أنا...

- فلتبقي!! هنالكَ أوراق يجب أن نقرأها، لاتخافي كل شيء سيكون على مايرام.. عزيزتي أُنظري هناكَ ندم هناكَ تكفير عن ذنوب، هنالكَ شخص يحبكِ وهو نادم على أفعالِهِ السابقة، لكنهُ في حيرة شديدة وهنالكَ أشتياق هل أنتِ مشتاقة لهُ؟؟

قالت المرأة ذلكَ وهي تركز نظراتها على الفتاة فشعرت الأخيرة بحرج وذعر شديدين علي أن أعود لوالدتي، قالت الفتاة ذلكَ وهي تنهض عن كرسيها حيث جلست، فإذا بيد قوية تجلسها على الكرسي مجدداً...

- كلا، لقد حدثني سيدي أن لا أدعكِ تغادرين هذا المنزل مطلقاً حتى يأتي الساحر، إلينا أليس كذلكَ سيدي العزيز...

قالت ذلكَ لرجل خرج من خلف الباب لتلكَ الغرفة الصغيرة، كانَ ذلكَ الرجل طويل القامة، مفتول العضلات لم تر الفتاة من ملامحِهِ الكثير بسبب إنارة الشمعة المنفردة لكنهُ إقتربَ

منها ممسكاً بها كي لا تخرج بقبضة الأخرى حتى بان جزء من وجههِ، عندَ ذاكَ خمنَّت الفتاة بسرعةٍ من تلكَ الملامح أن ذلكَ الرجل ماهو إلا قريب للساحر أو أنَّ صلةً ماتربطهُ به لتشابه شكلهِ معهُ الى درجة كبيرة، إلتفتَ ذلكَ الرجل نحو المرأة وكلمها بصوت هادئ...

– أماه، هل أربطها هنا أم في الغرفة الصغيرة جداً تحت السلم؟؟

أنتِ تعرفين أنَّ عملكِ في الأساس في هذه الغرفة ولذا يجب أن لا تتعرضي للأذى...

– حبيبي الغالي، إفعل ما بدا لكَ فهي على كل حال ستظل ضيفة غالية عندنا الى حين وصول والدكَ حبيبي وصغيري الوسيم، قالت المرأة ذلكَ مبتسمة، وهي تنظر الى الفتاة من طرف خفي بينما أخذ إبنها يربط يدي الفتاة وهو يقيدهما بالكرسي، نظرت المرأة بحقد نحو الفتاة وقربت وجهها منها...

– سنرى الآن قوةَ حبهُ لكِ، لستُ أدري لمَ فضلكِ على كلَّ من عرفهن، هل السبب في جمال قسمات هذا الوجه الجميل؟؟

قالت ذلك وهي تمرر أصابعها فوق وجنة الفتاة، فأبعدت الفتاة وجهها وبصقت على تلكَ المرأة فما كانَ من الأخيرة إلا أن صفعتها بقوة سقطت معها الى الأرض مع الكرسي، شعرت الفتاة بالدوار الشديد لأن رأسها ارتطم بالأرض بينما سمعت صوت المرأة المتوعد وهي تزمجر بصوت غاضب...

– سيدي الغالي وولدي الحبيب، سأتركها الآن لكَ كي يقاسي الساحر مما عانيتهُ أنا لما تركتني والدتي معهُ في ذلكَ الكوخ، عليكَ أن تأخذ بثأرنا أنا وإياكَ، وبدون تردد: وداعاً ياصغيرة وسلامي لساحركِ العزيز، سنرى هل ينفعهُ سحرهُ في إنقاذكِ؟؟

قالت المرأة ذلكَ وهي تخرج وتصفق الباب خلفها وتدير المفتاح فيه بينما شعرت الفتاة بألم في رسغها وساعدها الأيسر وبتدفق سائل دافئ فوق راحتي يديها المشدودتين فعلمت أنها كانت تنزف بفعل جرح قد حدث في ذراعها إثر سقوطها على أرضية الغرفة، تمتمت بينما كان الشاب يتقدم بخطوات سمعت صوتها وهي تئن فوق الأرضية...

- أيها الجني، أرجوكَ أوصل للساحر كلامي، أرجوكَ أنني في حاجة ماسة لكَ.. رحماكَ يارب، ساعدني...

- ماذا تقولين أيتها المشعوذة وبأية لغة تتكلمين، ماهذه اللغة، هل أنتِ ساحرة مثلهُ...

قال ذلكَ وهو يشد بقبضتهِ على ياقة قميصها بقوة بحيث حملها من جديد إلى وضعها السابق كما كانت جالسة فوق الكرسي، فأخذت تنظر إليه وهي ترتجف...

- تكلمت بلغتنا أقسم لكَ...

- كلا، أنا أعرف أنها لغة غريبة، حتى ليست على وجه الأرض، أنتِ ساحرة...

- أرجوكَ دعني بسلام...

- كلا، لقد عشتُ طيلة حياتي بلا أب بسبب نزوة إنسان حقير مثِلهِ وهو الآن يريد أن يتوب ويصبح أنساناً جيداً، هيهات، ماذا عن عمري كلِّهِ، لقد ظنَ أنَّ والدتي غبية لتلكَ الدرجة كي تصدق أن كوخهُ قد احترق وحرقهُ معهُ...

كلا، لقد تبعتكِ والدتي لأنها علمت يقيناً بما جرى بينكما ولّما كانت تجدكِ هناكَ وسمعت أحاديثكما، أنهُ يريد أن يعيش دور المراهقة من جديد.. الأحمق، لقد، لقد آذى أمي منذُ كانت صغيرة لّما جلبتها جدتي لتتعالج.. وإستطاع أن يغويها وهي لاتزال غرة والآن يريد التوبة، ذلكَ العجوز الأحمق.. تعالي لأريكِ دربَ التوبة...

أمسكَ الشاب ذقنها بيدِهِ وإقترب منها بينما إرتجفت فرائصها كلهُّا، كادت أن تصرخ لو لا أنها سمعت صوتاً حازماً من خلفهما...

- كن على يقين أنني لم أغوي والدتكَ ولم أفعل شيئاً دون رغبتها ثم أني قد جئتكَ بنفسي، فدعها الآن بسرعة لأنني لا أريد إيذاءكَ...

- رباه، ماأسرع وصولكَ، ولكن إن كنتَ لاتريد إيذائي، فلقد قمنا بكل هذه المسرحية كي نتعمد إيذاءكَ، هلم إلي ياوالدي الحبيب...

- أرجوكَ، كلا...

صاحت الفتاة بينما كانَ الشاب قد أخرج مسدساً من بنطالِهِ وصوبهُ نحو الساحر...

ولقد سحرت لبابي

(الجزء التاسع)

عندما أطلقَ الشاب رصاصتهُ تلك على الساحر حدثَ شيء غريب، إذ أضاءت الغرفة فجأةً بضياء عجيب وإنفصلَ الساحر الى شخصين ولشدة دهشة الشاب فقد سقطَ على الأرض من هول الصدمة، وأخذَ يزحف بشكل عكسي على ساعديه باستخدام مرفق ذراعيه، كانت عينا الجني مركزتين عليه بينما أنيابهُ الطويلة قد ملئت فمهُ الذي بدا كبيراً جداً للفتاة وبشكل مرعب للغاية لما فتحهُ مكشراً عن أنيابِهِ بكلِّ معنى الكلمة، كانَ الساحر بقرب الفتاة يفتح رباط يديها وهو يهّونُ عليها، لمّا تلطخت يداهُ بدمائها التي تسيل من ساعدها...

– ياإلهي أنتِ جريحة، ياإلهي كلَ ذلكَ بسببي...

– رحماكَ يارب، ظننتُ أني لن أراكَ!!

قالت الفتاة بسعادة مفرطة وقد نسيت ألم ساعدها بينما رفعَ الساحر عينيه إليها وقد امتلاتا شوقاًوعرفاناً...

– أيتها الغالية، سوف أُخرجكِ من هنا وأُعالج جرحكِ...

– لاعليكَ ولكن كيف جئتَ بهذه السرعة...

نظرَ الساحر إليها للحظات نظرة خاصة ثم أردفَ هامساً...

– لم يكن هناك متسع من الوقت فلمّا جاءني صديقي محذراً وقد حمَّلتِه رسالتكِ لي علمتُ أنَّ الخطرَ وشيك، كانَ لا بدَ لي أن أدعهُ يتلبسني، كانَ لابدَ لي من أن أدعهُ يستولي على جسدي لكنَّ هذا الأمر أتعبني للغاية، ولم أقم به من قبل أبداً لأنهُ خطير للغاية...

- لكنْ لا سوفَ يموت ذعراً ماذا سيفعل لهُ صديقكَ؟!

صاحت الفتاة وهي تنظر الى الشاب يجود بنفسِهِ ويناضل بحركات هستيرية وهو يحاول إبعاد الجني عنهُ، بينما كانَ الأخير يخنقهُ دونَ أن يستطيع الشاب إبعاد قبضة ذلكَ المخلوق عنهُ لأنهُ غير ملموس، نظرَ الساحر إليها بحّبٍ وعرفان...

- هل تعفين عنهُ رغم نيتِهِ السيئة ورغم ما كانَ ينوي فعلهُ ومافعلهُ مع والدتِهِ لحد هذه اللحظة؟؟

- نعم وبكل تأكيد...

صرحت الفتاة وهي تهتف، فصاحَ الساحر بصوت خفيض، وبلغة لم تفهمها الفتاة أيضاً فتوقفَ الجني عن خنق الشاب وإلتفتَ إليهما:

- إحملها الى منزل والدتها، أرجوكَ إذهب بها من هنا، هزَ الجان رأسهُ دلالة الموافقة، إلتفتَ الشاب إليها وهو يتنفس بشكل صعب، حاولَ الكلام لَّكنهُ فشلَ، كانت نظراتهُ مليئة بالشكر لها...

سألها الساحر بعدَ لحظات...

- لمَ عفوتِ عنهُ؟؟

مهما كانَ الأمر سيظل إبنكَ ويوماً ما سوفَ يعرف أنك لم تكن وقتها مدركاً لخطئكَ وبسبب جدّتِهِ فعلتَ ما فعلت، فهي التي أحرقت والدتكَ، ثمَّ كيف لي أن لا أعفو عن ولدكَ...

قالت ذلكَ وأطرقت بحياء ثمَ رفعت رأسها، نظرا لبعضهما طويلاً بعدَ أن شدَّ جراح يدها بلفاف كان متلفعاً به حول رقبتِهِ...

- لكن هلاّ قدمتَ معنا، أرجوكَ أنا أخشى عليكَ من المرأة...

- هيا أذهبي وداعاً والى اللقاء الذي لا أعرف زمنهُ...

قالَ الساحر ذلكَ وهو ينظر الى الفتاة بكل حب وشوق عندما إلتفتَ فجأة ونادى صديقهُ كي تخرج الفتاة من ذلكَ المنزل...

- لكن لا...

مدت يدها نحو الساحر الذي تركها مع الجني فوجدت نفسها فجأةً في غرفتها مجدداً وفوق سريرها وكأنها لم تغادرهُ أبداً، تلفتت يميناً ويساراً قرصتْ نفسها هل كانَ ذلكَ مجرد حلم؟؟

لكنها شاهدت ساعدها ملفوفاً بلفاف الساحر، شعرت بارتياحٍ عجيب وتنفست الصعداء، قبّلت ذلكَ اللفاف وهي تضع يدها على صدرها، نظرت عبرَ النافذةَ الى منزل جارتها الذي لايبعد عن منزلها إلا أمتاراً قليلة، شعرتْ بالقلق وبقلبها يعتصر...

- ياتُرى ماذا يجري مع الساحر هناكَ في ذلكَ المنزل؟؟...

- لماذا عفوتَ عني وتركتني، أقتلني فأنا لا أريد الحياة...

قالَ الشاب ذلكَ للساحر وهو يحاول النهوض بينما كانَ لايزال ممدداً على الأرض...

- أنا أولاً: لم أكن أعلم بوجودكَ، ثم ليكن في بالكَ ومعلوماتكَ شيء واحد فوالدتكَ هذه مشعوذة من الدرجة الممتازة، تعمل السحر وتبتاعهُ وتتاجر به، ولقد عاشت معي لعدة أعوام بإرادتها ولم تقل لي عنكَ شيئاً بعدما تركتني بإرادتها هي، أنا جداً آسف لكل مامررتَ به، ومستعد أن أعوضكَ، فلتأت معي!!

- ولم لاتبقى معنا وتتزوجني ونعيش سوية كأُسرةٍ واحدة...

فجأةً ظهرت الجارة من خلف الباب الذي أقفلتهُ، كانت قد تزينت ووضعت بعضاً من مساحيق التجميل وكأنها كانت تستعد لذلك اللقاء.. رفعَ الساحر نظراتهِ إليها، قطبَ مابين حاجبيه...

- أوَ تظنين أنَ هناكَ رباطاً بيننا، بعدما فعلتِه الآن، إن كنتُ يوماً ما سأدافع عنكِ مع نفسي وأنا أفكر فيكِ مثلاً لو أفترضنا وأقول، لو، مررتِ ببالي فأنا الآن من المستحيل لي أن أبرئ

ساحتكِ، أنتِ مثلها حقيرة مجرمة...

- أماه، عن ماذا يتكلم!! لقد سمعتُ الفتاة وهي تكلمهُ، لماذا أحرقتْ جدتي والدتهُ؟؟ أريد أن أعرف الحقيقة الآن...

إنهارت المرأة فوق الكرسي وحارت جواباً ووضعت رأسها فوق كفها...

- أنا لم أكن أعلم، وكانَ ذلكَ أحد أسباب إنفصالي عن أبيكَ، فلقد إتهمتهُ بتهمة أغوائي لتحقيق أهدافِهِ الأنتقامية، لمّا عرفت بقصة والدتي مع والدتِهِ...

- وهل أغويتكِ حقاً ياأمرأة؟؟ لماذا ملئتِ رأس الفتى بخرافات وخزعبلات كاذبة؟؟

- لم، لمْ تعدني إليكَ إذاً، لقد.. لقد...

- أنتِ التي خرجتِ، لم أطردكِ...

- لقد أحببتكَ...

قالت ذلكَ وضمت وجهها بيديها وأجهشت بالبكاء ثم نهضت وتركت الغرفة بسرعة، نظرَ الشاب الى الساحر بأسف، حاولَ النهوض لكنَّ يداً إمتدت إليه، أمسكَ بها فنهضَ بمساعدة الساحر بسرعة، وقفَ الأثنان مقابل بعضهما وكأنهما نسختان لشخص واحد، الأولى في شبابها والثانية عندما مرت سنوات طويلة أصبحَ فيها في نهاية الثلاثينات، نظرَ الشاب الى أبيه بنظرات الدهشة والمهابة في آنً معاً، كانَ الأب لايزال ممسكاً بيدِهِ وهو يشدُّ على قبضتِهِ عندما تنبّه لفعلتِهِ تلكَ فاعتذرَ وأبعدَ يدهُ، كانت عيناهُ قد أدمعتا تأثراً فاضطرَّ لعمل تلكَ الحركة كي لايراهُ الفتى باكياً...

- أنا أعرضُ عليكَ المجيء معي لو أحببت...

قالَ الساحر ذلكَ لولدِهِ ثم إلتفتَ واختفى لمَّا وجدَ أن الأخير لم يستطع أن يصنع قراراً حازماً تاركاً إياهُ والألم يعتصرُ قلبهُ...

في صباح اليوم التالي كانَ لابدَ للفتاة أن تذهب الى المدرسة لتجعل كل شيء طبيعياً أمام

والدتها وكي لا تعطي انطباعاً لدى صديقاتها أنها بسوء أو أنَ خطباً ما قد حلَ بها وبينما كانت تخرج من منزلها، سمعت أحداً ينادي باسمها، إلتفتت فوجدت ذلكَ الشاب فوق دراجتهِ يتجَّه نحوها، إرتعدت فرائصها وتذكرت أحداث الأمس لكنهُ أسرعَ بمناداتها أن لاتخشاهُ...

– أرجوكِ، أنا فقط أريد التحدث معكِ قليلاً...

– تحدث بسرعة أنتَ تعلم أنَ الناس سوفَ يتحدثون بالسوء عني أن رأوني أحدثكَ...

نعم، أنا ممتن لكِ، أولاً لأنكِ أنقذتيني من براثن ذلكَ المخلوق العجيب...

– حسناً لابأس...

– ثانياً لا لا تذهبي أرجوكِ، أنا راغب بمعرفة قصة أبي لو سمحتِ.. إلتفتت الفتاة نحو الفتى، كانت مقطبة الجبين، لكنْ، ما أن سمعت كلام الشاب حتى إنفرجت أساريرها...

– والدكَ رغم كل أخطائهِ إلاّ أنَّ في داخلِهِ أنسانية كبيرة، هو لم يتعَّمد أذى أحد، بل إنَّ المجتمع هو من جنى عليه!! أو يعقل وأنتَ في عمركَ هذا أن تأتي يوماً لترى أهل هذه البلدة قد أحرقوا والدتكَ ماذا ستكون ردة فعلكَ؟؟

– ولماذا أحرقوها؟؟

– لأنهم أتهموها بالسحر، فما بالكَ بطفل صغير يحصل معهُ ماحصل؟؟

– ولكن أينَ عاشَ الساحر؟؟

– في الغابة عاشَ مع الحيوانات والذئاب طفولتهُ كلها بدلاً من أن يلعب ويحظى بحياة طبيعية، هل تظن أنهُ أتخذَ تلكَ المهنة جزافاً أو لمْ يكن كلُّ ذلكَ بسبب ما اقترفهُ المجتمع بحقهُ...

– ولكن الى أين ذهبَ؟؟

– ألم يخبركَ والدكَ؟؟

– ياألهي، لستُ أدري لكّنهُ يذهب بعيداً عنكِ أنا على يقين!! قالَ الشاب ذلكَ وابتسمَ

بشكل غامض وهو يرمقها بنظرة إعجاب خفي، بينما استدارَ بدراجتِهِ مولّياً ظهرهُ للفتاة التي كانت تريد أن تخبرهُ بأنَّ والدتها ستغادر بعد يوم واحد الى مدينة جديدة وأنها ووالدتها وعمها سوفَ يتركون المكان كلهُ، لكن الكلمات ماتت عندَ شفتيها وبالأخص لما تذكرتْ ما فعلتهُ المرأة معها.. ذهبت الى مدرستها سيراً على الأقدام ومرَّ يوم آخر في تلكَ المدينة كأي يوم باللنسبة للناس حولها لكنهُ لم يكن كذلكَ بالنسبة لها...

بقيت في الليل تكلم النجوم عبر نافذة غرفتها وتناجي طيف الساحر الذي غابَ عنها تتساءل في سرها متى تلقاهُ؟؟

متى سيتخلص من ماضيه الأليم؟؟

في منزلها الجديد حيث انتقلت مع والدتها وعمها ولأول مرة في تاريخ حياتها، شعرت أنَّ الله قد خلَّصها من ذلكَ المكان ونظرات الجارة السيئة لها، وأنَّ في عمل والدتها وإنتقالها الدائم من مكان الى آخر خيراً لها...

ولقد سحرت لبابي

(الجزء العاشر)

تنهدَ الساحر وهو يراها تتقدم نحو الغابة بعدَ أن أرسلَ صديقهُ الجني ليظهر لها فجأة أمام نافذة غرفتها في منزلها الجديد...

– حسناً، لماذا لم آتي سألتيني مراراً مع نفسكِ وحدثتِ النجوم، أوصلَ لي صديقي عتابكِ، لكن أنتِ لاتستطعين المجيء إلي وأن تنقذيني من براثن هولاء النسوة اللاتي عقدنَ لي سحراً ورمينهُ في المقابر، أرجوكِ أنا لا أستطيع القدوم إليكِ، لم أعد قادراً على ذلكَ سامحيني أرجوكِ ياعزيزتي.. لقد أشتقتُ الى أحاديثكِ البريئة ونظرات الغزال البري في عينيكِ، أريد أن نكون معاً، تعبتُ من الأنتظار، تعبتُ ومللتُ من ألم الفراق أنا أحبكِ ياصغيرتي وأنتِ تعلمين!!

– لكن أنتَ تعلم أن لا أحد يمكن أن يبقى مع والدتي سواي ولذلكَ فأنا غير قادرة على تركها، لقد ظننتُ أنكَ أنتَ الذي ستأتي الى والدتي وأنتظرتُ طويلاً ولذلكَ عتبتُ عليكَ، أنا أقصدُ، أنا...

أطرقت برأسها والدموع تسيل من عينيها، رفعَ الساحر بأناملهِ ذقنها، تلاقت عيناهما، نظرَ إليها بحب كبير...

– لقد أستطعتُ القدوم إليكِ مع حفيف أوراق الشجر وبمساعدة الريح كي أبلغكِ بهذا الأمر، فنساء قريتي لمّا عرفنَ بكذب موتي قُمْنَ بالإتفاق مع جدة ولدي الذي حاولَ مع والدتهِ الإيقاع بنا بعمل سحر الأمنيات لي، لا أحد يمكنهُ أن يخلصني منهُ سوى شخص مستعد للتضحية بكل شيء.. كنتُ قد قررتُ المجيء الى والدتكِ وخطبتكِ منها لنعيش سوياً بعيداً عن كل بشر مؤذٍ، ولكن أنتِ قد عرفتِ جزءاً يسيراً من شخصية تلكَ المرأة التي أرادت إيذاءكِ،

فلقد قامت بتأليب أهل القرية علي بعدَ ذلكَ السحر أنا لا أستطيع عبور حدود أية غابة، ألا ترين كيفَ أرسلتُ صديقي ليناديكِ كي تأتي الى هنا...

أرجوكِ إن كنتِ قد اخترتني من بين كل البشر، فعليكِ أن تفعلي شيئاً كبيراً كي نكون سوياً وأنا من المستحيل لي أن أدعكِ تفعلين هذا ولذا فأنا قد جئتُ لأودّعكِ الوداع الأخير، أنا لا أستحقكِ، لنْ أستطيع التحرر من سحري هذا مطلقاً، سامحيني، وداعاً ياصغيرتي...

– لكنني أفديكَ بعمري هتفت الفتاة باكية، فنظرَ الساحر بجدّية إليها قطّبَ بين حاجبيه:

– أنا لم أقصِ عليكِ ماذكرت كي تؤذي نفسكِ كلا، لا أحد نجا من دورة الأمنيات أنا هنا لأعلمّكِ لماذا لم أستطع القدوم، وداعاً يامن سحرتِ لبابي أيتّها الغالية الحبيبة، قالَ ذلكَ وأخفى دموعاً كادت أن تتساقط من مقلتيه، والتفتَ أوراق الشجر حولهُ مع هبوب ريح قوية أخذتهُ بعيداً عن الفتاة التي ظلت تقف بمفردها أمام تلكَ الشجرة التي كانت قبل قليل تكلم الساحر أمامها...

– أرجوكَ ساعدني لننقذ والدكَ...

هتفت الفتاة بعدَ أن طرقت باب منزلهِ، لشدة دهشتهُ وهو يراها أرتدَ الى الوراء عدة خطوات بينما ظهرت والدتهُ من خلف الباب...

– إذاً فقد جئتِ بقدميكِ كي تموتي أليس كذلكَ؟؟

– أبتعدي عني فلستُ بخائفة منكِ، أنا قطعتُ مسافة كبيرة لأتحدث مع أبنكِ في أمر هام جداً، هلا قلتَ لو الدتكَ أن تبتعد وأن تدعكَ تخرج لتحادثني!! قالت الفتاة بحزم وقوة، إرتبكت الأم وحارت جواباً بينما خرجَ الشاب مسرعاً نحو الفتاة، قالت لهُ الفتاة بصوت حازم...

أن والدكَ قد أصبح سجيناً لأولئكَ النسوة وكلَ ذلكَ بسبب والدتكَ التي ألّبت أهل القرية عليه ولا سبيل لنجاتهِ إلاّ بسحر الأمنيات، وأنا بحاجتكَ كي أعرف ماهو هذا السحر فهلا ساعدتني...

– وكيف لي أن أساعدكِ؟؟

نظرت الفتاة بغضبٍ الى الشاب وقالت لهُ بخيبة أمل...

– لقد أخطأت بقدومي الى هنا أعتذرُ منكَ حقاً وداعاً يا.. إبن والدتكَ...

أنتظري، أمسكَ الشاب بذراعها بقوة وشدها إليه...

– لستُ أنا من أُسمى بابنِ والدتي، لقد عشتُ مع زوج أبٍ قاسٍ عمراً كاملاً بسبب كذبة كبيرة فهل تلومينني أن أصبحتُ لا أصدق أكثر الكلام الذي يقال لي وخصوصاً بعدما أكتشفتُ أنَ أقرب الناس إلي كذبت علي...

قالَ ذلكَ والشرر يتطاير من عينيه، فنظرت الفتاة بحزن وعطف الى عينيه مباشرة وتقدمتْ نحوهُ هاتفةً...

– أنا آسفة، هلا سامحتني!!

أرجوكَ!! يجب أن ننقذ والدكَ...

هتفت بحماس قتالي فركّزَ الشاب نظراتهِ عليها مذهولاً...

– أو تحبيّن والدي لهذه الدرجة، لكن لماذا؟؟ وما الذي يعجبكِ بشخص يكبركِ كلَ تلكَ السنين وهو مشعوذ خارج عن القانون يكرههُ عديدٌ من الناس وكنتُ أنا أولهم؟؟

– هل سنبقى نتحدث عن أسباب أعجابي بوالدكَ بينما سيقدمونهُ للمحرقة ويجب أن ننفذ دورة الأمنيات غداً...

ماذا!!

– غداً، لكنَّ والدتي لمْ تذكر لي شيئاً!؟

– أنها هي من قلبت أهل القرية عليه، أرجوكَ ماذا أفعل الآن؟؟

– تعالي معي...

قالَ الشاب بحماس مفاجئ بينما شدها من ساعدها وأخذَ يغذُ الخطى وهي تلهث خلفهُ...

- الى أينَ تاخذني أرجوكَ؟؟

إلتفتَ الشاب إليها متوقفاً عن السير السريع ونظرَ مباشرة في عينيها وهو يبتسم بمكر...

- هل تخافين مني؟؟

- كلا!!

صاحت بحزم وثقة، فأشارَ الشاب بسبابتِهِ الى غرفةٍ في خلفية فناء دار والدتهِ حيث أخذتهُ وإستقرتْ بعيداً عن أهالي القرية وكلامهم، كانَ قد التفَ حول منزلهِ ليدخلها من باب المنزل الخلفي، الى غرفةٍ صغيرة مظلمة، أشعلَ ضوء المصباح الكهربائي فإذا برفوف لاتعد ولاتحصى مليئة بالكتب في كافة أرجاء الغرفة...

- ياإلهي، ماهذا؟؟

- كتب تساعدنا على معرفة ماذا قلتِ، ما اسمُهُ؟؟

- دورة الأمنيات؟!!

رددت الفتاة بوجل بينما كانَ الشاب قد وضعَ سلماً صغيراً صعدَ فوقهُ ليتناول كتاباً من إحدى الرفوف العلوية، هذا كتاب أمي المفضل، إنهُ كتاب السحر الأول، إنَّ والدتي تعمل هنا كأمينة مكتبة.. ولكنَّ المكتبة ملكٌ لأجدادها الأوائل وهي تعيرُ الكتب التي ليست موروثة ولاتتعلق بالسحر وتبيعها لأهل المحلة، ولكنَّ ذلكَ لايمنعها من الإحتفاظ ببعض الكتب المميزة والأثيرة عندها، هه؟؟

قالَ ذلكَ وغمزَ بعينه اليسرى للفتاة فأطرقت بسرعة وحارتْ جواباً.. كانَ ذلكَ كلهُ صعباً على الفهم بالنسبة لها، هزّت كتفيها بلا مبالاة، أشارَ الشاب الى ركنٍ أسفل السلم، جلسَ الإثنان بجوار بعضهما أسفل إحدى الرفوف السفلية وأخذا يقلبّان الصفحات، كانت صفحات مرعبة مليئة بصور فظيعة عن وحوش غريبة وعن تقطيع أوصال، وعن أشياء مقززة، أخذَ الشاب

يقلب فيها بسرعة حتى وصلَ الى صفحة معينة، وهنا شهقَ الأثنان...

– أنها دورة الأمنيات صاحَ كلاهما وهما ينظران بعضهما البعض بدهشة وإعجاب...

قبلت جبين والدتها وهي تغط في نوم عميق تسللت للمرة الثالثة دون أن تخبرها وكانَ قلبها يعتصر ألماً، لأنها في تلكَ المرة كانت مضطرة للذهاب لإنقاذ ذلكَ الرجل الذي ليسَ هنالكَ إنسان يدافع عنهُ سواها...

– سامحيني ياأماه...

هتفت الفتاة بصوت مهموس وهي تبكي أمام سرير والدتها ثم التفتت وأدارات ظهرها وانطلقت حيث كانت تود الذهاب، كانَ الساحر قد أقتيدَ اقتياداً بالسلاسل نحو المحرقة، كانَ الأهالي يصرخون، مخادع، محتال أحرقوهُ.. لاتدعوا منهُ لحماً ولا جلداً، سيدفع الثمن، الماكر المشعوذ، لكنَّ الساحر كانَ هادئاً ولم يحاول تبرئة ساحتِهِ ولا الكلام عما فعلوهُ معهُ عندما كانَ صغيراً، كانَ يعلم أنَ كلَ شيء سيكون على مايرام وأنَّ الموت المرتقب حتمٌ لابدَ منهُ وكأنهُ كانَ سعيداً بتلكَ الخاتمة وراضياً بها أيّما رضا، وصلت الفتاة الى الغابة مع الفتى، لمْ يتركها ترحل بمفردها ولشدة دهشتِهِ وجدَ والدتهُ مع أهالي القرية تحرضّهم على قتل أبيه وكذلكَ جدتهُ، شعرَ بالعار ورثى حالهُ، إلتفتَ نحو الفتاة وقالَ لها وهما يستتران خلف الأغصان...

– هلمي ذاكَ أبي، أرجوكِ يجب تنفيذ الأمر إننا نقدر على تنفيذ دائرة الأمنيات الآن!!

– كيف؟؟ أرجوكَ قل لي، لقد وضعوهُ في المحرقة الآن، أينَ الشرطة، أينَ القانون؟؟...

نظرَ الشاب الى الفتاة بغضب قالَ بعدها بلا مبالاة...

– الشرطة لايتدخلون في عشائر القرية ولا في نزاعاتهم، لأنهم يعلمون أنهم خاسرون لامحالة.. والآن علي التدخل لإنقاذ والدي قفووووااا...

صرخَ الشاب فجأة وهو يظهر من خلف أغصان الغابة في تلكَ البقعة حيث اجتمعَ أهالي القرية لتنفيذ حكمهم في الساحر بتأليب من تلكَ المرأة، ووالدتها التي أحرقت والدتهُ من

قبل وكأنَ التاريخ يعيد نفسهُ، نظرَ الجميع إليه وركضتْ أمّه نحوه، لكنهُ أبعدها برفق وصاحَ بالجموع وهي تحمل مشاعلها...

– قبل أن توقدوا حطب محرقة هذا الرجل، دعونا نعطيه فرصة للحياة، فأنا أعرف من يمكنها التضحية بحياتها لأجلهِ وتستطيع أداء دورة الأمنيات...

– لا يمكنكِ عمل دورة الأمنيات لها، صاحت إحدى العجائز وتداركت الأخرى قائلة...

– إلا إذا كنتَ من سلالة سحرة أو كنتَ ساحراً...

هنا قهقهه الشاب بصوتٍ عالٍ ونظرَ الى أمه وغمزها وصاحَ، أنا ابنُ هذا الساحر!! صحيح أنكم تطالبون بقتلهِ لأنهُ خدعكم، لكنني من لحمهِ ودمهِ وهذه والدتي، مشعوذةٌ أيضاً وإبنة مشعوذة وقد عاشتا عمراً بين ظهرانيكم، لم أكن أعرف وأنا صغير ماعَمَلهُا، لكننّي أدركتُ ذلكَ مؤخراً، كنتُ أدافع عنها في سري وأنا لا أزال أحبها لأنها والدتي، لكنني لن أدافع عن أفعالكِ ياأماهُ بعد تأليبكِ أهالي القرية ضد والدي، قالَ كلماتِهِ الأخيرة وهو ينظر الى والدتهِ نظراتٍ خاصة فيها عتاب وحبٌّ في آن معاً...

– دعوهُ إذاً...

صاحَ كهلٌ بالحشود.. أمسكت الوالدة بساعد ولدها...

– أرجوكَ أنتَ لستَ ولدهُ أنا، أنا...

أنتَ أبن ذلكَ الذي سميتهُ زوج أبيك...

– أنا، أنا!! لكنَّ زوجكِ قد اكتشف أنهُ كانَ عقيماً ياأماه بشهادة أهل القرية كلهم، وذلكَ كانَ السبب الرئيسي لطلاقكما فاتركيني، أرجوكِ كفاكِ أحراجاً لي...

قالَ بصوت خفيض لأمِهِ فسالت الدموع من مقلتيها وتركت ساعدهُ...

– أذهب ياولدي رافقتكَ السلامة أخذَ الشاب يجمع الحجارة ويصنع دائرة كبيرة منها بينما يتفرج أهالي القرية عليه وصلَ الإعياء به حداً سقط أثرهُ على الأرض بينما لم يمدَّ أحدٌ يدهُ ليعينهُ

إلا والدتهُ التي صرخت مستنجدةً، فلم يجب نداءها أحد، نهضَ الشاب بعدَ مدة وظلَّ يعمل حتى أغلقَ الدائرة ونادى الفتاة لتدخل بها...

– تذكري ماقرأناهُ في مكتبة والدتي، تذكري جيداً ما أن تدخلي الدائرة فأنتِ غير قادرة على مغادرتها حتى إكمالكِ آخر أمنية.. هزّت الفتاة رأسها موافقة بينما صاحَ الساحر بغضب...

– لا ياعزيزتي!! لا تدخلي!! أنا لا أهتم إن عشتُ أو متّ وإنَّ محرقتي كفارةٌ لذنوبي التي اقترفتها بعدَ أن تبتُ على يديكِ، لكنكِ مهمة جداً عندي ولا أريد أن أتعذب برؤيتكِ تموتين، أنكِ ستقتلينني هكذا مرتين...

نظرت الفتاة إليه نظرة خاصة ثم دخلت بقدمها اليسرى الى الدائرة، لمعَ حجر بمجرد أن فكرت أن تتخلى عن أمنيتها بشراء ثياب جديدة...

– أحسنتِ هكذا، صّفقَ الفتى مشجعاً وهتفَ بالفتاة...

– هيا هنالكَ أكثر من مئة حجر تمني وتخلي، بدأت الفتاة تتخلى عن رغبة تلو رغبة وكلما تخلت عن رغبة يضيء حجر حتى وصلت الى ثلاثة أحجار، نظرت الى الفتى وهي منهكة القوى قد خرجتِ الدماء من فمها ويديها وساقيها بسبب تلكَ الأمنيات التي كانت تستنزف طاقتها، صرخت والدة الشاب بها تخلي عن حياتكِ الآن...

شعرت الفتاة بالدوار نظرت ناحية الشاب الذي صرخَ بوالدتهِ دونما وعي بينما صاحَ الساحر بغضب شديد أن لاتفعل.. نظرت ناحية الساحر وأغمضت عينيها تخيلت نفسها ممددة على الأرض وليست لها رغبة في الحياة خرجَ الدم من فمها بشكل أكبر وأومض حجر كبير، أخرجت المرأة ضحكة هستيرية بينما سالت الدموع من عيني الساحر فوق لحيتهِ ووجنتيه، كانت يداهُ مكبَّلتين الى وتدٍ خشبي وتحتهُ قطع الخشب التي لاتعد ولاتحصى، بكى الشاب أيضاً وهو ينظر الى الفتاة، جثا على الأرض بإعياء، هنا صاحت جدتهُ تخلي عن حبكِ للساحر الى الأبد، دارت الأرض بالفتاة فسقطت عليها.. حاولت بكل قواها النهوض، نظرت الى الساحر بحّبٍ وحزن، في آن، تخيلت، أنها لم تعد تحبهُ أبداً والتمع حجر كبير كانَ ماقبلَ الأخير، صاحت عجوز من بين الحشد فجأةً...

– تخلي عن أهلكِ، عن والدتكِ إن كانت لاتزال على قيد الحياة!؟ قالت ذلكَ وهي تغمز صديقتها العجوز والدة المشعوذة، بكت الفتاة بألم وخرجت الدماء من بين أظافر يديها وساقيها، تخيلت أنها لم تعد ترغب بالعيش مع والدتها وإعتصر قلبها بشدة، فخرجَ الدم من أنفها رعافاً والتمعَ الحجر الأخير بينما سقطت هي على الأرض والتمعت جميع الحجارة حولها بلون فضي كلون القمر في تلكَ الليلة المكتملة البدر، تراجعَ أهالي القرية بهلع، لقدْ ذهبَ السحر عن الساحر إذ تحررت يداهُ من القيد وهرعَ نحو الفتاة بسرعة يحاول الدخول الى دائرة الأمنيات، ولكنْ هيهات فقد تكونت دائرة كبيرة من شعاع أصفر أحاطَ بالفتاة ولم ينتهي إلا بمطر هطلَ على تلكَ البقعة بالذات أطفأ مشاعل الأهالي كلها، نظرَ الناس الى بعضهم البعض، شعروا بروح طيبة تمر بينهم أخذَ بعضهم يحضنُ بعضاً بينما أخذَ الأخرون يبكون بجنون صرخت والدة المشعوذة بألم...

– أنا، أنا من ظلمتُ هذا الرجل، أنا من أستحقُّ العقاب، وكأن أحداً يسيرها، ذهبتْ الى عمود المحرقة ووضعت يديها خلفها وهرعَ الأهالي بإيقاد النار تحتها، تحت مرأى ومسمع إبنتها التي كادت تجنّ وأخذت تصرخ وتولول وتنثر التراب فوق رأسها، إحترقت والدتها بنار أعمالها الشريرة، جلسَ الأب وإبنهُ قرب الدائرة ينظران هنا وهناك علهّما يجدان أثراً للفتاة، لكن ريحاً طيبة هبت قربهما وداعبت وجنتيهما فنظرَ الأب الى ولدهُ والدموع تنهمر من مقلتيه وهو يمد ذراعيه إليه، فارتمى الإبن في أحضان والدِهِ وهو يبكي بكاءاً مريراً...

– ياأبتِ لقد ماتت لأجل أن تنقذكَ فأنقذت القرية كلها من السحر!! لقد ماتت ياأبي لا أصدق أنني ساعدتها، لقد قتلتُها...

لا ياوالدي، سامحني لقد أحبتكَ بصدق، لم أصدق ذلكَ حتى هذه اللحظة ياأبتِ...

رفعَ الساحر رأسهُ الى أعلى والدموع تسيل من عينيه وصاحَ بصوت حزين...

– وداعاً يامن سحرت لبابي، سأظلُ مخلصاً لذكراكِ حتى الممات شكراً لكِ من الأعماق وسأظلُّ أذكركِ مع كل نسمة ريح عليل يانسمتي الجميلة وستحيين دوماً معي ولن أخون ذكراكِ أبداً، أحبكِ الى الأبد...

الخاتمة

وفي الخاتمة لايسعني سوى القول أن نهاية أحلامنا ومرفأ خيالنا و ذروة طموحاتنا لن تكون لها نهاية ولا مرفأ، لأنها خلقت هكذا وصنعت كذلك ولهذا ولأجل كل ذلك كتبت لكم بقلمي الذي لن ينشف طالما نظرتم الى حروفه...

نعمت مهدي البياتي

المحتويات

الإهداء........ ٧

فارسة الفضاء ٩

(الجزء الأول)........ ٩

(الجزء الثاني)........ ١٥

(الجزء الثالث) ٢٠

(الجزء الرابع والأخير) ٢٧

هكذا أحببتها........ ٤٠

(الجزء الأول)........ ٤٠

(الجزء الثاني)........ ٤٦

وتدور الأيام ٥٢

(الجزء الأول)........ ٥٢

(الجزء الثاني)........ ٥٩

(الجزء الثالث) ٦٩

(الجزء الرابع) ٧٤

الى أبنتي........ ٨٤

أحكيلكِ يابنيتي حكايتي........ ٨٤

حكايتي بأختصار ٨٨

حلم يوم جميل ٩٣

رسالة عتاب ٩٦

عندما حلَ الربيع فؤادي ٩٩

لما سكنت فؤادي ١٠٢

(الجزء الأول) ١٠٢

(الجزء الثاني) ١٠٩

(الجزء الثالث) ١١٥

(الجزء الرابع) ١٢٥

(الجزء الخامس) ١٣١

وعرفتُ بعضاً مني ١٤٥

لما سرقَ الخريف فؤادي ١٥٣

لحن المطر ١٥٧

ردَلي قلبي ١٥٩

(الجزء الأول) ١٥٩

(الجزء الثاني) ١٦٢

(الجزء الثالث) ١٦٦

(الجزء الرابع) ١٧١

(الجزء الخامس) ١٧٥

(الجزء السادس) ١٧٨

(الجزء السابع) ١٨٣

(الجزء الثامن) ١٩٠

(الجزء التاسع) ١٩٤

(الجزء العاشر) ١٩٨

تحت قطرات المطر ٢٠٧

قصر أحلامي ٢١٣

(الجزء الأول) ٢١٣

(الجزء الثاني) ٢٢١

(الجزء الثالث) ٢٣٨

أرجوكِ، لا تيأسي يا أنا ٢٥٦

ولقد سحرت لبابي ٢٦٦

(الجزء الأول) ٢٦٦

(الجزء الثاني) ٢٦٨

(الجزء الثالث) ٢٧١

(الجزء الرابع) ٢٧٤

(الجزء الخامس) ٢٧٨

(الجزء السادس) ٢٨٢

(الجزء السابع) ٢٨٧

(الجزء الثامن) ٢٩٢

(الجزء التاسع).. ٣٠١

(الجزء العاشر) ٣٠٧

الخاتمة.. ٣١٥

المحتويات.. ٣١٦

النهايـــــــــة